

حَديث القُلوب

د. عبْدُالله بِنْ وُكَيِّل الشَّيْخ



حديث القلوب

تأليف

د. عبد الله بن وُكَيّل الشّيخ

حديث القلوب
د. عبدالله بن وُكَيِّل الشيخ

الطبعة الأولى، الرياض، ١٤٣٧هـ



نشر دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع ، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشيخ، عبدالله وُكَيِّل
حديث القلوب. / عبدالله وُكَيِّل الشيخ- الرياض، ١٤٣٧هـ
٤٦٤ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٦-٠٦-٨١٥٥-٦٠٣-٩٧٨
١- المقالات العربية - السعودية ٢- الوعظ والإرشاد ٣- القرآن - مباحث عامة أ. العنوان
ديوي ٠٨١ ١٤٣٥/٤١٥١
رقم الإيداع: ١٤٣٥/٤١٥١
ردمك: ٦-٠٦-٨١٥٥-٦٠٣-٩٧٨

التصميم والإشراف الفني:
دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف:4562410 الفاكس:4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧
هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ – ٤٩٦٨٩٩٤ فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣
E-mail eshbelia@hotmail.com



مفتاح الموضوعات





المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيِّدِنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فهذه مقالات مختصرة عن بعض «أعمال القلوب»[1] التي تناثر دُرُّها، وفاح عبيرُها في كتاب ربِّنا ﷻ وسُنَّةِ نبيِّنا محمّد ﷺ.

نظمْتها وأنا أتقلّب في أفياء الوحيَين، مُتضلِّعًا من مائهما الطَّهور، مُستروحًا إلى نسائمهما العذبة التي تَبُلُّ الصَّدا، وتُنعش الفؤاد، وتحيي القلب، وتَستثير الهِمّة المُباركة، وتحدو السّائرَ إلى غايته العليا في القرب من ربِّه ﷻ، والأُنس بجنابه، والحياة في ظلِّ شريعته.

ألتمس من الحقِّ ﷻ أنْ أوفَّق فيها لتنبيهٍ يُحيي الفؤاد، وموعظة

---

(١) أصل هذه المقالات حلقات ألقيت في إذاعة القرآن الكريم بالرياض على مدى عامين، مع زيادة مباحث وبعض الخدمات التي هي من لوازم النشر.

تَستدرُّ الدمع، وتذكير يُزيل حُجُب الغفلة ويبعث اليقظة في النفس، واستبصار يُولِّد فرقانًا بين المتشابهات - أملًا في الدخول تحت قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال: ٢٩).

حتّى تدرك النّفسُ حقائقَ الأشياء كما هي؛ لتعرف الضارَّ من النّافع والطيّب من الخبيث، بعد أنْ أخطأت التمييز، وضلّت المعرفة؛ بسبب ما رَانَ عليها من ظلماتِ الشَّهوةِ وبَهْرَج الشُّبهة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

وإنّني لأنشد أنْ تنبلج هذه المقالات عن حديث فيه تفصيل عن بعض تلك الأعمال: يُبيِّنُ ماهيَّتَها، ويُوضِّحُ ثمراتِها، ويكشفُ عن مُعوِّقاتها؛ فينتقلُ الحديث من كلام مُجمَل لا تُدرَكُ كلُّ حدوده، إلى تفصيل يضَعُ اليد على كثير من جزئيّاته، فيعود حديثًا ناجعًا يُصيب المَفْصِل، ويَضع الهِناء مواضع النُّقْب.

وقد توخّيت من خلال هذه المقالات أنْ نحيا جميعًا مع نماذج حيّة من سِيَر عباد الله الصالحين، الذين هَدى اللهُ قلوبهم، وأنار بصائرهم، ووفّقهم للخير. وفي أوّل هذه القائمة وأشرفها وأعلاها: رَكْبُ الرُّسل المطهَّرين الذين اصطفاهم الله من خلْقه، وخَصّهم برسالته وأنوار وحيه التي أشرقت الأرض وغمرت القلوب وألانت الجلود. ثمّ مِن بعدهم: أتباعهم المكْرَمون، الذين صحبوهم واقتفوا آثارهم ونَهلُوا من معينهم؛ عِلمًا وعملًا ونورًا وهداية وتربية. ومِن بعدهم: أئمةَ الهُدَى، وأنوار الدُّجى؛ من العلماء والعُبّاد والزُّهّاد، الذين وُفِّقوا لهذا الدَّرب المبارك، ورُزقوا السير على هذا السبيل المستقيم، فساروُا في أوّله مكابَدة، وفي

وسطه وآخره تلذُّذًا وتنعُّما؛ فلا حياة ولا أُنس ولا نعيم ولا لذّة للواحد منهم إلّا وهو متسربل بنور الإيمان، متدثّر بشعار الإسلام، مستسلم لذي الجلال والإكرام.

هذه وغيرُها غاياتٌ ومقاصد أرجو التوفيق لتحقيق بعضها في هذه المقالات، التي أسأل الله العليّ القدير أنْ تكون من الكلم الطيّب والعمل الصّالح والعلم الذي يُنتفَع به، وأنْ تكون سببًا للاستقامة على الجادّة، وسُلَّمًا إلى مرضاة الله تعالى، وأنْ يعمّ بها النّفع والخير على جميع المسلمين.

وهي عمل المقلّ، وسعي الضّعيف، والتوفيق بيد الله ﷻ، فما كان في هذا العمل من خير، فإنه محض فضل من الله ﷻ، وما كان من تقصير ونقص، فهذه سُنَّة الله في الخَلق؛ ولعلّ في إرادة الخير ما يَجبر نقص العمل.

وإنّه ليسعدني تلقّي توجيهات إخواني القارئين وتنبيهاتهم؛ مِمَّا يُثمر - إنْ شاء الله - وُصولًا أو قُربًا من هذه الغايات النبيلة، والمقاصد الجليلة.





١/ الفواتح

١/ ١ المنطلق من القلب

١/ ٢ القلب في نصوص الشّرع

١/ ٣ منزلة عمل القلب من الإيمان

١/ ٤ نور يحرق الشّهوات والشّبهات

١/١ المنطلق من القلب

من البدهيات أنَّ عمل الإنسان لا يتحقّق في الواقع حتّى يكون مسبوقًا بإرادة لذلك العمل. ومبعثُ تلك الإرادات:

القلوبُ التي تُحصِّلُ العِلم أوّلًا.

ثمّ تَعزم على تحقيق الفعل ثانيًا.

ثمّ تنبعثُ الجوارحُ ثالثًا لتحقيق ذلك المراد.

فهي مراتب ثلاث: عِلم بالفعل، ثمّ إرادة له، ثمّ تنفيذ لذلك الفعل.

فاثنتان من هذه المراتب هي من أعمال القلوب: العلم، والإرادة.

وهذا يقال في أعمال تجري بالجوارح الظاهرة؛ من صلاة وصيام وجهاد وحجّ وصدقة، فكيف بتلك الأعمال المُستكِنّة في القلوب؛ مِن خشية وإنابة وخوف من الله ومحبّة له وشوق إليه؟! حيث يجتمع للقلب فيها هذه المراتب الثلاث جميعًا، ثمّ تفيض آثارها على الجوارح؛ حركات وتصرُّفات وتحوُّلات، تُنبئ عن ذلك الخشوع، وتكشفُ عن تلك المحبَّة، وتُدلِّلُ على صدق ذلك الإخبات والخضوع.

وعلى هذا؛ فإنّ القلوب مبعثُ الصّلاح والفساد في الأعمال، كما قال النبيُّ ﷺ: «**أَلَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(١)].

ولذا حقّ أنْ يُقال: القلب ملك الأعضاء، وهي جنوده الطائعة، وحركتها كلها لحركته تابعة؛ فإنْ كان المِلك صالحًا كانت الجنود

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمان بن بَشير رضي الله عنه.

صالحة، وفي موارد الصّلاح والفلاح - حضًا وترغيبًا وتزيينًا - عاملة، وفي ثواب الله ﷻ طامحة، وإنْ كان الملك فاسدًا عاث جنودُه فسادًا بكلِّ صور الفساد الذاتيّ، وهكذا: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء: ٨٤) يعني: على ناحيته وطريقته ونيَّته.(١)

إنّ العباد مُنقلبون إلى الله ﷻ، وإنّما ينجو عنده أصحاب القلوب السّليمة التي عُمرت بالإيمان ففاض ذلك منها على الجوارح خيرًا وبرًّا: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨، ٨٩).

وإنّه لحريٌّ بمن يؤمن بهذه العاقبة، ويتحقق من حصول ذلك المصير، أنْ يلهج بدعاء ربّه ﷻ أنْ يرزقه ذلك القلب السّليم، مُقتفيًا أثر المصطفى ﷺ حين كان يلهج في دعائه بقول: «**اللَّهُمَّ إنّي أسألكَ الثباتَ في الأمر، والعزيمةَ على الرُّشْدِ، وأسألكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وحُسْنَ عِبادَتِكَ، وأَسْأَلُكَ قَلبًا سَليمًا، ولِسَانًا صَادِقًا**».(٢)

وإنّما قَرن النبيُّ ﷺ في هذا الدُّعاء بين أعمال الجوارح وسلامة القلب؛ لِما في واقع الأمر من الارتباط الشّديد بينهما، وقد كشف النبيُّ ﷺ عن ذلك الارتباط في قوله: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُه**».(٣) «والمراد باستقامة إيمانه: استقامةُ أعمال جوارحه؛ فإنّ أعمال الجوارح لا تستقيم

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة، تفسير الطبري (١٥/ ٦٦).

(٢) رواه أحمد (١٧١١٤)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٤)، وابن حبان (٩٣٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٧٩). وهو حديث حسنٌ بطرقه.

(٣) رواه أحمد (١٣٠٤٨) بسندٍ فيه لِينٌ؛ ولكن يشهد له حديث النُّعْمَان بن بَشير ﵁ السابق.

إلّا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب: أنْ يكون مُمتلئًا من محبّة الله، ومحبّة طاعته، وكراهة معصيته»[١].

وقد كان الصّالحون يَلفتون أصحاب التقصير إلى مكمن الخطر، ومبعث الدّاء الذي أصيبوا به؛ وأنّه فساد القلب، قال الإمام الحسنُ البصريُّ لرجل: «دَاوِ قلبَك؛ فإنّ حاجةَ اللهِ إلى العبادِ صلاحُ قلوبهم»[٢] ومراده - رحمه الله -: أنّ مراد الله من العباد، ومطلوبه منهم: أنْ تَصلح تلك القلوب؛ فتكون مُستقَرًّا لمعرفته ومحبّته وتعظيمه، وخشيته، ورجائه والتوكُّل عليه؛ فإذا امتلأتْ من ذلك؛ فقد تحقَّقت بحقيقة التّوحيد، وصدَقت في قولها كلمة الإخلاص: «لا إلهَ إلّا اللهُ»، فلا صلاح للقلوب حتى تفردَ محبّةَ المحبوب[٣].

والعبد إذا سَلِمَ قلبه: رقّ طبعُه، واستقام أمرُه، وأسرعت إلى الطاعة جوارحُه؛ فانساقت لإرادة الله حُبًّا وخضوعًا، وذُلًّا وانصياعًا؛ حتّى إذا أعطَت: أعطَت للهِ، وإذا مَنعَت: مَنعَت للهِ، وإذا أَحبَّت: أَحبَّت للهِ، وإذا أَبْغَضَت: أَبْغَضَت للهِ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)، وقال النبيُّ ﷺ: «مَن أعطَى للهِ ومَنعَ للهِ، وأَحبَّ للهِ وأَبْغضَ للهِ؛ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيْمانَ»[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢١١).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٢٤٠).
(٣) انظر غذاء الألباب (١/ ٦٢).
(٤) رواه أبو داود (٤٦٨١) بإسنادٍ حسَن من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

قال حمّادُ بن سلمة: «مَا أَتَيْنَا سُلَيْمَانَ التَّيْمِيَّ فِي سَاعَةٍ يُطَاعُ اللهُ ﷻ فِيهَا إِلَّا وَجَدْنَاهُ مُطِيعًا: إِنْ كَانَ فِي سَاعَةِ صَلَاةٍ وَجَدْنَاهُ مُصَلِّيًا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ سَاعَةُ صَلَاةٍ؛ وَجَدْنَاهُ إِمَّا مُتَوَضِّئًا، أَوْ عَائِدًا مَرِيضًا، أَوْ مُشَيِّعًا لِجَنَازَةٍ، أَوْ قَاعِدًا فِي الْمَسْجِدِ»، قَالَ: «**فَكُنَّا نَرَى أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يَعْصِي اللهَ ﷻ**».(١)

وَقَالَ سُفْيَانُ: «**كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سُوقَةَ لَا يُحْسِنُ يَعْصِي اللهَ ﷻ**».(٢)

هكذا حال الجوارح التي أَلِفَت الطاعة، واستقامت للعبادة؛ صارت الطاعة لها طَبْعًا، والعبادة لها إِلْفًا، والذِّكر لها شِعارًا وحِلْسًا.

وهناك مرتبة عليّة، ومنزلة سنيّة، تلك التي تتلبّس فيها الجوارحَ الطيّبة حالةٌ من الترقُّب والحذر، لكل نازلة عليها، وحادثة بين يديها؛ فلا تتقدّم أو تتأخّر، حتى تستفتيَ الملِك، وتراجعَ الإرادة: آآتي أم أذَر، أأُقْبِل أم أُدْبِر؟! أثَمَّ طاعة فأقبل عليها، أم معصية فأدبر عنها، قال الحسن: «**ما نَظَرْتُ بعينِي ولا نَطَقْتُ بلساني ولا بَطَشْتُ بيدِي ولا نَهَضْتُ على قدمِي، حتَّى أَنظُرَ علَى طَاعَة أَوْ على مَعْصِيَة؟ فإنْ كانتْ طاعةً تقدَّمْتُ، وإنْ كانتْ معصيةً تأخَّرْتُ**».(٣)

فاللَّهُمَّ أصلحْ منّا القلوبَ، ووَفِّقْ منّا الجوارحَ، وارزقْنا الصدقَ والإخلاصَ.



---

(١) حلية الأولياء (٣/ ٢٨).

(٢) المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١٩٧).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الورع (١٩٥).

٢/١ القلب في نصوص الشَّرع

إنّ النّاظر في آيات الكتاب العزيز، وفي سُنَّة المصطفى ﷺ، يُدرك العناية الكبرى بهذا القلب؛ وَصْفًا وعلاجًا ومنهجًا في التَّعامل معه، ويكفي دَلالةً على هذه العناية أنّ مفردة القلب وردت في القرآن الكريم في اثنتين وثلاثين ومئة (١٣٢) آية[١]، ووردت في السُّنّة في أكثر من مئتَي (٢٠٠) موضع.

كما أنّ القلب يُعَبَّرُ عنه في النّصوص الشّرعية بألفاظ أُخَر؛ كاللُّبِّ والفؤاد والصَّدْر، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ١٧ - ١٨).

ومن إطلاق الفؤاد على القلب، قوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الأنعام: ١١٠).

ومن إطلاق الصَّدر على القلب، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (الحجر: ٩٧)، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

---

(١) وذلك بحسب إحصاء المواضع في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص٥٤٩- ٥٥١).

﴿يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ (هود: ١٢).

فمفردة القلب تُطلق على معنيين:

الأول: ذلك اللَّحم الصَّنَوْبَرِيّ الشَّكل، المُودَعُ في الجانب الأيسر من الصَّدر. وليس هذا هو المراد عند الإطلاق في النّصوص الشّرعية.

والثاني: تلك اللَّطيفة الرّبّانيّة الرُّوحانيّة التي هي حقيقة الإنسان، وبها يُدْرِكُ ويَعرف ويُخاطَب، وعليها يُحاسَب فيُثاب أو يُعاقَب.

وبين هذه المضغة -وهي القطعة الصغيرة من اللحم- وتلك اللطيفة الرُّوحانيّة سرٌّ ربّانيّ، وعَلاقة خاصّة، تحيَّرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجهها، ومعرفة كُنهها، وإنْ كانوا يُدركون مِن آثارها.[1]

والقلب هو الأصل؛ فإذا كان فيه معرفة وإرادة، سَرَى ذلك إلى البدن بالضرورة؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: «**أَلَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».[2] والقلب له قوّتان: العلم والقصد، كما أنّ للبدن الحسّ والحركة الإرادية، فكما أنّه متى خرجت قُوَى الحسّ والحركة عن الحال الفطري الطبيعي فسدت، فكذلك القلب إذا خرج

---

(١) انظر: إحياء علوم الدِّين (٣/ ٣) وراجع: القلب ووظائفه في الكتاب والسُّنَّة (ص٤٦).

(٢) تقدَّم تخريجه. وانظر: الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٤٩).

عن الحال الفطرية التي يولَد عليها كل مولود من إفراد الله بالعبادة كان فاسدًا.[1]

وهكذا يظهر أنَّ القلب محلّ أصول الأعمال ودعائم الإيمان، ومحلّ التقوى التي منه تنبعث ثمّ تفيض على الجوارح استقامةً وتعظيمًا، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (الحج: ٣٢).

وقد عَمَرَ اللهُ ﷻ قلوب أصحاب نبيِّه ﷺ بالتقوى؛ فسكنت جوارحهم في حضرته، وتأدّبت ألسنتهم حال مخاطبته: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (الحجرات: ٣).

وإذ أراد اللهُ بعبده خيرًا شرح قلبه للإيمان؛ فاستقبل أنوار الهداية وانفعل بمُوجبات الرّحمة، ومن أراد أنْ يُضِلَّه ضَيّق منافذ النُّور دون قلبه، وثبّطه عن الانفعال بتلك الموجبات: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

والقلب إذا انشرح لم يجد ضالّته وأمنه، وسَكينته وطمأنينته، إلّا بِذِكر الله ﷻ، واللَّهَج به، والخلود إليه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨).

وقد يقسو هذا القلب -والعياذ بالله- فيكون أصلد من الحجارة

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ١٦٤).

القاسية! وتلك -وأيم الله- عقوبة عاجلة من عقوبات التمرُّد على الله، والمجانَبة لشريعته، اجترأ عليها أقوام، فعاقبهم الله بقسوة قلوبهم، كما في قصّة نفر من بني إسرائيل: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٧٤).

وما كان الذي أصاب هؤلاء مِن قسوةٍ يجدونها في قلوبهم إلّا عقوبة من الله ﷻ، بسبب ركوبهم المعاصي مع المعانَدَة والمكابَرة، ونقضهم المواثيق، وتحريفهم الكَلِم عن مواضعه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (المائدة:١٣). وعَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ (البقرة: ٥٨)، فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حِطَّةٌ، حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ».[١]

ومن هنا جاء التحذير لهذه الأُمّة؛ أنْ تسلك تلك المسالك، أو تتقحّم تلك المهالك: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (الحديد: ١٦).

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٩ و٤٦٤١) ومسلم (٣٠١٥).

وإذا كان هذا حال هؤلاء القوم الذين قست قلوبهم، وجفت طباعهم؛ بسبب ما اقترفوه من الجُرم تلو الجرم، والنّقض تلو النّقض، بلا رادع من إيمان، ولا وازع من حياء؛ فإنَّ الحال يختلف كلّ الاختلاف مع أولئك الّذين سكنت الخشية في قلوبهم، وسرت القُشَعْريرة في جلودهم، حتى صُهِرَت القلوب والجلود صَهْرًا، ولانت لِينًا عظيمًا؛ لانت لله فخضعت، ولانت للمؤمنين فذلّت، ولانت في الصُّفوف فاحتملت ووسّعت، ولانت للصغير فأشفقت، ولانت للخلق فرحمت: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾(الزمر:٢٣).

ومن أجْل شرف هذه الصفة، وصف اللهُ نبيَّه ﷺ بها في قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

قلب العبد مجال امتحان، ومورد اختبار، يميّز اللهُ به بين العباد: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ (آل عمران: ١٥٤). وهو مُعرَّضٌ للصِّحَّة والسَّقَم؛ فيصحُّ حينًا، ويمرضُ حينًا.. ومُعرَّضٌ للجدِّ والكسل؛ فينشطُ حينًا، ويفترُ حينًا.. ولذا كان من كمال الدِّيانة تعاهدُه كلَّما كسل وفتَر، أو مرِض ووهَن.

وقد وَصَفَ اللهُ قلوبَ المنافقين بالمرض، فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ (البقرة: ١٠)، وقال أيضًا: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ (المائدة: ٥٢).

ومن أمراض القلب: النِّفاق والرِّياء، وجحود الحقّ، وغَمْط الخلق، والكِبر والغِلّ، واللَّهو والكسل، والشَّهْوة والسَّهْوة[1].

وللقلب أحوالٌ عديدة: فهو يألف ويُنكِر، ويطمئنّ ويضْطرب، ويستيقن ويرتاب، ويَزيغ ويستقيم، ويَضِلُّ ويهتدي، ويرضَى ويأسَى، ويَذَّكَّر وينسَى، ويَدبَّر ويَعمَى، ويرحم ويقسو، ويخشع ويزهو، ويَلين ويَغْلُظُ، ويأنس ويستوحش، ويتَّعِظ ويغفل، ويعلو ويَسْفُل، ويُقْبِل ويُدْبِر.

وللقلوبِ رؤيةٌ للدّلائل وانتفاعٌ بها؛ كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦).

لكن هذه الرؤية تنمحي إذا رانت على القلوب ظلمات الشِّرك والبدع والمعاصي: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ (الأنعام: ٢٥)، ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ (فصلت: ٥).

وقد تفسُد القلوب بالكلية؛ فيُطبع عليها طَبْعًا، وتُزَيَّنُ لها المعصيةُ تزيينًا، فتستغرق في اللَّهو، وتنشغل بالباطل.

وعلى العكس من ذلك: قلوب أهل الإيمان التي أنابت إلى ربّها وأخبتت؛ فلا تزال تَصفُو وتَزكُو، ومِن كل غائلة تسلم وتَنبُو، حتى تنقلب إلى الله

(١) (السَّهوة): الغفلة. تهذيب اللغة (٦/ ١٩٥).

مُحلّاة بالعافية، مُزكّاة بالسّلامة؛ لتدخل دار الكرامة التي لا يدخلها ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٩).

والقلب له أحوالٌ في المعرفة: فهو يَعلم ويعقل، ويتذكَّر ويَتّعظ، ويَفقه المعاني والآيات؛ ومِن هنا كان له كسْب، وعليه مسؤوليّة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢٥)؛ ولذا أُضيف الإثم إلى القلب في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

ويوم القيامة يُسأل العبد عن قلبه، كما يُسأل عن بقيّة جوارحه؛ ليُقيم الله عليه الحجّة، ويقطع عليه المعذرة: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦).

وقد أعان اللهُ ﷻ عبادَه على سلامة قلوبهم؛ بما رَكَزهُ في فِطَرهم من الإقرار به والشّهادة بوحدانيّته، وبما جعله في قلوبهم ممّا يدلّهم عليه ويبصّرهم به، وما جعله في خَلقه من آثار تقودهم إليه، قال عزَّ من قائل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣).

ولو تُرِك العباد على أصل الفطرة؛ لبقيت مادّة السلامة سارية في

قلوبهم، ولكن سُنّة الله ماضية، وحكمته في الخَلق قاضية: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ؛ فأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ ...».[1]

وفي الحديث القُدْسيِّ: «إنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنَفاءَ كلَّهُم، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشياطينُ فاجتالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عليهِمْ ما أَحْلَلْتُ لهمْ، وأَمَرَتْهُمْ أنْ يُشرِكُوا بِي ما لمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا».[2]

والمقصودُ: التنبيه على عظيم العناية بالقلب في القرآن الكريم والسُّنّة المُطهَّرة، وسيأتي في بقيّة المباحث القادمة حديثٌ فيه شيء من التفصيل عن بعض هذه الأمور؛ من الأحوال والتصرُّفات، والعِلَل والأسباب؛ مما نرجو أنْ يكون فيه خيرٌ ونفعٌ لنا ولإخواننا المسلمين.



(١) رواه البخاري (١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حِمَار المُجَاشِعِيِّ ﵁.

وقوله: (فاجتالَتْهُمْ): أي: استخفَّتهم، فجالوا معهم، ويقال للقوم إذا تركوا القصد والهدى: اجتالتهم الشياطين، أي: جالوا معهم في الضّلالة. جامع الأصول (١١/ ٧٤٨).

١/٣ منزلة عمل القلب من الإيمان

منزلة القلب من الإيمان عين منزلته من الأبدان، فكما لا يقوم البدن إلّا بحياة القلب وعمله، كذلك لا يقوم الإيمان إلّا باعتقاد القلب وعمله. واعتقاد القلب هو أصل أصول الإيمان التي تنطلق منه بقيّة الأصول والأركان، يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة -رحمه الله تعالى-: (اعتقاد القلب: أصلٌ لقول اللسان، وعمل القلب: أصل لعمل الجوارح. والقلب هو ملك البدن، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: **«القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده»**، وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: **«ألّا وإنّ في الجسد مُضغة إذا صلَحت صلَح لها سائر الجسد، وإذا فسَدت فسَد لها سائر الجسد، ألَا وهِي القلب»**).[١] ثم إنّ منزلة العمل -عمل القلب وعمل الجوارح- من الإيمان، بمنزلة الشفتين من اللسان، فكما لا يصحّ الكلام إلّا بهما، وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام، فكذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان.[٢]

وقد تكاثرت وتواترت أقوال السّلف -رحمهم الله - في أنّ الإيمان مُركَّب من قول وعمل.[٣]

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٣٤).

(٢) انظر: الإيمان لابن تيمية (ص٢٦٢)، مجموع الفتاوى (٧/ ٣٣٤).

(٣) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالَكائي (٤/ ٨٨٩ - وما بعدها)،

ثمّ إنّ كُلًّا مِن القول والعمل يتكوّن من أمرين:

- أمّا القول؛ فيتكوّن من قول القلب وقول اللسان.

والمراد بقول القلب: إقرارُه وتصديقُه؛ إقرارُه: بالله ربِّ العالمين، وتصديقُه: باستحقاقه الربوبيّة والأُلوهيّة، وشهادتُه ببطلان نسبتهما لأحد سواه، وإقرارُه ببقيّة الأركان السِّتَّة للإيمان: الإيمان بالملائكة، والكتُب، والرُّسُل، واليوم الآخِر، والقدَر.

وأمّا قولُ اللسان؛ فهو: «شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ الله».

- والعملُ؛ ينقسم - أيضًا - إلى قسمين: عمل القلب، وعمل الجوارح.

فعمل القلب: محبّته وإخلاصه، وانقيادُه وإذعانُه لأوامر الشّرع.

وعملُ الجوارح: أداءُ الطّاعات؛ مِن صومٍ، وصلاةٍ، وحجٍّ، وجهادٍ، وأمرٍ بالمعروف، ونهيٍ عن المنكر...، وتركُ المَعاصي مِن الكذب، وغِيبة النّاس، وظُلمهم، والتَّسُلُّطِ عليهم بغير حقٍّ، وأكل الحرام، وشربه، ونظر الحرام...

وعلى هذا؛ فالإيمان في الشَّرع هو ذلك المُركَّب من هذه العناصر الأربعة: قول القلب، وقول اللِّسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح.

ولا مانع بعدئذ من أن تكون هذه العناصر متفاوتةً فيما بينها، بل لا مانع

الإيمان الكبير لشيخ الإسلام (ص١٦٢ - وما بعدها)، الإيمان الأوسط (ص٥٨ - وما بعدها)، مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠٤ - وما بعدها و٣٠٨ و ٣٣٢ و٥١١).

أن تكون الخصلةُ الواحدةُ ذات مراتبَ تصلُ بعضُها إلى درجات الكمال، وبعضُها الآخَر إلى أدنى من ذلك.

وهذه الهيئةُ الاجتماعيّةُ للإيمان مُكوَّنةٌ من تلك الشُّعَب التي أشار إليها المصطفى ﷺ في قوله: «الإِيْمَانُ بِضْعٌ وسبعُونَ -أو بِضْعٌ وستُّونَ- شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيْقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيْمَانِ».[1]

ومِمّا يُجلِّي هذا الأمر غاية التّجلية: أنّنا نجدُ في الشرع تسميةَ أعمالِ الجوارح إيمانًا، وتسميةَ الإيمانِ عملًا؛ ممّا يدلُّ على هذا التمازُج الذي أشرنا إليه.

ولله دَرُّ الإمام البخاريِّ -حين عَقد في كتاب الإيمان من «صحيحه» أبوابًا لأعمال ورد تسميتُها في الوحيين إيمانًا، فقال-:

«باب: دعاؤُكم إيمانُكم؛ لقوله ﷻ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ (الفرقان: ٧٧).

«باب: مِن الإيمان أن يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه».

«بابٌ: حُبُّ الرسول ﷺ مِن الإيمان».

«بابٌ: علامةُ الإيمان حُبُّ الأنصار».

«بابٌ: الحياءُ مِن الإيمان».

«بابٌ: الجهادُ مِن الإيمان».

---

(١) رواه مسلم (٥٨)، ورواه البخاري (٩) مُختصَرًا من حديث أبي هريرة.

«بابٌ: تطوُّعُ قيامِ رمضانَ مِن الإيمان».

«بابٌ: صومُ رمضانَ احتسابًا من الإيمان».

«بابٌ: الصّلاةُ مِن الإيمانِ».

«بابٌ: اتِّباعُ الجنائز من الإيمان».

«بابٌ: أداءُ الخُمْسِ من الإيمان».

فانظر كيف سُمِّيَت الصّلاةُ والزّكاةُ والجهادُ والصّومُ وغيرُها «إيمانًا»، وهي أعمالٌ؛ لأنّها جزءٌ من ذلك المُركَّب الذي أشرنا إليه آنفًا.

ومن الوجه الآخر: ورد في الشّرع تسميةُ الإيمانِ عملًا، وعقد البخاريُّ - أيضًا - في كتاب الإيمان من «صحيحه» بابًا، قال فيه: (مَنْ قَالَ: إنَّ الإِيمَانَ هُوَ العَمَلُ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الزخرف: ٧٢) وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر: ٩٢، ٩٣) عَنْ قَوْلِ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[(١)]). ثمّ روى البخاريُّ بسنده عن أبي هريرة ﵁: أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ: أيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: «إيمانٌ باللهِ ورَسُولِهِ». قِيلَ: ثُمَّ ماذا؟ قال: «الجِهَادُ في سبيلِ الله».[(٢)]

فانظُر كيف رتَّب اللهُ وِراثةَ الجنّة على العمل!

---

(١) تفسير الثوري (ص١٦٢) من قول مجاهد.

(٢) رواه البخاريُّ (٢٦)، ومسلم (١٣٥). وانظر: فتح الباري لابن رجب (١/ ١٢١- ١٢٢)، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (ص٣٥٤ - وما بعدها).

أفتُراهُ يكونُ ذلك بعمل الجوارحِ فقط دون ما يقومُ بالقلب من التصديق والإذعان والانقياد؟!

والله ﷻ سيسألُ النّاس عمّا يعملون.. أفتُراهُ يسألُهم عن أعمال جوارحهم دون سؤالهم عمّا تنشأُ عنه تلك الأعمال من إذعان القلب وإرادته؟

ولمّا سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن أفضل الأعمال، جعل الإيمان في مُقدِّمة الأعمال الفاضلة.

ونذكر بعض الأمثلة التي يظهرُ منها هذا التّلازمُ بين القلب والجوارح:

فهذه الصّلاةُ التي وُصِفت بأنّها عمودُ الإسلام، ورَتّب اللهُ عليها الأُخُوَّةَ في الدِّين في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ (التوبة: ١١).

هذه الصّلاةُ، اُنظر كيف تتجلَّى فيها مُركَّبات الإيمان الأربعة التي سبق تقريرُها؛ فقولُ القلب هنا: إقرارُه وتصديقُه بوجوبِها، وعملُ القلب: انقيادُه وإذعانُه -وذلك بالإرادة الجازمة على فعلها والنية حالَ أدائها-، وعملُ اللّسانِ: القراءةُ والأذكارُ الواردةُ فيها، وعملُ الجوارحِ: القيامُ والرُّكوعُ والسُّجود.

وكما يتجلّى هذا الامتزاجُ في الأفعال، فكذلك في التُّروك أيضًا، ومن أمثلة ذلك: «تركُ الحسد»؛ فإنّه ترجمة لهذا الامتزاج؛ فالقلب يُقرّ ويُصدِّق بحُرمة الحسد، وهو في سبيل ذلك يعمل على أسباب

الوقاية منه، ودَفعه عنه ومحاربته، ثم هذا العمل القلبيّ يتجلّى أثره على الجوارح التي تبدو خالية وبعيدة عن آثار الحسد ودلائله، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «... **لا يجتمعانِ في قَلْبِ عَبْدٍ: الإيمانُ والحَسَدُ**».[1]

وعلى العكس من ذلك؛ فإنّ الحسد إذا تمكّن من القلب، لم تستطع الجوارح أنْ تُخفي آثاره، أو تكتم دلائله؛ ولِذَا لَمّا تمكّن الحسدُ مِن قلوب إخوة يوسُفَ عليه السلام حملهم ذلك على رميه في الجُبِّ ليتخلّصوا منه، حسدًا لهُ على ما نالهُ من منزلة عند أبيه: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ (يوسف: ٨ - ١٠).

انظُر كيف خادعوا أنفسهم، ووصفوا فِعلهم ذلك بأنّ مآلَه إلى الصّلاح في قولهم: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ (يوسف: ٩). **أي: صالحين في أمور دِينِكُم وطاعةِ أبيكم، أو صالحين في أمور دنياكم لذهاب ما كان يشغلُكم عن ذلك وهو الحسدُ ليوسُفَ. ولكنّ هذا الخداع للنّفس تجلّى واضحًا حين**

---

(١) رواه النسائيُّ في المجتبى (٣١٠٩) والسنن الكبير (٤٣٠٢ و٤٣٦٠)، وابن حبّان في صحيحه (٤٦٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي الحديث: تقبيح للحسد، وبيان أنه لا ينبغي للمؤمن أنْ يحسد؛ فإنّه ليس من شأنه ذلك، فمعنى «لا يجتمعان» ها هنا: أنه ليس من شأن المؤمن أنْ يجمعهما. ويحتمل: أنّ المراد بالإيمان كماله. فليتأمل. والله تعالى أعلم. انظر: حاشية السِّندي على النسائي (٦/ ١٣).

انكشفتِ الأمورُ عنْ نَصر الله للمظلوم حين قالوا في آخر القصّة: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ (يوسف: ٩١).

أيُّ خطأٍ ذلك الذي ارتكبوه؟! إنّه الحسدُ الذي حَمل على تلك الفعلة الشّنيعة؛ فاجتمع في عملهم ذلك: عملُ القلب مع عمل الجوارح، ومن هنا لاذُوا بطلب الاستغفار من أبيهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ (يوسف: ٩٧).

وهكذا تكشف فعلة إخوة يوسف عليه السلام عن معنًى لطيف، وهو أنَّ للحاسد أمارات وعلامات يَعرفه بها ذوُو البصائر والتمييز؛ وهي في الجملة كلّ فِعْلٍ يَظهر منه تمنّي زوال النّعمة من المحسود، سواء كان ذلك من خلال فلتات اللسان: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ (محمد: ٣٠)، أو بأيّ طريقٍ كان: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ (يوسف: ٨ - ١٠).

ومما يحسن التنبيه إليه، أنه لا يصح إلصاق معنى الحسد بمن كان بريئًا منه، وبعيدًا عنه.

وانظُر إلى هذه القصّة التي تُظهِرُ هذا المعنى وتُجَلّيه:

لقد وَعد اللهُ عز وجل أهلَ الحديبيةِ مغانمَ خيبر خالصةً لهم؛ وذلك لِما عَلِمَه مِن صِدق إيمانهم، وثبات قلوبهم، وخلوص نيّاتهم؛ فأراد قومٌ أنْ يشركوهم فيما خصّهم الله به، وينازعوهم فيما أخلصه الله لهم؛ ولم يَعملوا عملهم، أو يُبلوا بلاءهم؛ وإنّما قَعدوا وتخلّفوا حيث نَفَرَ أولئك

الذين رضي الله عنهم؛ لنصرة دِينه، وإعلاء كلمته، ومؤازرة نبيّه ﷺ؛ فقال أولئك المتخلّفون الطّامعون في الغنيمة العاجلة؛ بِلَا بَلاءٍ قدّموه، أو جِهادٍ بذلوه، وإنّما هو الطّمع المحض، والحسد الخالص: ﴿إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾.. ثمّ لمّا أُلْقِيَ عليهم قول المؤمنين: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ تبخّرت أُمنيتهم، وحبطت أنفسهم، وغلت قلوبهم حسدًا، فنعتوا المؤمنين الخُلَّص بالذي هم عليه، ورموهم بالذي هم متلبّسون به، فقالوا -وبالإفك ما قالوا-: ﴿بَلۡ تَحۡسُدُونَنَا﴾ هكذا بِخِفَّة مَنطق، وقلّة فِقْه .. فهم يصدرون عن نَظرةٍ دونيّة للمعاني والأشياء التي لا يرون مِن ورائها إلّا غنيمة أرضيّة يسعون إليها.. قالوا هذه الكلمة في حق سادة صدق عليهم وصف الواصف إنّهم كانوا يكثرون عند الفزع، ويقلّون عند الطمع.. فقال الله ﷻ منافحًا عنهم، وكاشفًا عن حقيقة المتقوّل عليهم، في عبارة بليغة أصابت كبد الحقيقة: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ .. هكذا نبّأنا الله عن حالهم، ووجْه ما صَدَر عنهم مِن التخرُّص والتمويه، وما يُنبّئك مثل خبير .. وفي المقابل، نقرأ قولَ الله تعالى في أولئك المؤمنين الذي رُمُوا إفكًا وزورًا بغير ذنب اقترفوه، ولا جُرْم فعلوه ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ (انظر الآيات مِن سورة الفتح: ١٥ - ١٩).

وقد يَضعُف الإيمانُ في القلب ضَعفًا لا يبقى معه قدرةٌ على تحريك الجوارح في أعمال الخير، كما يَحصُل لمنْ يُسرفُ على نفسه بكثرة المعاصي والسّيّئات، فَيضعُف عملُ القلب عنده، ومن ثَمَّ يَضعُف عملُ الجوارح تبعًا لذلك، مع بقاء أصل الإيمان، ولكنّهُ إيمانٌ ضعيفٌ، كذاك المريضُ الّذي فَقَدَ كُلَّ قدرةٍ على الحركة والإحساس، إلّا أنَّ في قلبه نَبْضًا لا يستطيعُ معه الأطبّاءُ الحُكمَ بوفاته، مع أنّه ميئوسٌ من شفائه؛ فهذا؛ ظاهرًا: في حُكم الميّت، وباطنًا: لديه هذا القدْرُ الضّئيلُ من الحياة التي لا حركةَ معها، ويُصوِّرُ مثلَ هذا الموتِ أصدقَ تصويرٍ قولُه ﷺ: «مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والَّذي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ».[1]

وعلى كلٍّ، فلكلِّ عبدٍ حظُّه مِن حياة قلبه، بمقدار عمله وسعيه.

وكلّما ازداد العبد من اكتساب الأعمال الصّالحة، قويت حياة قلبه، وكلّما أمسك عنها وكفّ عن اكتسابها، ضعفت حياة قلبه.

والمقصودُ من كلِّ هذا: أنَّ لأعمال القلوب مكانةَ عظيمة؛ لأنّها تُمثِّلُ شطر الإيمان، بل أعظمَ شَطْرَيْه. والله أعلم.



(١) رواه البخاريُّ (٦٤٠٧) من حديث أبي موسى ﷺ.

٤/١ نور يحرق الشّهوات ويبدّد الشبهات

سبق بيانُ أنّ الإيمانَ يتركّبُ من مُركَّبات أربعة: قول القلب، وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح. وأنّ **قول القلب**: المرادُ به الإقرارُ والتصديقُ، وعملَ القلب: المرادُ به الانقيادُ والإذعانُ لأوامر الشرع. **وأمّا قول اللسان**؛ فهو النُّطقُ بالشّهادتين، ثمّ الاشتغالُ بعد ذلك بالأذكار المشروعة، والأعمال المحبُوبةِ للشارع؛ مِن أمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكر، وتعليم، وتفقيه، ونحو ذلك. **وعملُ الجوارح**: قيامُها بما فرضَ اللهُ مِن الأعمال أو نَدب إليه مِن الأفعال.

وبهذا يظهرُ: أنّ القلب يحتلُّ مِن الإيمان شطرَه، بلْ شطرَه الأهمَّ المؤثِّرَ في الشَّطر الثّاني؛ ولأجل هذا كانت الشهادتان مِفتاحَ الدُّخول في الإسلام؛ لأنَّها إعلانٌ لِما قام بذلك القلب مِن التّصديق والإقرار والإذعان، وليستْ مُجرَّدَ خبرٍ بذلك التّصديق القلبيِّ، بلْ هي إنشاءٌ والتزامٌ لِما قام بذلك القلب مِن الانقياد والإذعان.

ومما يجلِّي ذلك ويوضِّحه: أنَّ يهوديّين جاءا إلى النبيِّ ﷺ، فسألاه عن تِسع آيات، فلمّا أجابهم، قَبَّلُوا يديهِ ورِجْلَيه، وقَالَا: **«نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ»**. فقَالَ النبيُّ ﷺ: **«فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي»؟ فقَالَا: «إِنَّا نَخَافُ إِنْ تَبِعْنَاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا اليَهُودُ»**.[1]

---

(١) رواه أحمد (١٨٠٩٢ و١٨٠٩٦)، والترمذي (٢٧٣٣ و٣١٤٤)، والنسائي (٤٠٧٨)،

فعُلِم مِنْ ذلك: أنّ مُجَرَّدَ العلمِ الواقع في النَّفس والإخبارِ عنه لا يُعَدُّ إيمانًا مُتقَبَّلًا حتّى يُتَكَلَّم بالإيمانِ على وجه الإنشاء المُتضمِّن للالتزام والانقياد.[(١)]

ويزيد الأمر إيضاحًا: أنّ أعمال القلوب هي التي يقعُ بها الفُرقانُ بين مَن قال: «**لا إله إلا الله**» صادقًا، ومَن قالَها كاذبًا، وهي التي يَتفاضلُ بها المؤمنون؛ فيفضُل هذا على ذاك بمقدار ما قام بقلبه من العمل، بلْ يَفضُلُ عملُ الشخصِ الواحد في وقتٍ ما عنه في وقت آخر؛ بحسب صفاء قلبه، وقوّة رغبته، وفُتُوَّة عزيمته.

وبأعمال القلوب بَزَّ أصحابُ النبيِّ ﷺ جميعَ مَن جاء بعدَهم مِن الذين شاركوهم في النُّطق بكلمة التّوحيد: «**شهادةِ ألّا إلهَ إلّا اللهُ وأنّ محمّدًا رسولُ اللهِ**».

وللإمام ابن القيِّم -رحمه الله- في بيان هذا الأمر كلامٌ نفيسٌ يَشفي ويَروي، نسُوقُهُ ليظهر ما نحنُ بصدده، قال -رحمه الله-:

(اعلمْ أنّ أشعّة «**لا إلهَ إلّا اللهُ**» تُبدِّدُ مِن ضباب الذُّنوب وغُيومها، بقدْر

والحاكم (١/ ٥٢)، من حديث صفوان بن عسّال ﷺ. وقال الترمذي (حديث حسن صحيح). وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح، لا نعرف له علة بوجه من الوجوه). وانظر: بيان المشكل للطحاوي، برقم: (٦٣).

(١) انظر: الإيمان الأوسط (ص١٠٤ - ١٠٥)، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١). وراجع: ظاهرة الإرجاء (ص٣٦٢).

قوّة ذلك الشُّعاع وضعفه، فلها نورٌ، وتفاوتُ أهلِها في ذلك النُّور - قوّةً وضعفًا - لا يُحصيه إلّا اللهُ تعالى؛ فمِن النّاس مَن نُور هذه الكلمة في قلبه كالشّمس، ومنهم مَن نورُها في قلبه كالكوكب الدُّرِّيِّ، ومنهم مَن نورُها في قلبه كالمِشْعل العظيم، وآخَر كالسِّراج المُضيء، وآخَرُ كالسِّراج الضّعيف؛ ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة؛ علمًا وعملًا، ومعرفةً وحالًا.

وكلّما عَظُمَ نورُ هذه الكلمة واشتدّ، أَحرقَ مِنَ الشُّبهات والشّهوات بحسب قوّته وشِدّته، حتّى إنّه رُبّما وصل إلى حال لا يُصادِفُ معها شُبهةً ولا شهوةً ولا ذنبًا إلّا أحرقَه، وهذا حالُ الصّادق في توحيده الذي لم يُشرِكْ بالله شيئًا، فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شُبهةٍ دَنَتْ مِن هذا النُّور أحرقها، فسماءُ إيمانه قد حُرِست بالنُّجوم مِن كلِّ سارقٍ لحسناتِه، فلا ينالُ منها السّارقُ إلّا على غِرَّةٍ وغفلةٍ لا بُدَّ منها للبشر، فإذا استيقظ وعَلِم ما سُرِق منه استنقذه مِن سارقه، أو حَصَّلَ أضعافَه بكسبه، فهو هكذا أبدًا مع لُصوص الجنِّ والإنس، ليس كمنْ فتَحَ لهم خِزانتَه ووَلَّى البابَ ظهرَه.

وليس التوحيدُ مُجَرَّدَ إقرارِ العبدِ بأنَّه لا خالقَ إلّا اللهُ، وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُه، كما كان عُبَّادُ الأصنام مُقِرِّين بذلك وهم مُشركون؛ بل التّوحيدُ يتضمَّنُ مِن محبّة الله والخُضوع له والذُّلِّ بين يديه، وكمال الانقياد لطاعته وإخلاصِ العبادةِ له وحده، وإرادةِ وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنعِ والعطاءِ والحُبِّ والبغضِ؛ ما يَحُولُ بين صاحبه وبين الأسبابِ الداعية

إلى المعاصي والإصرار عليها، ومَن عَرف هذا عَرف قول النبيِّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**».[1]

وما جاء من هذا الضّرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من النّاس، حتّى ظنّها بعضُهم منسوخة، وظنّها بعضُهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحمَلَها بعضُهم على نار المشركين والكفّار، وأوّلَ بعضُهم الدخولَ بالخلود، وقال: المعنى: لا يدخلُها خالدًا، ونحو ذلك من التّأويلات المستكرهة.

والشّارعُ - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه - لم يجعلْ ذلك حاصلًا بمُجَرَّد قول اللسان فقط؛ فإنَّ المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدَّرْكِ الأسفل من النّار؛ فلا بُدَّ مِن قول القلب وقول اللسان.

وقولُ القلب؛ يتضمّن معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمّنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهيّة المنفيَّة عن غير اللهِ المختصَّة به التي يستحيل ثبوتها لغيره.

وقيامُ هذا المعنى بالقلب؛ علمًا، ومعرفةً، ويقينًا، وحالًا؛ ما يُوجِبُ تحريمَ قائلِها على النّار.

وكلُّ قولٍ رَتَّبَ الشارعُ عليه ما رَتَّبَ مِن الثّواب؛ فإنما هو القولُ التامُّ؛

---

(١) رواه البخاري (٤٢٥، ١١٨٦، ٥٤٠١)، ومسلم (٢٦٣ - ٣٣) من حديث عِتْبان بن مالك ﷺ.

كقوله ﷺ: «**مَن قالَ في يومٍ: سُبحانَ اللهِ وبحمدِهِ مِئَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ عنهُ خطاياهُ - أو غُفِرَتْ ذنوبُه - ولو كانتْ مثلَ زَبَدِ البحرِ**».[1] وليس هذا مُرَتَّبًا على مُجَرَّدِ اللسان.

نعمْ، مَن قالها بلسانه، غافلًا عن معناها، مُعْرِضًا عن تدبُّرها، ولم يُواطئ قلبُه لسانَه، ولا عَرف قدرَها وحقيقتَها، راجيًا مع ذلك ثوابَها حُطَّتْ مِنْ خطاياهُ بحسب ما في قلبه، فتكونُ صورة العملين واحدةً، وبينهما في التفاضل كما بين السّماء والأرض، والرَّجلان يكون مقامهما في الصفِّ واحدًا وبين صلاتيهما كما بين السّماء والأرض.

وتأمَّلْ حديثَ البطاقةِ: التي تُوضَعُ في كفَّةٍ، ويُقابلُها تسعةٌ وتسعونَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ منها مَدَّ البصرِ، فتثقلُ البطاقةُ وتطيشُ السِّجِلَّاتُ؛ فلا يُعَذَّبُ.[2]

ومعلومٌ أنّ كلَّ مُوَحِّدٍ له مثلُ هذه البطاقة، وكثيرٌ منهم يدخلُ النّار بذنوبه، ولكنَّ السِّرَّ الذي ثَقَّلَ بطاقةَ ذلك الرَّجل، وطاشت لأجله السِّجِلَّاتُ، لَمَّا لَمْ يَحْصُلْ لغيره مِن أرباب البطاقات، انفردت بطاقتُه بالثِّقَل والرَّزَانَة.

وتأمَّلْ ما قام بقلب قاتل المِئَةِ مِن حقائق الإيمان التي لَمْ تشغلْهُ عند السياق عن السَّيْرِ إلى القرية، وحَمَلَتْهُ - وهو في تلك الحال - على أنْ جعلَ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبّان (٢٢٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وقال الترمذي: (هذا حديث حسَن غريب).

يَنُوءُ بصدره، ويُعالجُ سكرات الموت؛ فهذا أمرٌ آخرُ، وإيمانٌ آخرُ. ولا جَرَمَ أنْ أُلْحِقَ بالقرية الصّالحة، وجُعِلَ من أهلها.(١)

وقريبٌ مِن هذا: ما قام بقلب البغيِّ التي رأت ذلك الكلبَ، وقد اشتدّ به العطشُ؛ يأكلُ الثَّرى، فقام بقلبها ذلك الوقتَ، مع عدم الآلة، وعدم المُعِين، وعدم مَن تُرَائِيهِ بعملها ما حملَها على أنْ غَرَّرَتْ بنفسها في نزول البئر، ومَلْءِ الماء في خُفِّها، ولم تَعْبأْ بتعرُّضها للتَّلَف، وحَمْلِها خُفَّها بِفيها وهو مَلآنُ، حتّى أمكنَها الرُّقِيُّ من البئر، ثمَّ تواضُعها لهذا المخلوق الذي جرتْ عادةُ النّاس بضربه، فأمسكتْ لهُ الخُفَّ بيدها حتّى شرب، من غير أنْ ترجُوَ منهُ جزاءً ولا شكوراً، فأحرقت أنوارُ هذا القدْر من التوحيد ما تقدَّم منها مِن البغاء، فغُفِرَ لها.(٢)

فهكذا الأعمالُ والعُمّال عند الله.

والغافلُ في غفلة من هذا الإكْسِير الكيماويِّ، الذي إذا وُضِع منه مِثقالُ ذَرَّة على قناطيرَ من نُحاس الأعمال؛ قلبَها ذهبًا. والله المستعان).(٣)



(١) صحيح مسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) خبرُها في صحيح البخاري (٣٣٢١ و٣٤٦٧)، وصحيح مسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) مدراج السالكين (١/ ٣٣٨ - ٣٤١).

٢/ آثار الجوارح على القلب

٢/ ١ حرمان العلم.

٢/ ٢ الوحشة والضِّيق.

٢/ ٣ اسوداد الصّفحة.

٢/ ٤ ذهاب الحياء.

٢/ ٥ الوهَن وضعف الهمَّة.

٢/ ٦ ذهاب العزّة.

٢/ ٧ الرّان، الختم، الطَّبع.

١/٢ حرمان العلم

سبق بيانُ أنَّ الإيمانَ مُرَكَّبٌ من قول القلب، وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح. وأنَّ القلب إذا صلح، فاض صلاحُه على الجوارح؛ فتصرَّفت في مراضي الله ﷻ، واستكثرتْ من الحسنات، وابتعدت عن السَّيِّئات، وعكفت على المطلوبات العليَّة، والإرادات الزكيَّة.

وممّا ينبغي أنْ يُعنى به: أنّ العلاقة بين القلب والجوارح علاقة تفاعل وتجاذب؛ فكما أنّ القلب يؤثِّر في حركة الجوارح وسيرها؛ فإنّ الجوارح كذلك تؤثِّر في حركة القلب وسيره؛ صلاحًا وفسادًا، ومُعافاةً ووهَنًا.

وبهذا تكتمل الصُّورة بين القلب والجوارح؛ ليظهر الأثرُ والتأثيرُ من كلٍّ منهما في الآخَر؛ ويصحّ ما قرَّره علماءُ أهلِ السُّنّة من ذلك التّكامل بين مُركَّبات الإيمان.. ذلك التكامل الذي طابَقَ خَلْق الإنسان قَلْبًا ونفسًا ورُوحًا، وجسدًا وأطرافًا وجوارحَ ..

إنّ للجوارحِ تقلُّبًا في الأعمال بين الطاعة والمعصية واليقظة والغفلة، والقَلْبُ بين هذا التَّقَلُّب لا يخلو مِنْ تأثُّر مستمر، وتَشَكُّلٍ مُتَجَدِّدٍ..

فمن هذه الآثار: حصول العلم النّافع؛ فإنَّ العلم نورٌ يقذفُه اللهُ في قلب العبد، **وبتقوى الله وخشيته ومحبَّته وطاعته:** يزدادُ هذا النُّور في القلب، فيتّسع علمه، ويزداد فقهه، ويشتدُّ تمييزُه، ويَعْظُمُ إدراكه، وتقوى بصيرتُه،

حتّى تذهب عنه ظُلمة الجهل، وتتبدّد حيرةُ التردُّد ووحشةُ الشكّ.

وبمجانبة أمر الله ومعصيته: لا يزال ينطفئُ هذا النُّور في القلب حتى يذهب بالكليّة أو تضمحلّ بركته فلا يكاد يُرى مِن دلائله شيئًا، فيتعذّب صاحبُه بجهله، ويقلقُ بحيرته، ويَشقى باضطرابه وتفرُّق هِمّته، فلا تزال ترى صاحبَ هذا القلب قَلِقًا مهمومًا، لا يستقرُّ على قرار، ولا يهدأ له بال.

وقد ذكر الله ﷻ في آخر «سورة البقرة» حُكمَ المُداينة، وفصّلَ في آدابها؛ من كتابةٍ وشهادة، ورهْن، ثمَّ ختم ذلك بقوله عزَّ مِن قائل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وهذا: وَعدٌ مِن الله تعالى بأنّ مَن اتّقاه عَلّمَه، أي: يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يُلقَى إليه؛ حيث ينفتح قلبه للمعرفة وتتهيّأ روحه للتعليم.(١)

وكذلك: تنبيهٌ إلى أنّ كُلًّا مِن تعليم الربِّ وتقوى العبد يُقارِبُ الآخَر ويلازمه ويقتضيه؛ فمتى عَلَّمَهُ اللهُ العِلمَ النّافعَ، اقترنَ به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتّقاه زاده مِن العلم، وهلمّ جرّا.(٢)

قال عبد الواحد بن زيد: كان يُقال: «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ، فُتِحَ له عِلمُ ما لا يَعلَم».(٣)

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٤٠٦)، في ظلال القرآن (١/ ٣٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٨).

(٣) رواه ابن المقرئ في معجمه (٣٣٤).

وقال رجلٌ مِن جُلساء عُمر بن عبد العزيز لرجل سمعه يتكلَّمُ بكلام أعجبه: «لله أبوك! أنَّى أوتيت هذا العلم؟!»، فقال الرَّجل: «**إنَّما قصَّرَ بنا عن علم ما جهلنا: تركُنا العمل بما علمنا**».[1]

وقال ابن عطيَّة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت: ٦٩): «هي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عامٌّ في دِينِ الله، وطلب مرضاته».[2]

وحذّر اللهُ ﷻ من معصيته، وبَيّن أنَّها تُشَكِّلُ حجابًا كثيفًا يَحُولُ بين العبد وتصريف قلبه تصريفًا صحيحًا، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

ثمَّ أَتْبَعَ هذا بعد أربعِ آياتٍ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ (الأنفال: ٢٩). قال عُروةُ بن الزُّبَير: ﴿ فُرۡقَانٗا ﴾: «أي: فَصْلًا بينَ الحقِّ والباطلِ».[3] وهذا التفسيرُ من عروةَ لا يتنافى مع ما رُوي عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿ فُرۡقَانٗا ﴾ أي: «نجاةً». وفي

---

(١) رواه ابن دريد في الفوائد والأخبار (ص٣٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ١٨٦).

(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ٣٢٦).

(٣) رواه ابنُ أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٨٦) بإسنادٍ صحيح، ورواه الطبريُّ في تفسيره (١١/ ١٣١) من قول ابن إسحاق.

رواية: «نصرًا». وفي رواية: «مَخْرَجًا». زاد مجاهدٌ من قوله: «**في الدُّنيا والآخرةِ**».[1]

وذلك لأنّ تفسير عُروةَ أعمُّ، وقد يستلزمُ ذلك كُلَّه؛ فإنَّ مَن اتّقى اللهَ بفِعل أوامره، وترْك زواجره؛ وُفِّقَ لمعرفة الحقِّ مِن الباطل، فكان ذلك سبب نصره، ونجاته، ومخرجه مِن عَسرِ أمورِ الدُّنيا، وسعادته يوم القيامة.[2]

بالتقوَى: «يحصلُ النُّورُ الهادي الذي يكشفُ مُنحنياتِ الطريقِ ودروبَه على مَدِّ البصر؛ فلا تُغشيه الشُّبهاتُ التي تحجبُ الرؤيةَ الكاملةَ الصحيحةَ ... فإنَّ الأمورَ تظلُّ متشابكةً في الحِسِّ والعقل، والطرقُ تظلُّ متشابكةً في النّظر والفكْر، والباطلُ يظلُّ مُتلبِّسًا بالحقِّ عند مفارق الطريق! وتظلُّ الحُجَّةُ تُفْحِمُ ولكنْ لا تُقْنِعُ، وتُسْكِتُ ولكنْ لا يستجيبُ لها القلبُ والعقلُ، ويظلُّ الجدلُ عبثًا، والمناقشةُ جهدًا ضائعًا ... ما لمْ تكن التقوى .. فإذا كانتْ: استنارَ العقلُ، ووضحَ الحقُّ، وتكشَّفَ الطريقُ، واطمأنَّ القلبُ، واستراح الضَّمير، واستقرَّت القدم، وثبتت على الطّريق. إنَّ الحقَّ في ذاته لا يخفى على الفطرة .. ولكنَّه الهوى هو الذي يَحُولُ بين الحقِّ والفطرة .. وهو الذي يَنشرُ الغبشَ، ويَحجبُ الرؤية، ويُعَمِّي المسالك، ويُخفي الدُّرُوب.. والهوى لا تدفعُه الحُجَّةُ، إنَّما تدفعُه التقوى .. تدفعُه

---

(1) تفسير مجاهد (ص٣٥٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٦)، تفسير الطبري (١١/ ١٢٩ - ١٣٠).

(2) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٢٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣).

مخافةُ الله، ومراقبتُه في السِّرِّ والعلن .. ومِن ثَمَّ هذا الفُرقانُ الذي يُنير البصيرة، ويَرفع اللَّبْس، ويكشف الطريق».[1] ولقدْ سَبقتْ هذه الآيةَ آياتٌ في بيان حال قوم أهلكوا أنفسَهم بالمعصية؛ فسَدَّت عليهمْ منافذَ العلم، وحَرمتهُم مِن أنوار الهداية، وأبْقَتْهُم في ظُلمة الكُفر والهوى؛ فصيَّرُوا أنفسَهم في مدارك الأنعام، بلْ أدنَى من ذلك، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠- ٢٢).

ولقدْ كانَ المُوَفَّقُونَ يُدركون هذه الحقيقةَ غايةَ الإدراك؛ فيُوصون من يُحبُّون، ويُرْشِدُون المُتعلِّمين إلى البُعد عن المعاصي؛ لئلَّا يَحرِمُوا أنفسَهم نور العلم وبصيرته.. مِنْ ذلك ما وقع للشافعي في صدر شبابه، وكانْ إذْ ذاك شابًّا يافعًا، حريصًا على العلم، قد أُوْتيَ فِطْنَةً وذكاءً أدهشت مَن حوله، حتّى قال له شيخه مالك بن أنس: «**إنِّي أرَى الله قدْ ألقَى على قلبك نورًا، فلا تُطْفِئْهُ بظُلمة المعصية**».[2] وأنشد الشافعي في هذا المعنى - وكان قد شكى سوءَ حفظه إلى شيخه وكيع -:

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٩٩).

(٢) الداء والدواء (ص١٣٢). وفي مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ١٠٣)، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٢٨٦)، من طريق الربيع، أنّ مالكًا قال للشّافعيِّ: (اتق الله، واجتنب المعاصي؛ فإنه سيكون لك شأن من الشّأن).

شكـوتُ إلى وكيـعٍ سُـوءَ حِفْظِـي فـأرشـدنِـي إلـى تـركِ المعـاصي
وأخبرنِـي بـأنَّ العلـمَ نُـورٌ ونُـورُ اللـهِ لا يُـهْدَى لعاصي.[1]

ولقد وقعتْ تلك الوصيَّةُ من الشافعيِّ في سُويداء قلبه حتّى أيقن أنّ آكَد أسباب تحصيل العلم والثبات عليه والإبداع فيه، لزوم مضارب الطّاعة ومجانبة مبارك المعصية؛ فعمَر أوقاته بالطّاعة، وساعاته بالعبادة؛ حتّى تجلَّتْ لهُ أنوارُ المعرفة، وتفتَّحَت له أسبابُ العلم والبصيرة ما نفع به الأُمّة؛ فكان إمامًا في التفسير والحديث والفقه وأصوله واللغة والأدب والشِّعْر.

وغنيٌّ عن الذِّكر أنّنا إنّما نعني بالعلم هنا: العلم النّافع، الذي يهدي صاحبه إلى الحقِّ، ويُمسّكه بالنُّور، ويشرح صدره، ويُورثُه بَرْدَ اليقين ولذّة الطّاعة واستقامة الجوارح.

وأمّا العلومُ المادِّيَّةُ الصِّرْفَة؛ فالنُّبوغُ فيها يكون بمعرفة سُنن الله في الكون، وما أودعَه فيه من الأسباب والعِلَل، فمن كان بها أعرف، كانتْ له أقود.

كما أنّنا لا نعني بالعلم: كثرةَ المحفوظ، ولو كان من الكتاب والسُّنّة؛ فقد يَحفظُ منهما أقوامٌ لا خلاق لهم في الآخرة، يتأكّلون بعلمهم، ويُضلّون بشُبهاتِهم أكثرَ مِمّا يَهدون.

وجملةُ الأمر: أنَّ القلب مُرْسِلٌ ومُستقبِلٌ، مُصلِحٌ ومُستصلَح؛ فكما

(١) ديوان الشافعي (جمع وتحقيق ودراسة: د. مجاهد مصطفى بهجت) (ص٧٢)، المحمّدون من الشعراء وأشعارهم (ص١٣٨)، الداء والدواء (ص١٣٢).

أنّه يَبثُّ الحياةَ في الجوارح ويؤثّر في أحوالها وأعمالها؛ صلاحًا وفسادًا، قوّةً وضعفًا، استقامةً وانحرافًا؛ فإنّه يَستقبل أسبابَ الحياة منها، ويتأثّرُ بصلاحها وفسادها؛ فتقوى حياته بطاعتها، وينفعل باستقامتها، ويضمر بانحرافها. ولا أقرب مثلًا لذلك مِن أمر الصّلاة والزكاة والصّيام ونحوها من العبادات، قال تعالى في شأن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) وقال في شأن الصّيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣) وقال عزَّ مِن قائل في شأن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣).

نسألُ اللهَ الاستقامةَ في القلب والقالب.



٢/٢ الوحشة والضِّيق

ذكرنا في المقالة السّابقة أنّ من آثار معصية الجوارح على القلب: «حرمانَه من العلم النّافع» الذي يهدي في الظُّلَم، ويُنيرُ في الحَنَادِسِ[1]، ويَكشفُ الحقّ عند تشابك الشُّبَه واشتدادها.

وسنذكرُ هنا أثرًا آخر على القلب، أورثته معصية الجوارح..

إنَّه «الوحشةُ» التي يجدُها العاصي في قلبه، و«الضِّيْقُ» الذي يشتدُّ عليه في صدره.. إنّها الوحشة التي لو اجتمعتْ لصاحبها ملذّاتُ الدُّنيا كلُّها لم تُذهبها؛ ذلك أنّ هذه الملذّات الدُّنيا تُلَبِّي نداءات الجسد، وتُشبِع حاجات الشّهوة؛ دون أنْ تمسّ جانب الرُّوح، أو تلامِس شغاف القلب، أمّا القلوب فلها حاجات وأحوال لا تسدّها لقمة سائغة، أو شربة هنيّة، أو نومة ليّنة، أو مسامرة مؤنسة، أو زوجة جميلة. هذه القلوب حياتها بالإيمان، وطمأنينتها بالذِّكر، وسعادتها بالقرب من الربّ.

ولقد أبانت آياتُ الكتاب الكريم عن هذا الأثر على القلب في آيات سورة الأنعام أتمَّ بيان لمن تأمّلها وتفكّر فيها، وأعمل النظر في تدبُّرها، قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ

(١) (الحَنَادِسِ): جمع حِنْدِس، يعني: الظُّلْمَة. انظر: تاج العروس (١٥/ ٥٦١).

﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٠ - ١٢٢). **لقد نهى اللهُ عبادَه عن الإثم الظّاهر والباطن؛** سواءٌ ما تعلَّق منه بحقوق الله أو حقوق عباده، وسواءٌ ما كان في السِّرِّ أو العلن، وسواءٌ ما تعلَّق بالقلب أو البدن. **ومن تلك الآثام:** الأكلُ مِمَّا لم يُذْكَر اسمُ الله عليه، وإنّه لفِسق وإثمٌ تُوعِّدَ مقترفه بالجزاء الذي قد ينزل على صاحبه في الحياة الدُّنيا، أو يؤخَّر عنه فيوفَّى نصيبه وجزاء ما اقترف في الآخرة.

كان المشركون يستحلُّون أكل الميتة، ويتأوّلون في ذلك بوحي الشّياطين تأويلات هي بالهزل أشبه منها بالجِدِّ؛ كقولهم: «**أَتَأْكُلُونَ مَا قَتَلْتُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ الَّتِي قَتَلَهَا اللَّهُ**».[1] ولذا حذّر اللهُ عباده المؤمنين مِن طاعة هؤلاء المفترين، وأنّ مَن أطاعهم في هذا التّحليل والتّحريم فقد خَلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٢١).

ثُمَّ يجيء هذا الختام البديع في بيان ما نحن بصدده: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

انظر كيف وَصف هؤلاء المشركين بالموت والظُّلمة، ووَصف أولئك المؤمنين بالحياة والاستنارة؟!

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٧).

فهل يستوي ذلك الذي قَبِلَ هدايةَ الله؛ فخرج من ظُلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور الإيمان والعلم والطّاعة؛ فصار يمشي بين النّاس سويًّا على صراط مستقيم؛ مُستيقِنًا بالذي آمن به، مُستمسِكًا بالّذي هُدِيَ إليه، سالكًا دروب التّكاليف على بصيرة، مُقْتَفِيًا آثار الصّالحات على هُدًى، عالماً بطُرق الخير فإليها يعمد ويقصد، بصيراً بأسباب الشّرّ فعنها يحيد ويبتعد .. إنّه نورٌ على نور؛ استنار في نفسه، ثم أشرق نوره وانتشر ضياؤه حتى شمل من حوله؛ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْب ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ بَيْنَ أَرْبَع: إِنِ ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِنْ أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِنْ قَالَ صَدَقَ، وَإِنْ حَكَمَ عَدَلَ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ النُّورِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾(النور: ٣٥)؛ كَلَامُهُ نُورٌ، وَعِلْمُهُ نُورٌ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ، وَمَصِيرُهُ إِلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَالْكَافِرُ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ الظُّلَمِ: فَكَلَامُهُ ظُلْمَةٌ، وَعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ، وَمَدْخَلُهُ ظُلْمَةٌ، وَمَخْرَجُهُ فِي ظُلْمَةٍ، وَمَصِيرُهُ إِلَى الظُّلُمَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[1]

هل يستوي هذا المؤمن الذي شرح الله صدره للإيمان فكان على نور مِن ربّه، ومَن مَثله في الظُّلمات يتعثّر في ظُلمته، ويتقلّب في وحشته، ويتهوّك في فتنته، ويتردّى في جهالته..؟! حاشا وكلّا أنْ يستويا ..

إنّ المؤمنَ حيٌّ، والكافرَ ميتٌ، والمؤمنَ في نُورٍ -بل أنوار-، والكافرَ في ظُلمةٍ -بل ظُلَم-، وكلُّ ذلك إنّما يتحقّقُ في القلب، وإلّا فجسدُ الكافرِ فيه

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥٥).

الحياةُ البدنيّةُ الظاهرةُ، وبصرُه يُدْرِكُ به المَرْئيّاتِ المعتادة، ولكنّه ميّتُ القلبِ والضمير.

الكفرُ: انقطاعٌ عن الحياة الأخروية الأبدية، التي لا تَفنى ولا تغيض ولا تغيب، والتي فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلب بشرٍ؛ فالكفرُ بهذا الاعتبارِ موتٌ.

والكفرُ: بَتٌّ للصِّلَةِ بينَ العبدِ وربِّه القويِّ القادرِ العزيزِ الرحيمِ، وارْتماءٌ في أحضانِ الشياطينِ من الجنِّ والإنسِ، واتِّبَاعٌ لأهواءِ النفوسِ وشهواتِها؛ فهو بهذا الاعتبارِ موتٌ.

والكفرُ: انْطِماسٌ في أجهزة الاستقبال مِن السّمع والبصر والفؤاد؛ فهو بهذا الاعتبار موتٌ.

والكفرُ: محارَبةٌ صريحةٌ للاستجابة الفِطريَّة للخير في الوجود الإنسانيّ؛ فهو بهذا الاعتبار موتٌ.

أمّا الإيمانُ: فهو صلةٌ بخالق هذا الكون، وتَنعُّمٌ بالتقلُّب في أصناف العبادة للباري؛ فهو بهذا الاعتبار حياةٌ.

الإيمانُ: استمدادٌ من الله، وتوكُّلٌ عليه، واعتمادٌ على ما لديه، وهو اعتمادٌ على مَن لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء؛ فهو بهذا الاعتبار حياةٌ.

الإيمانُ: استجابةٌ للفطرة التي فَطَرَ اللهُ النّاسَ عليها في حبِّ الخير والأُنس

والسرور به، فينشأ بذلك الإيمان التوافق بين عمل المرء وفطرته؛ وهو بهذا الاعتبار حياةٌ.

الكفرُ: حجابٌ للرُّوح عن الاستشراف والاطِّلاع؛ فهو بهذا الاعتبار ظلمةٌ.

والإيمانُ: تَفَتُّحٌ ورؤيةٌ لذلك المستقبل البعيد؛ فهو بهذا الاعتبار نُورٌ.

والكفرُ: انكماشٌ وتحجُّرٌ، وضِيقُ أُفُقٍ، وتقصيرٌ لمدَى الرؤيةِ؛ فهو ظلمةٌ في ظلمةٍ.

والإيمانُ: انشراحٌ وطمأنينةٌ وظِلٌّ ممدودٌ.(١)

وهكذا تبدو لنا الصِّلةُ واضحةً بين معاصي هؤلاء الكُفَّار، وما في قلوبهم مِن الموت والظُّلمة، بينما يعيشُ أتباعُ الحقِّ والإيمان في الحياة الحقيقيّة، التي يستنيرون فيها بالنور الرباني.

ونعودُ إلى سياق الآيات؛ لنُدركَ صلةً أخرى بين الأعمال والقلوب في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٣ - ١٢٥).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٢٠٠).

فيذكرُ اللهُ ﷻ سُنَّتَهُ الجاريةَ في وجود نفرٍ مِن أكابرِ المُجرمين في كلِّ قريةٍ يَنتدبون أنفسَهم للمكر والخديعة، والدّعوة إلى سبيل الشّيطان، ومُحاربة الرُّسل وأتباعهم بالقول والفعل، وهُم في هذا مُغَفَّلُون غاية التغفيل؛ لأنَّهم لو عقَلوا لعلموا أنّ هذا المكرَ، وتلك الخديعةَ إنَّما تَحيقُ بهم أوّلًا: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر: ٤٣)، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام: ٢٣).

ومِن مَكرهم وتضليلهم مقولتُهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

فهم يعترضون على اختصاص النُّبوّة والرّسالة بأولئك الذين اصطفاهُم اللهُ مِن خَلقه فجعلهم رُسلًا وأنبياءَ، ألا إنه الجهلُ الفاضحُ مِن أولئك المعترضين؛ لأنَّ اختيار الله للرُّسل مَبْنِيٌّ على علم وحكمة كاملة مِن العليم الخبير، وليس اختيارُ الكُفْءِ لمهمَّةٍ هو لها أهل، وحرمانُ مَن ليس متأهِّلًا لها ممَّا يُعابُ أو يُعترَضُ عليه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

ثمَّ تُختَمُ هذه الآياتُ بما يُبيِّنُ عن الارتباط بين أعمالهم تلك، وما غَشيَ قلوبَهم مِن الظُّلمةِ؛ فحَرَمها مِن النُّور والهدى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

فمن يُقَدِّرُ اللهُ له الهدايةَ وَفْقَ سُنَّتِه الجاريةِ؛ مِن هداية مَن يرغبُ في الهُدى، ويتَّجهُ إليه بما أعطاه الله من القدرة والاختيار؛ يشرح اللهُ صدرَه للإسلام؛ فيتَّسعُ له، ويستقبلُه في سُرُورٍ ورغبةٍ، ويتفاعلُ معه، ويطمئنُّ إليه، بل يَلْتَذُّ به غايةَ التلذُّذ.

ومَن يُقَدِّرُ اللهُ له الضّلالَ وَفْقَ سُنَّتِه الجارية؛ مِن إضْلال مَن رَغِبَ عن الهُدَى، وأغلقَ منافذ النُّور والعلم دونه؛ يجعل صدرَه ضَيِّقًا حَرجًا؛ حتّى يعودَ مُغلقًا مُقفَلاً، يجدُ العُسْرَةَ والمشقَّةَ في قبول الإسلام والانشراح له، كمشقّة ذلك الذي يصعَّد في السّماء. وإنَّما كان ما كان مِنْ ضِيقِ صَدره، ونُفْرَة قلبه عن قبول الهُدى والنُّور والإسلام والإيمان؛ لِمَا قدَّمَتْ يداه، واكتسبت جوارحه من عمل السُّوء والعِصيان.

نسألُ اللهَ شرحَ الصَّدرِ لدِينه، والالتذاذ بعبادته، والأُنْسَ بطاعته.



٣/٢ اسوداد الصّفحة

ومن آثار الذُّنوب على القلب: اعتيادُها حتّى تَخِفَّ وحشتُها على القلب، وتزولَ نُفرتُها منه؛ فينتقلُ من مستوحش من المعصية، كاره لها، إلى حالة لا يُحسُّ فيها بتلك الوحشة، ولا يشعر بتلك الكراهة. ثمَّ لا تزالُ به المعصيةُ حتّى يأنسَ بها، ويُحبَّها، ويبذلَ جهدَه في تحصيلها، ووقتَه في إدراكها، ومالَه في العكوف عليها وجلبها.

ولقد ورد تصويرُ القلب في هذه الحالة، فيما رواهُ حُذَيْفَةُ ﷺ قال:

(كنّا عند عمرَ، فقال: أيُّكم سمعَ رسولَ الله ﷺ يَذكرُ الفِتنَ؟

فقال قومٌ: نحنُ سمعناهُ.

فقال: لعلَّكم تَعنُونَ فتنةَ الرَّجُلِ في أهلِه وجارِه؟

قالُوا: أجلْ.

قال: تلكَ تُكفِّرُها الصَّلاةُ والصِّيامُ والصَّدقةُ، ولكنْ أيُّكم سمعَ النبيَّ ﷺ يَذكرُ الفتنَ التي تَموجُ مَوْجَ البحر؟

قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فقلتُ: أَنا.

قال: أَنْتَ؟ لِلّٰهِ أَبُوكَ.

قال حُذَيْفَةُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الفتنُ على القلوب كالحَصيرِ عُودًا عُودًا ، فأيُّ قلب أُشْرِبَهَا؛ نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها؛ نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بيضاءُ، حتَّى تَصِيرَ على قلبَيْنِ: على أبيضَ

مثلِ الصَّفَا، فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامتِ السَّمواتُ والأرضُ؛ والآخرُ أسودُ مُرْبَادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرِفُ معروفًا ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[1]

جلسَ عمرُ ﷺ مع أصحابه، يتناولُ معهم الحديثَ، ويتذاكرُ وإيَّاهمْ خصالَ الدِّين، وأوامرَ شريعةِ ربِّ العالمين، فسألهم عن الفتن التي تُصيبُ الخَلْقَ؛ فتكشفُ معادنَهم، وتبينُ حقائقَهم، كما يُبينُ الامتحانُ والاختبارُ عن قُدراتِ الناسِ، وكما تكشفُ النارُ عن جوهرِ المعدنِ: أذهبٌ هو أمْ فِضَّةٌ أم غيرُهما؟ فبادَرَ أصحابُه إلى الجوابِ؛ فكان غيرَ ما أرادَ ﷺ؛ فإنَّهم أرادُوا تلك الفتنَ التي تُصِيبُ الإنسانَ في أهلِه مِن فَرْطِ محبَّتِه لهُمْ، وشُحِّهِ عليهمْ، وانشغالِه بهمْ عن كثيرِ من الخيرِ، كما دَلَّ على ذلكَ قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (التغابن: ١٥) أو افتتانُه بهم من جهة تفريطه فيما يلزمُه القيامُ به تجاهَهم مِن التأديب والتعليم؛ فإنَّه راعٍ فيهم، ومسؤولٌ عنهم، كما أنَّهم أرادوا فتنةَ الرَّجل في جارِه؛ حيثُ يُقَصِّرُ في حقِّ الإحسان إليه، وبذل النَّدَى بين يديه، وإسداء النّصيحة له، وقضاءِ ما يستطيعُ مِن حوائجِه، أو يُقَصِّرُ في كفِّ الأذَى عنهُ؛ فيُؤْذِيه في نفسه أو أهله أو ماله.

إنَّ هذا الذي ذكروه فِتَنٌ، لا شكَّ في ذلك، ولكنَّها فِتَنٌ تزولُ آثارُها

---

(١) رواه أحمد (٢٣٢٨٠)، ومسلم (١٤٤). وانظر في معاني الحديث: شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ١٧٠ - وما بعدها).

بالاستكثار من الطّاعات؛ مِنْ صلاةٍ وصيامٍ وصدقةٍ؛ ولكنَّ المعضلةَ الكبرى: تلك الفتنُ التي تَدِبُّ إلى القلوب، وتتخلَّلُ الأفئدةَ، ويُظلِمُ بها القلبُ، حتَّى يعودَ قلبًا منكوسًا ممسوخًا - والعياذُ بالله -، وإنْ كان ذلك الانتكاسُ وذاك المسخُ، لا يقعان دفعةً واحدةً، ولكنَّهما مُحَصِّلَةٌ نهائيّةٌ وثمرةٌ حَنْظَلِيَّةٌ لأعمال الجوارح التي زاغت عن السَّبيل القويم، واستدبرت الصِّراط المستقيم.

وهذا ما ذكرَهُ حذيفةُ ﵁ لعمرَ مُحَدِّثًا به عن رسولِ الله ﷺ، فقال: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحَصِيرِ عُودًا عُودًا ...**». الحديث.

أرأيتَ صانعَ الحصيرِ كيف يصنعُ حصيرَه؟

إنّه يأخذُ أعواد الحصيرِ واحدًا بعد آخَرَ، فَينسِجُ العُود بإزاء العُود حتى يتكوّنَ منها ذلك الحصيرُ الذي يُجلَس عليه.

وكذلكَ السّيِّئاتُ والمعاصي التي يقترفُها العبدُ، هي كعيدان ذلك الحصير؛ فإذا عملَ العبدُ المعصيةَ نُكِتتْ في قلبه نُكتةٌ سوداءُ كعُود ذاك الحصير، فإذا عملَ أخرى نُكِتتْ فيه نكتةٌ سوداءُ أخرى كالعُود الثّاني من الحصير، وهكذا المعصيةُ الثّالثةُ والرّابعةُ، حتّى يُشْرَب القلب نَسيج الفتن، ويُروَى بماء المعصية التي لا يزال يستكثر منها، ويعبّ من شرابها، حتّى تطغى على بقيّة الهدى والنور الذي في قلبه، فتطرده وتحلّ مكانه. وهكذا: كُلَّما حَلَّت في القلب معصيةٌ بظُلمتها وشؤمها، خرج من النور

والهُدى بقدرها، فإذا تمَّتْ تلك الظُّلماتُ في القلب؛ انقفلَ عن الهداية، وحُجِبَ عن اللُّطْفِ الرَّبَّانيِّ، وأحاطتْ به خطيئتُه، وأُوصدت منافذ النور دونه؛ فمَثَلُه كمثَل ذلك الإناء الذي قُلِبَ على وجهه، أفتراهُ يُمسكُ ماءً أو يَحوزُ شرابًا؟!

وإذا كان ذلك أمرًا جَلَلًا، فأعظم منه أنّ القلب حينئذ لا يقفُ عندَ مُجَرَّد الحالة السلبيّة في عدم قبول الهُدى، ولكنّه يَنتكسُ إلى نوع أدنى مرتبةً، وأشدّ ضررًا، يصير عندها القلب عبدًا لهواه مِن دون الله؛ فالهوى هو الذي يُمْلِي عليه أصول النظر إلى الأشياء؛ ماهيّاتها، وصورها، ومعانيها، والصّالح منها والفاسد، والمقبول والمردود، والحسَن والقبيح، والمعروف والمنكر؛ حتّى تتبدّل حقائق الأشياء في نفسه، وتُحرَّف المعاني عن سِيرَتها وجادّتها، فيعود ما كان بالأمس حسنًا ليس بالحسَن، وما كان معروفًا ليس بمعروف؛ فمِن ذلك أنّه يرى الاستقامة على أوامر الشَّرع تَزَمُّتًا وتشدُّدًا، والغَيرةَ على محارم الله وإنكارَ المنكرات دُخُولًا في حُرِّيَّات الآخرين، كما يَرى التحرُّزَ في كسب المال، وترْكَ ما حَرَّمَ اللهُ من الرِّبَا ونحوه؛ رجعيَّةً إلى عُهود بائدة وَلَّى زمنُ النَّظر إليها والانتفاع بها، إلى غير ذلك من الصُّورالتي لا حصر لها مِن انقلاب البصيرة، وعمى القلب، واستدبار الهُدَى، والانحراف عن الجادّة؛ وحُقَّ لمثل هذا القلب أنْ يَصِفَ عُمَرُ ﷺ تواردَ الفتن عليه بموج البحر.

إنّ العبد لتستزلّه المعصية مَهْمَا عَلَا كَعْبُه في الخير؛ لكنَّ البليَّة الكبرى

والرَّزِيَّة العظمى أنْ تَسْتولِيَ المعصية على قلبه، فتَسُدّ منافذَ بصيرتِه، وتُغلق البابَ دُون ركائب الخير ووُفُود البِرِّ إليه.

وهناكَ بإزاءِ هذا القلبِ، قلبٌ آخرُ، هو ذاك القلبُ الذي إذا اقترفتِ الجوارحُ معصيةً مِن المعاصي؛ شَعر ببَذْر نُكتتها السوداء في صفحة قلبه، فسارع إلى قلعها، واجتهد في محو آثارها؛ بتوبة صادقة، ودمعة حَرَّى سخينة، وقُشَعْرِيرَةٍ تَأخذُ بمجامع بدنِه، وتَلين بها جوارحه؛ فينطلق خفيفًا إلى ربِّه، يرجو رحمته ويخشى عذابه.

ولا يزالُ العبدُ في مثل هذه المجاهَدات، حتّى يكونَ قلبُه كالصَّفَا، فتجتمعُ لهُ صفتان: صفة نصاعة البياض، وصفة الشِّدَّة على عقد الإيمان وسلامته من الخلل والأمراض، وذلك على عكس حال القلب الذي تمادى في الذنوب، فنَمَت فيه النُّكتة السّوداء حتّى اسودّ بها القلب كلّه؛ فأضحى أسيرًا لمعصيته، مغلوبًا على أمره، لا يملك حراكًا، ولا يستطيع دَفعًا.

إنَّ القلب الذي يُحارِب دون هوادة آثار الفتن عليه، هو الذي ينجي صاحبه ولو وقع عليه من الفتن ما وقع، فهو لا يزال يدفع ويرفع، ويمنع ويقمع؛ فلا تضرّه فتنة ما دامت السّموات والأرض، وهو دائم على حاله ومجاهدته.

إنّ حقًّا على العبد المؤمن وإنْ بُلِيَ بالمعصية أحيانًا، أنْ لا يكسلَ ولا يستنيمَ إليها، ولا يفترَ عن مَحو آثارها؛ فإنّ أعظمَ مِن الذّنب: اقترانُه بالذّنب الآخَر ..

وإنّ أعظمَ من الذّنب: اسْوِدادُ صفحةِ القلب ..

وإنّ أعظمَ من الذّنب: أنْ يُشربه القلب فيُهوَى ويُحَبّ ..

وإنّ أعظمَ من الذّنب: انطماسُ بصيرةِ القلب، وذهابُ معرفتِه النافعة، وافتقاده التمييز بين الخير والشَّرّ.

فاللَّهُمَّ ارزُقْنا قلوبًا حَيَّةً، وأفئدةً مُتيقِّظةً، وجنِّبْنا موتَ القلوبِ، وانطماسَ البصائر.



٢/٤ ذهاب الحياء

ومن أعظم آفات الذنوب على القلوب: أنها تُذهب - أو تُقلِّل - الحياء فيها من الله ﷻ. والحياء مادّة الحياة في القلوب، وهو أصل لكل خير، وذهابُه من القلب أصل لكل شرّ.

الحياء في حقيقته، حالة تعتري النفس من نظرين:

أولهما: مطالعة نِعَمِ الله على العبد.

وثانيهما: مطالعة تقصير العبد في شكر الربّ ﷻ.[1]

أمّا النظر الأول:

فإنّ العبد لا يزال يرى لله نعمةً عليه في كل حركة من حركاته، وسكنة من سكناته..

أرأيت نعمةَ الله بالبصر الذي تدرك به المرئيّات؛ فترى طريقك، وتتعرّف به على الموجودات؛ فتزداد علمًا بها، ومعرفةً لأوصافها؛ فتسخِّرها بعد ذلك بمقتضى هذا العلم فيما يعود بالنّفع عليك، وعلى البشريّة مِن بعدك؟

ثمّ إنّك تستمتع بهذا البصر في رؤية هذه الموجودات الجميلة، التي تملأ مشاهدتها نفسك أُنْسًا وحُبورًا، وتُسَرِّي بها عن نفسٍ أضناها التعب، أو أدركها الملل مِن تتابع حياة رتيبة.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٧٠).

أرأيت نعمةَ الله عليك بالسّمع؟

كيف تستقبل به حديثَ من يحادثك، ثم تتبادلان أطراف الحديث وقد عقل كل منكما ما يريد من صاحبه، وكيف تدرك به مِن المعاني التي لا تُدرك إلا بواسطته، وكيف تلتذُّ من خلاله بسماع عذب الحديث وما أحل لك سماعه؟!

أرأيتَ بقيّةَ أعضاءِ بدنك؟!

كيف تجري بما ينفعُك، ويُحقّق لك مبتغاك؟!

فلو فَقدْتَ بعضَها؛ فَقدْتَ خيرًا كثيرًا وعدت حسيرًا كسيرًا، وحُرِمتَ أعمالًا وتصرُّفات كنت حريصًا على القيامِ بها، والرغبة في أدائها.

ثم هل رأيتَ ما أَسبغ الله عليك من النِّعم الظاهرة؛ من المال النّافع، والولد البارّ، والزوجة الصّالحه، والجاه والمكانة، وغير ذلك من النِّعم التي لا تحصيها..

وفوق ذلك كلِّه: نعمةُ التوفيق إلى دِين الله الحق: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ (يونس: ٥٨) ؟!

فإذا قضيت لُبانَتَك من هذا النظر الأول..

فعُد إلى النظر الثاني:

هل أدّيتَ شُكرَ نعمةِ الله عليك في بصرك؛ فكان جوّالًا في النّظر فيما يعود عليك بالخير؛ من مطالعة العلم النافع، والنظر في وجوه حكمة الله

في خَلقه، والاعتبار بإحكام صَنعته، وبيان قُدرته؛ فأدّاك ذلك إلى مزيدِ توقير وإجلال ومحبّة للخالق البارئ؟!

وهل أدَّيتَ شُكرَ نعمةِ الله عليك في سمعك؛ فملأتَه بالحديث المبارك الذي يدلُّك على كل خير في أمر دينك ودنياك، وجعلته مَنفذًا مفتوحًا للمعرفة الحقّة التي تَعمُر القلب، وتَزيد العقل؟!

وهل أدّيتَ نِعمةَ اللهِ عليك في الولد والزوجة والمال وسائر النِّعَم؛ فاستعنت بها على مرضاة الله، ووجّهتها إلى طاعته، وجعلتها خيرَ زادٍ لك في سفرك إلى الدّار الآخرة التي إليها المفَرُّ وفيها المُستقرُّ؟!

إنّ الحياة الحقّة ميراثٌ للحياء الحقيقيّ المتولِّد من ذَيْنِك النّظرَين السّابقين؛ ولذا فإنّ من أعظم الخسارة أنْ يُحرمَ العبدُ صفةَ الحياء التي هي مبعثُ كلِّ خير، كما في قوله ﷺ: «**الحياءُ لا يأتي إلَّا بخيرٍ**».[1] وفي رواية: «**الحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ - أَوْ قَالَ - الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ**».[2]

وقد كان - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه - يستنكرُ على مَن يظنُّ أنّ كثرة الحياء يتولَّد منها الضَّرر؛ **فقد رأى رسولُ الله ﷺ رجلًا يعظُ أخاهُ في الحياءِ؛ فقال: «دَعْهُ؛ فإنَّ الحياءَ مِنَ الإيمانِ»**.[3] ومعنى «**يعظُ أخاهُ في الحياء**»: أي: يَعْذِلُه على كثرتِه، ويزجُره عنه.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧) من حديث عِمْران بن حُصَيْن ﷺ.

(٢) صحيح مسلم (٣٧).

(٣) رواه البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦) من حديث ابن عُمرَ.

ولمّا كان الحياءُ بهذه المنزلة؛ توارد الأنبياءُ على الوصيّة به، والحثّ عليه، فقال ﷺ: «**إنَّ مِمَّا أدركَ النَّاسُ مِن كلامِ النبوَّةِ الأولَى: إذا لمْ تَسْتَحْيِ فاصنعْ ما شئتَ**».[1]

وهذا ذمٌّ لترك الحياء، ووعيد على تركه، وكأنّه قال: إذا لم يكن لك حياءٌ، فاعمل ما شئت؛ فإنّ الله يجازيك عليه، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: ٤٠) وقوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ (الزمر: ١٥).

أو هو أمرٌ ومعناه الخبر، والمعنى: أنّ مَن لم يستح؛ صنع ما شاء؛ فإنّ المانع من فعل القبائح هو الحياء؛ فإن لم يكن ثَمَّ حياءٌ انهمك العبد في كل فحشاء ومنكر.

ولذا قال سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا أَوْ هَلَكَةً نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتًا مُمَقَّتًا، فَإِذَا كَانَ مَقِيتًا مُمَقَّتًا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا فَظًّا غَلِيظًا، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ نُزِعَتْ رِبْقَةُ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، فَكَانَ لَعِينًا مُلَعَّنًا**».[2]

فانظر كيف تسلسلت هذه المعاصي المشؤومةُ بسبب ذهاب الحياء من القلب، فجَرَّ ضَعفُ الحياءِ إلى الخيانة، ثم الفظاظة، حتى انتُزِع منه الإيمانُ -والعياذ بالله-.

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٠) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو نُعيم في الحلية (١/ ٢٠٤)

والحياءُ نوعان: أحدُهما: ما كان خِلقةً وجِبلَّةً غيرَ مُكتَسَب، وهو من أجَلِّ الأخلاق التي يمنحُها الله للعبد، ويَجبُلُه عليها؛ فإنّه يكفُّه عن ارتكاب القبائح، ودنايا الأخلاق، ويحثُّه على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها. وهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار .. وقد روي عن عُمرَ ﷺ أنّه قال: «**مَن اسْتَحْيَى: اخْتَفَى، ومَن اخْتَفَى: اتَّقَى، ومَن اتَّقَى: وُقِي**».[1]

وقال الجرّاح بنُ عبدِ الله الحَكَمِيُّ: «**تركتُ الذُّنوب حياءً مِن النّاس أربعينَ سنة، فلمّا جاوزتُ الأربعينَ أدركني الورعُ، فتركتُها حياءً مِن الله ﷻ**».[2]

وقال ابنُ سمعون: «**رأيتُ المعاصي نذالةً، فتركتُها مُروءةً، فاستحالتْ دِيانةً**».[3]

وثانِي نوعَي الحياء: الحياءُ المكتسب مِن مطالعة النِّعم ورؤية التقصير - كما سبق معناه آنفًا -، فإذا اجتمع للعبد الحياءان؛ فذلك خيرٌ كلُّه، فإنْ لم يكن له في الأوّل سهمٌ وافر؛ فليثابر على تحصيله من الوجه الثاني؛ فإنْ نُزِع منه من الوجهين؛ فذلك الشَّرُّ أجمعُه، والبلاءُ كلُّه. نسألُ اللهَ السّلامة والعافية.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩٨).

(٢) تاريخ دمشق (٧٢/ ٥٧)، العبر في خبر من غبر (١/ ١٠٥)

(٣) تاريخ بغداد (٢/ ٩٦)، تاريخ دمشق (٥١/ ١٢)، المروءة لابن المرزبان (ص١٠٩ - ١١٠).

ولسنا بصدد البحث الواسع في صفة الحياء؛ إذْ المراد هنا التنبيهُ إلى أنّ كثرة الذنوب والمعاصي مُضعِفةٌ للحياء في القلب، أو مُذهِبةٌ له، على حسب كثرتها وقوّتها، فإذا ضعفت هذه الصفةُ في القلب؛ استمرأتِ الجوارحُ كثيرًا من المعاصي، فازداد القلبُ بذلك ضعفًا وموتًا.

والنّاظر المتأمِّل يُدرك هذا التّرابطَ الواضحَ بين كثرة المعصية وضعفِ صفة الحياء في قلب صاحبها؛ ولذا لمّا كان النبيُّ ﷺ أكملَ النّاس إيمانًا، كان أرسخَهم في هذه الصفة، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ**».[1]

فقد منعه الحياءُ ﷺ من أن يواجه أحداً بما يكره، فضلاً عن أن يُغلِظ له في القول، أو يَشتدَّ عليه في اللفظ لكمال حيائه وتباعده عما يناقضه.



(١) رواه البخاري (٣٥٦٢، ٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

٢/٥ الوهَن وضعف الهمَّة

لا يزال الحديث موصولًا عن آثار الذنوب والمعاصي على قلب العبد؛ إذْ القلبُ كما أنّه يؤثّر على الجوارح صلاحًا وفسادًا، استقامةً وانحرافًا، فهي تؤثّر عليه كذلك حياةً وضعفًا، صحةً ومرضًا ..

ومِن آثار عصيان الجوارح على قلوب العباد:

وَهَنُ القلبِ وكسلُه عن بثّ الهِمّة العالية، والعزيمة الماضية، في تسيير الجوارح إلى طاعة ربِّها ﷻ .. وإذا فُقِدَت هذه الهِمّةُ، وتلاشت تلك العزيمة؛ فُقِدَ العملُ تبعًا لذلك، وتلاشت القدرة عليه.

ولعلّ المتأمِّلَ للآياتِ التّاليةِ يُدركُ هذا التّلازم؛ فقد ندب اللهُ ﷻ المؤمنين للخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٤١). قال السُّدِّيُّ - في قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يعني: «**غنيًّا وفقيرًا، وقويًّا وضعيفًا**».(١)

ولقد انفعلَت بهذا الأمر تلك النُّفوسُ المؤمنةُ التي لم تجدْ لها - أمام هذا الأمر الإلهيّ - مخرَجًا إلى اعتذار، أو ملاذاً إلى تفلُّت؛ فهذا أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ: شهِد مع رسول الله ﷺ بدرًا، ثم لم يتخلَّف عن غَزاةٍ للمسلمين إلّا عامًا واحدًا، وكان ﷺ يقول: «**قال اللهُ تعالى:**

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ١٨٠٣).

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ **فلا أجدُني إلّا خفيفًا أو ثقيلًا».**[1]

وإذا كان أبو أيُّوبَ مَثَلًا لذلك القلبِ الحيِّ الذي لم يلتمس العُذرَ في القعود عن الجهاد؛ فإنّ هناك أقوامًا مِن المنافقين ممّن ضعفت قلوبهم، وفترت عزائمهم، قعدوا عن الخروج إلى تلك المواطن الكريمة: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٤٢).

وسببُ هذا العجز الواقع في قلوب هؤلاء المتخلّفين عن شهود المواقف الشريفة، ورقيّ تلك المراتب المنيفة: **عمى البصيرةِ** عن درك المعاني الإيمانيّة مِن التضحية والبذل والصّبر واحتساب الأجر، **وخِسَّةُ الهِمَّةِ** عن التطلُّع إلى معالي الأمور، **وضَعفُ المُنَّة**[2] عن تقدير أحوال الورود والصُّدور؛ فلو كان وراءَ هذا الغزوِ ثمّة شيء من أعراض الدُّنيا وأغراض النّفس، أو كان سفرًا قصيرًا مأمون الغرّة مأمول الكرّة؛ لخفُّوا إليه ولم يستثقلوه، ولسارعوا إلى الخروج إليه ولم يتخلَّفوا عنه ..

ولكنّه الامتحانُ الرّبّانيُّ بالشُّقَّةِ البعيدة التي تسَّاقطُ دون بلوغِها الهِمَمُ

---

(١) الطبقات لابن سعد (٣/ ٤٨٥)، تفسير الطبري (١١/ ٤٧٣).

(٢) المُنَّة -بضم الميم-: القوة، ومُنَّة القلب: قوّته. الصحاح (٦/ ٢٢٠٧)، المحيط في اللغة (١٠/ ٣٩٠).

الكالّة، وتتهاوى دون قصدها العزائمُ الواهنة، والنُّفوسُ الضعيفة، والبُنَى المهزولة.

ولا تحسبنّ -أخي الكريمَ- أنّ مِثلَ هذه الحالِ وقفٌ على أولئك الأقوام في زمن رسول الله ﷺ؛ فإنّه نموذجٌ مكرور لأولئك الذين يعيشون على هامش الحياة، ويخدعون أنفسهم بأنهم بلَغوا كل غاية، وحازوا كل أمنية؛ فهم لا يشرئبُّون إلى أُفُق كريم، ولا يتطاولون إلى مراتبَ في الكمال عالية.

وإذا كان هذا حال أولئك مع داع الجهاد، فهم كذلك مع كلّ داعٍ يدعوهم إلى الله، وإلى الأسباب الهادية إليه؛ قعدت بهم هممهم عن تلبية كل نداء لا يوافق رغباتهم، وعن إجابة كل دعوة لا تسير في أهوائهم؛ دفعًا للمشقّة والتضحية، ودرءًا للفداء والبذل، واسترواحًا إلى الدَّعة والراحة، وطلبًا للمعافاة والأمن ..

بل لقد حملت تلك الهِمَمُ الضعيفةُ أصحابَها على ارتكاب معصية الكذب طلبًا لصورة المعذور غير الملُوم: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(التوبة: ٤٢).

إنّهم ضعُفوا فكذَبُوا، وإنّما يَكذِبُ الضُّعفاء وإنْ ظهروا في صور الأقوياء؛ ألم ترهم يُدارون ويحتالون ضعفًا عن مواجهة الحقيقة؟

ولكنّ اللهَ مُطّلعٌ على سرائرهم: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

ولقد كان من الأَوْلَى عدمُ قبول الاعتذار منهم؛ لتنكشف حقيقتُهم، ويفتضح كذبهم، وأنّهم أضمروا في نفوسهم ألّا يخرجوا حتّى وإنْ لم يأذن النبيُّ ﷺ لهم بترك الخروج، ولكنّ رسول الله ﷺ -وهو الرّحيم الودود- وَكَلهُم إلى ظاهر حالهم من الاعتذار، فعاتبه ربُّه بأرقّ عتاب وأحسنه، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ (التوبة: ٤٣).[1]

قال مجاهد: «**نزلت هذه الآية في أُناسٍ، قالوا: استأذِنوا رسولَ الله؛ فإنْ أَذِنَ لكم فاقعدوا، وإنْ لم يأذنْ لكم فاقعدوا**».[2]

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: في إبداء الأعذار ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ يعني: هلا تركتهم لمّا استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود؛ لِتعلَم الصّادق منهم في إظهار طاعتك من

---

(١) قال عونٌ: «هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟! بدأ بالعفو قبل المعاتبة، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ...﴾». تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٥).

وعن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ...﴾ (التوبة: ٤٣ - ٤٥) الآيات الثّلاث. قال: نسختها: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ (النور: ٦٢)). النّاسِخ والمنسوخ للنحّاس (ص٥٠٥). وقال قتادة: (عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل الله بعد في سورة النُّور، فرخّص له في أنْ يأذن لهم إنْ شاء، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ (النور: ٦٢)). الناسخ والمنسوخ المنسوب لقتادة (ص٤٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٥)، النّاسِخ والمنسوخ للنحّاس (ص٥٠٥).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٤٧٨).

الكاذب؛ فإنّهم قد كانوا مصرِّين على القعود عن الغزو وإنْ لم تأذن لهم فيه.[1]

ثم يأتي الشّاهد الذي من أجله سُقنا هذه الآيات، وهو ذلك الارتباط بين عمل القلوب والجوارح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ (التوبة: ٤٤، ٤٥). هكذا يخبر تعالى: «أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾؛ لأنّهم يرون الجهاد قُربة، فلما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾ أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: شكَّت في صحّة ما جئتَهم به، ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي: يتحيّرون، يُقدِّمون رِجْلًا ويُؤخِّرون أخرى، وليست لهم قَدَمٌ ثابتةٌ في شيء، فهم قوم حيارَى هلكَى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومَن يُضلِلِ اللهُ فلنْ تجدَ له سبيلًا».[2]

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٩).

(٢) المصدر السابق.

إذًا: «هذه هي القاعدة التي لا تخطئ؛ فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أنْ يُؤذَن لهم في أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكّأون في تلبية داعي النَّفْرَة في سبيل الله بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليه خِفافًا وثِقالًا كما أمرهم الله؛ طاعةً لأمره، ويقينًا بلقائه، وثقةً بجزائه، وابتغاءً لرضاه. وإنّهم ليتطوّعون بذلك تطوُّعًا؛ لا يحتاجون إلى مَن يستحِثُّهم، فضلًا عن الإذن لهم في التخلُّف والقعود، إنّما يستأذنُ أولئك الذين خلت قلوبُهم من اليقين؛ فهم يتلكّأون ويتلمّسون المعاذير؛ لعل عائقًا من العوائق يحول بينهم وبين النُّهوض بواجبات الشريعة التي يتظاهرون بالانتساب إليها، وهم يرتابون فيها ويتردُّدون»[1].

إنَّ تلك الخطايا التي وَلَغَ فيها المنافقون، وتلك الآثام التي لا يزالون يعودون فيها ولا يَتُوبون - أورثت قلوبَهم هذا الوَهْنَ، وملأت أفئدتَهم بهذا الضّعف والانكسار؛ فلا يجدون جسارةً على الهِمّة العليّة، ولا يستجمعون قوّةً على صعود العِقاب الكأداء[2] التي حُفَّت بها الجنّة. ثم لا يزالُ القلبُ في ضَعفٍ مستمرٍّ حتى يُورِثَ الأعضاءَ ضعفًا أكبرَ؛ فترتدُّ عليه بضَعفٍ آخرَ أقوى مِن الذي قبله.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٦٦٢).

(٢) (العِقَاب): جمع (عَقَبة): طريقٌ في الجبل، ومن ذلك كلُّ شيء فيه عُلوٌّ أو شِدَّة، وعَقَبةٌ كَأْدَاءُ: ذاتُ مَشقَّة، وهي: الكَؤُودُ أيضًا. انظر: تهذيب اللغة (١/ ١٨٣ و١٠/ ١٧٨)، مقاييس اللغة (٤/ ٨٤).

إنّنا كثيرًا ما نلتمسُ - لتقصيرنا الظّاهر في أمور الجوارح - عُذرًا في ضعف عزائمنا وضعف إراداتنا، وما دَرينا أنّ قوّة العزائم والإرادات ميراثُ عملِ الجوارح وكَدِّها، ومصارعة الحوادث ومجالدتها.

وتأمّل بشيء من البصيرة حينما يُرشد الطبيبُ مريضَه إلى أنْ يمارس عملًا رياضيًّا كالجري مثلًا لِيدْفَعَ عن بدنه بعضَ آفات الكسل، وعوارضَ أمراضِ الدَّعَة .. إنّ أوّلَ ما يواجه الطبيب من حال ذلك المريض: فتور عزيمته، وقعود هِمَّته؛ ولذا فإنّ الطبيب الحاذق يُرشده إلى التدريج، ويحثه على التمرين؛ فكلّما أخذ في تطبيق هذا العمل وجد في نفسه عزيمةً على زيادته؛ إذْ بذلك العملِ يكتشفُ قدراته الكامنة، ويلتذُّ ببوادر عافيته، ويُحسُّ بثمرة حركته..

وكذا الإيمانُ؛ عملٌ ظاهرٌ يُحسُّ بثمرته المؤمن؛ فيُوَلِّدُ ذلك في قلبه لذّةً بذاك العمل، فيزدادَ عزيمةً على الاستكثار منه، أو من جنسه.

نسأل اللهَ ﷻ أن يرزقنا العزيمة على الرُّشد، والثباتَ على الأمر.



٧/٢ ذهاب العزّة

من أعظم جنايات المعاصي على قلب العبد:

ذهاب العِزَّة، وحصولُ الذِّلَّة والمهانة؛ فإنّ العزَّ كلَّ العزِّ في طاعة الله، والذُّلَّ كُلَّ الذُّلِّ في معصيته. ومصداق ذلك في كتاب الله؛ فقد وردت فيه نصوصٌ كثيرةٌ تَربِطُ العزَّ بطاعة الله، كما وردت نصوصٌ أخرى كثيرةٌ تَربِطُ الذُّلَّ بمعصيته والتّولّي عنه..

فمن النّوع الأوّل: ما ورد في سورة «المنافقون» من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(المنافقون: ٨).

فقد قدّم الخبر على المبتدأ لإفادة حصر استحقاق العزّة لله ورسوله والمؤمنين.

وهذه العزَّةُ مستحقَّة لله تعالى أصالةً، ولرسوله ﷺ تبعًا، وللمؤمنين بمتابعة الرسول ﷺ .

وبهذا يتضح أنّ هذه العزَّة: ثمرة ربّانيّة، وعائدة إيمانيّة، ذات صفات أصيلة وآثار شريفة؛ فهي العزَّة التي لا تُطأطئ هامتها لغرض أو عرَض، وهي العزّة التي لا تنحني لمخلوق إذْ عرفَت الانحناء لله، وهي العزّة التي لا تزايل القلب المؤمن في أحرج لحظاته، إلّا أنْ يتبدَّد فيه الإيمان فإنّها تتبدَّد معه.

و﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عزَّة الله ﷻ وعزَّة أهل الله ..

وأنّى لهم حصول هذا العِلم، وهم لا يتذوّقون هذه العِزّة، ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟!

وقد غرّهم مِن قبل فرط جهلهم، وكثرة أموالهم وأولادهم؛ فظنّوا أنّ العزّة والقوّة والغلبة لهم دون غيرهم.[1]

جاءت هذه الآيةُ لتقرِّرَ هذه الحقيقةَ التي لا ينبغي أنْ تغيب عن حسِّ المؤمن، وخاصّة حينما يكونُ في موقف يَظهرُ فيه العجز عن تحصيل بعض أسباب القوّة الظّاهرة، فيظنُّ ضعيفُ - أو ذاهبُ - الإيمان، أنّ المؤمن حينئذ مسلوبُ العزّةِ، عارٍ عن أسبابها .. جاءت لتقرِّر هذه الحقيقةَ حينما ظنّ رأسُ المنافقين أنّه الأعزّ، وأنّ الرّسولَ ﷺ وأتباعَه الأذلّون: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون: ٨).

قال زيد بن أرقم رضي الله عنه: (كنتُ في غَزاةٍ، فسمعتُ عبدَالله بنَ أُبَيٍّ، يقولُ: لا تُنفقُوا على مَنْ عندَ رسولِ الله حتَّى ينفضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، لَئِنْ رجعْنا مِنْ عندِه لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلكَ لعمِّي - أوْ لعُمَرَ -؛ فذكَرَه للنبيِّ ﷺ، فدعاني، فحَدَّثْتُهُ، فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ وأصحابه، فحلفُوا ما قالُوا، فكذَّبَنِي رسولُ الله ﷺ وصَدَّقَهُ؛ فأصابنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مثلُهُ قطُّ، فجلستُ في البيتِ، فقالَ لي عمِّي: ما أردتَ إلى أنْ كَذَّبَكَ رسولُ اللهِ ﷺ ومَقَتَكَ؛ فأنزلَ اللهُ تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨٠).

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾ (المنافقون: ١) فبعثَ إليَّ النبيُّ ﷺ فقرأ. فقال: «إنَّ اللهَ قَدْ صَدَقَكَ يا زَيْدُ»).[1]

وقد ورد بسطُ هذه القصّة في كتب السِّيَر، وأنّ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ نطق هُجْرًا من القول، حتّى كان فيما قال: «واللهِ ما مَثَلُنا وجلابيبُ[2] قريش هذه -يقصدُ النبيَّ ﷺ والمهاجرين- إلّا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبَكَ يأكُلْكَ! واللهِ لَئِنْ رجعْنا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ». ثمَّ أقبلَ على مَنْ عندَهُ، وقالَ: «هذا ما صنعتُمْ بأنفسِكم: أَحللتمُوهُمْ بلادَكُمْ، وقاسمتمُوهُمْ أموالَكُمْ؛ أمَا واللهِ لوْ كَفَفْتُمْ عنهُمْ لتحوَّلُوا عنكُمْ مِنْ بلادِكُمْ إلى غيرِها»[3]

وقد أَرَى اللهُ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيّ ذِلَّته شاخصة أمام عينيه، ومِن أقرب الأقربين له، وفي الوقت نفسه تمثُل له عِزّة أهل الإيمان في مشهد جليل، وفي وقت ليس ببعيد من قولته التي فاه بها تعريضًا بالنبيّ ﷺ وبالمؤمنين ..

فها هو ابنه عبد الله ﷺ يقف لوالده على مشارف المدينة، ثمّ يأخذ بزمام راحلته حين أراد دخولها، فيقول له: «لَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلِ الْمَدِينَةَ حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ الْأَعَزُّ وَأَنْتَ الْأَذَلُّ»، فَجَعَلَ النَّاسُ

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٠٠ و٤٩٠٤)، ومسلم (٢٧٧٢).

(٢) (جلابيب): لقبٌ لمن كان أسلمَ مِن المهاجرين، لقَّبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب: الأُزُرُ الغِلَاظُ، واحِدُها جِلْبابٌ، وكانوا يلتحفون بها فلقَّبوهم بذلك. (شرح سيرة ابن إسحاق لأبي ذر، ص٣٣٣) .

(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٤١٦)، وسيرة ابن إسحاق - تهذيب ابن هشام (٢/ ٢٩٠ - ٢٩١) - وعنه دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٥٢).

يُقبِلُونَ فيَقِفُونَ حَتَّى أَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا هَذِهِ الْجَمَاعَةُ؟**» فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «**مُرُوهُ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ**»، وأَذِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِدُخُولِهِ.[1]

وقد جاء تقريرُ هذه الحقيقة الثابتة مِن انحصار العزّة في الله، وانحصار تحصيلها بطاعته في قوله تعالى أيضًا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ (فاطر: ١٠). «وانتصب ﴿ جَمِيعًا ﴾ على الحال من ﴿ ٱلْعِزَّةُ ﴾ وكأنه فعيل بمعنى مفعول، أي: العزّة كلها لله، لا يشذّ شيء منها فيثبت لغيره؛ لأنّ العزّة المتعارَفة بين النّاس كالعدم؛ إذْ لا يخلو صاحبها من احتياج ووهن، والعزّة الحقّ لله».[2]

فالعزّة الكاملة لمن له الملك التّامّ، وهو الله مالك الدُّنيا والآخرة، ومَن ابتغى أنْ ينال من تلك العزّة في الدُّنيا والآخرة، فليُقبِل على من يملكها طاعة وعبادة.

ولقد عاب اللهُ ﷻ مسالكَ المنافقين في انسلالهم من صفوف المسلمين وعدولهم عن موالاتهم، إلى الاصطفاف بين ظهرانَي المشركين وموالاتهم؛ ابتغاءً للعزّة عندهم ورغبةً في نصرتهم. وذلك ضلالٌ في المسلك، كما أنّه قبل ذلك ضلالٌ في الرأي؛ ولهذا جاءت الآية بصيغة الاستفهام الاستنكاري: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٣٨، ١٣٩).

---

(١) انظر: تاريخ المدينة لابن شبّة (١/ ٣٧٥)، الدرر في اختصار المغازي والسير (ص١٩٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٧١).

لم يتخذ هؤلاء المنافقون - الذين يزعمون الإسلام - الكافرين أولياء، إلّا لأنّهم يطلبون العزّة لديهم، والقوّة في كنفهم، وأنَّى لهم ذلك، فإنَّ الله ﷻ قد استأثر بالعزّة؛ فلا تُلتمس إلّا عنده، ولا تُرتجى إلّا منه، ولا تُجْتنى إلّا بالرُّكون إليه. فطلب الولاية والعزّة من الكافرين من أعظم أسباب الذلّ والمهانة.

ولقد أثبت التاريخ لأولئك المنافقين ذِلّةَ أولئك الكافرين الذين يطلبون عندهم العزّة؛ فهم بين مقتول ومطرود من دار الإسلام، في أجلى صور الذُّل، وأمرّ مواقف الهزيمة؛ فظهر لمن كان طالبًا للحقّ مصداقُ قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٣٩).

هذه العزّة لقلبِ المؤمن؛ تحميه مِن أن ينكسر أو يَهِنَ، حينما يكثر لغط المنحرفين من حوله؛ فيطلقون عليه النعوت المنكرة، أو يصفونه بالأوصاف الشنيعة المرذولة في دينه ودنياه. وقد جاء هذا التوجيه لرسول الهدى -صلوات الله وسلامه عليه- حينما كان أعداؤه يُثيرون مِن حوله الرِّيَب، ويُكثِرون مِن حوله التُّهَم، فخَاطبه ربُّه مثبّتًا ومقوّيًا: ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (يونس: ٦٥).

وما انحصار العزّة في الله إلّا لتمام ملكه، وسعة سلطانه، وقهره لمن شاء من عباده. وإذا كان الله موصوفًا بهذا ونحوه؛ فلا عزّة إلّا له، ولا عزّة إلّا بهبته ومنحته: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (يونس: ٦٦).

وفي المقابل: نجد أنّ الله ﷻ ربط الذّلّ بمعصيته في آيات كثيرة، وقرّر قاعدةً عامّة في ارتباط الذلّ بالمعصية، فقال تعالى في «سورة المجادلة»: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ (المجادلة: ٢٠).

فهذا خبر من الله -وخبره صِدْق وحقّ- : أنّ المعانِدين لدِين الله، المشاقِّين لشرعه، هم الأذلّون الصّاغرون، الأشقياء المبعدون، المطرودون عن كل خير في الدُّنيا والآخرة؛ فالذلّ لازمٌ لهم في قلوبهم وأحوالهم.

وتاريخ دعوة الرُّسل يوضِّح هذه الحقيقة أتمّ توضيح؛ ولذا سُبقت هذه الآية المقرِّرة لهذه القاعدة بمثال تطبيقي ذكره الله في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (المجادلة: ٥).

وانظر إلى بني إسرائيل كيف تنكّبوا عن الحق في عبادة الله ﷻ، فعبدوا العجل من دونه، كيف عاقبهم الله ﷻ - فيما عاقبهم به - بزرع الذِّلّة في قلوبهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٥٢).

وفي قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ تنبيه إلى أنّ كل من افترى في دين الله شيئًا، ومن ذلك المبتدع في دين الله ما ليس منه، فله من تلك الذِّلّة نصيب.[1]

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٧ - ٤٧٨).

قرأ أبو قِلابَةَ الجَرْمِيُّ هذه الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فقال: «هي -والله- لكلِّ مُفْتَرٍ إلى يوم القيامة».[1]

والمعترضون على نبوّة محمد ﷺ هُدِّدوا - فيما هُدِّدوا به- بإيقاع الذِّلّة عليهم، المعبَّر عنها بالصَّغار في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

والصَّغار: هو الذِّلّة الدّائمة اللازمة لأولئك المتكبّرين عن الحق، استكبروا في الدُّنيا عن اتّباع الرّشاد؛ فعوقبوا بذِلّة تلحقهم في دنياهم وأخراهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، أي: صاغرين ذليلين حقيرين راغمين.[2]

وقد تتنكَّب أُمّةٌ من الأمم عن الخير، وتستدبر الرّشاد، فيكون جزاؤها ذِلّة نفسها؛ ذلّة تُغرِي بها أعداءها؛ فيتسلّطوا عليها، ويسومونها سوء العذاب، وما كان ذلك ليحصل لو آمنت بالله، واتبعت المرسلين.

ولّما ذكر الله تعالى في سورة البقرة كثيرًا مّما لاقاه موسى عليه السلام من عصيان

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٤٦٤).

(٢) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص٣٨٧)، معاني القرآن للزجاج (٤/ ٣٧٧)، الوسيط للواحدي (٤/ ٢٠)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٨).

بني إسرائيل، واقتراحاتهم الفجّة، وأمانيّهم الباطلة التي لا يَحُدُّها حدٌّ من خشية، ولا يوقفها وازعٌ من تقوى، عقّب ذلك بقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١).

تدبّر هذا الرَّبطَ بين قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ يظهر لك جليًّا ارتباطُ الذِّلَّةِ بالمعصية، وحينذاك تُدرك الفقه في قول الحسن البصري -: «**إنّهم وإنْ طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين؛ فإنّ ذُلَّ المعصية لفي قلوبهم، أَبَى اللهُ إلّا أنْ يُذِلَّ من عصاه**».[1]

وقولِ عبد الله بن المبارك:

«رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَيُتْبِعُهَا الذُّلَّ إِدْمَانُهَـــا
وَتَـرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَالْخَيْـرُ لِلنَّفْسِ عِصْيَانُهَـا»[2]



(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٢٦)، إغاثة اللهفان (١/ ٤٨)، الداء والدواء (ص١٤٦- ١٤٧).
(٢) المجالسة للدِّيْنَورِيِّ (٢/ ٣٠)، معجم ابن المقرئ (١٢٢٥)، شعب الإيمان (٩/ ٤٢٢).

٢/٧ الرّان، الختم، الطّبع

لا تزالُ الذُّنوب والمعاصي بالعبد حتى تُضفِي على قلبه طبقات، بعضُها فوق بعض، حتى تحجُبَه عن النُّور، وتحجُبَ عنه النُّور، وقد أخبر رسولُ الله ﷺ عن هذه الحالة التي تعتري القلب، فقال ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً: نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ؛ فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ؛ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ**».[1]

هذا الرّانُ الّذي أشار إليه المصطفى -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- شبيهٌ بالصّدأ الذي يعلو السّيفَ والمرآةَ؛ فيُزيلُ لمعانَها، ويَعتِمُ نورَها.

وقد كان هذا الرَّينُ صادِفًا لأقوام عن الإقبال على الله، والإيمان برسالة نبيِّه محمّدٍ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إلى أنْ قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المطففين: ١ - ١٣).

بعد أنْ ذكر اللهُ ﷻ هذه الذُّنوبَ الكبيرة، والمعاصي العظيمة؛ مِن تطفيفٍ في الكيل والميزان، ونسيانٍ ليوم العرض والحساب، وتكذيبٍ بيوم الدِّين، واستهزاءٍ بآيات ربِّ العالمين، وقولهم: إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأوّلين..

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: (حديث حسن صحيح).

بعد هذا كلّه؛ عقّب الله ﷻ بذِكر سبب الإعراض عنه، وترك الإيمان برسوله ﷺ؛ وأنه استيلاء الذُّنوب على القلوب، حتّى غابت في غِلاف خالص، وعُزلت في كِنَانٍ[1] مُصْمَت، لا ينفُذ إليه النُّور، ولا تخرج منه الظُّلمة، فقال: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين: ١٤).
قال الحسن البصريُّ: «**هو الذّنبُ على الذّنب، حتّى يعمى القلب؛ فيموت**».[2]

هكذا عمل الذُّنوب في القلوب؛ لا يزال العبد يعمل بها، ويُفْرِط في اقترافها، ولا يزال يُنكَت له بكلِّ ذنب غشيه نكتة سوداء تلو الأخرى، حتّى تَعْلُوَ النُّكَت قلبَه، وتغشى دقيق ذرّاته؛ فيفقد هذا القلب نوره، وتعمى بصيرته .. فيموت .. وكانوا يمثّلون ذلك بمن يمسك بكفِّه شيئًا، فلا يزال يَضمُّ إصبعًا تلو الآخر، حتى يأتي على جميع أصابعه، فلا يبدو من باطن كفه شيء .. فذلك مثَل الرَّيْن.[3]

وإنَّ شئت أنْ ترى صُورةَ الرَّان باديةً، فانظرها في قوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾(البقرة: ٩٣)، فتأمَّل قوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا ﴾ تقف على حقيقة الرّان وكنهه ومعناه.. قال

---

(١) (كِنَان): مفرد، جمعه: أَكِنَّة، وهي الأغطية، وكل شيء سترت به شيئًا، فهو كِنَانٌ له. انظر: جمهرة اللغة (١/ ١٦٦)، الصحاح (٦/ ٢١٨٨)

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٠١).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٦٦ و٢٤/ ٢٠١ - ٢٠٢).

قتادة: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ يعني: «**أُشْرِبُوا حُبَّه حتّى خَلَصَ ذلك إلى قلوبهم**».[1]

قال ابن جرير الطبري: «يُقالُ: أُشْرِبَ قلبُ فلانٍ حُبَّ كذا، بمعنى: سُقِيَ ذلك حتّى غَلَبَ عليه، وخالط قلبَه؛ كما قال زُهَيْرٌ:

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ دَاخِلٍ وَالْحُبُّ يُشْرَبُهُ فُؤَادُكَ دَاءُ».[2]

ثمّ بيَّن تبارك وتعالى سبب ما وقعوا فيه مِن عبادة العجل، وأنّه كان: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾..

لقد أُشْرِبَ القومُ حُبَّ عبادة العِجل حتّى تغلغل ذلك الحبّ في قلوبهم، وزُيِّن لهم في نفوسهم؛ بسبب ما اقترفوه من الأوزار والخطايا التي انتهت بهم إلى العدول عن عبادة الله وحده، إلى استقبال العِجْل والتألُّه له وحُبّه، وهكذا تفعل الذنوب والخطايا والآثام بأصحابها حتى يكفروا بالله ويعبدوا غيره ولو كان عجلًا حقّه أنْ يُؤكَل لا أنْ يُعبَد..

ثم تأمَّل قوله تعالى: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ وتأمّل معه قوله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ تقف على وجه الاتفاق بين الحالَين؛ فإنّ ما أُشْرِبَ هؤلاء مِن عبادة العجل، وما ران على قلوب هؤلاء المُكذِّبين بيوم الدِّين وآيات الذِّكر الحكيم؛ ما هو إلّا ثمرة مُرَّة لاسوداد القلب وغلبة

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٦٣).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٢٦٥).

الفساد عليه؛ بسبب الذنوب التي أغلقته، والخطايا التي أعمته؛ فلم يعد يُحرِّك صاحبه إلى توبة، ولا يُحرِّضه على أوبة، فمثَله كمثَل المتوحِّل في حمأة؛ فإنّه ما لم يدخل في لجتها فهو قادر على التخلُّص، فإذا توسّط معظمها عَزّ عليه وعلى غيره إنقاذه؛ فمبادئ الأمور مَقدُورة للعبد، فإذا استحكمت أسبابها وتمكّنت لم يبق الأمر مقدورًا له.(١)

ولعمري إنّ هذه لعقوبات كبيرة، ومآلات وبيلة؛ تَنخلع لها قلوب المؤمنين، وتُصرَف عن فِقهها واستجلاء معانيها قلوب الزائغين.

ومِنْ الميراث المرّ للذنوب التي تكتسبُها الجوارح عقوبة القَفْلِ على القلب.. قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٠ - ٢٤).

أي: بل على قلوب أقفالُها ..

إنّها دعوةٌ مِن الله إلى تدبُّر القرآن؛ فتدبُّرُ القرآن: يُزيل الغِشاوة، ويَفتح

(١) انظر: شفاء العليل(ص٩٠)، محاسن التأويل (٩/ ٤٣١)، العذب النّمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (١/ ٢٢٢-وما بعدها)، القضاء والقدر للدكتور دسوقي(١/ ٢٢٢-٢٢٣).

نوافذ المعرفة، ويَستجيشُ القلوب، ويُحرِّك المشاعر، ويُخلِّص الضمير، الضّمائر، ويُنشِئ حياةً للرُّوح تَنبضُ بها وتُشرق وتَستنير ..

لكن أنّى لهم ذلك؟!

فقد أُقفِلَت قلوبُهم عن هذا التدبُّر في آيات الله ﷻ بسبب نُكوصهم عن الجهاد، وهو المعنى المعبَّر عنه في قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ (محمد: ٢٠)، وبسبب العودة إلى ارتكاب أعمال الجاهليّة من الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام .. فكانت تلك السّيئات قُفْلًا مُحكمًا لذلك القلب ..

وقد تكثر المعاصي وتشتدّ من العبد حتى يختم الله على قلبه، ويطبع عليه، كما في آيات كثيرة في الكتاب الكريم، فيها اقتران الطبع والختم باجتراح السيئات، من مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٥). فالمجادلة لردّ آيات الله بغير حُجَّة ولا برهان، وإنما بمحض التجبُّر والتكبُّر والطغيان، عاقبتها الطَّبع على القلب الذي هو موضع الهُدى، ومنفذ الإدراك.

ونقض المواثيق وقتل الأنبياء وإنكار التكليف سببٌ مباشر لما ابتليت به قلوب بني إسرائيل من الطبع، كما قال تعالى في شأنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ

ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ... ﴾ الآيات (النساء: ١٥٥ - ١٥٩).[١]

وفي الخَتم على القلب بسبب الذنوب، قولُه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ (البقرة: ٧): يقول الإمام الطبري «الذُّنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم مِنْ قِبَلِ الله ﷻ والطبع؛ فلا يكون للإيمان إليها مَسلكٌ، ولا للكفر منها مَخْلَصٌ؛ فذلك هو الطَّبع والختم».[٢]

وممّا ينبغي الإشارة إليه، والعناية به: أنَّ العبد مأمور دائمًا وعلى كلِّ حالٍ - طائعًا كان أو عاصيًا -؛ بالسعي في هداية نفسه، وإصلاح قلبه، وتهذيب طبعه، وتقويم عيبه، ودعوة غيره إلى الهُدَى والبرّ والصّلاح والاستقامة، وإنْ بدا ما بدا في ظاهر الأمر من الانهماك في المعاصي والسّيّئات، والولوغ في الأوزار والخطيئات؛ فلا يَقْعُد قاعدٌ عن إصلاح قلبه، ولا يُمسك ممسكٌ عن دعوة غيره؛ بدعوى: (أنّ القلب قد أصابه الرَّين أو الطَّبع أو الخَتم أو القَفل؛ فلم يعد يَقبل هُدًى، أو ينتفع بموعظة)؛ وذلك لأنّ ما يُصيب القلب مِن هذه الأوصاف مِن رَيْن القلوب وختمها وقفلها والطبع عليها، أمر لا يطَّلع عليه إلّا علّام الغيوب، ونحن مطالبون شرعًا بالسّعي في إصلاح

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١١/ ٢٥٨).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٦٧).

النّفس، وهداية الخلق، وأمّا الحُكم بالسَّلب على خَفِيِّ النَّفس - بدافع القنوط واليأس - بأنّ القلب قد أصابه الرَّين وما شاكله، ومن ثَمَّ الإمساك عن إصلاح النفس وتهذيب الطبع وتقويم العيب، ثمّ الإمساك عن دعوة الغير؛ فجميع ذلك مكفوفٌ عنه، وممنوعٌ منه، قال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (المائدة: ٩٩)، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ (الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦).

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق:

فرقة ارتكبت المحذور واحتالت على اصطياد السمك يوم السبت.

وفرقة نهت عن ذلك، وأنكرت واعتزلتهم.

وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمُنْكِرَة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾؟ أي: لِمَ تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هالكون ومستحقون للعقوبة من الله، فلا فائدة في نهيكم إيّاهم؟!

قالت لهم المُنْكِرَة: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي: نفعل ذلك فيما أُخِذَ علينا

من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ولعلّ بهذا الإنكار يتّقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب اللهُ عليهم ورحمهم.[1]

ثم يُقال لكلِّ قانطٍ وآيسٍ مِن نفسه أو مِن غيره، ولمن كثرت ذنوبه فأثقلت ظهره، حتى أقعدته عن إصلاح نفسه فضلًا عن طلب إصلاح غيره: إذا كان الواحد مِنَّا لا يَدرِي ما سَبَقَ به القلم مِن خواتيم العباد، فحريّ بنا جميعًا أنْ لا تفتر ألسنتنا عن الاستغفار والإقبال على الله ﷻ والتماس التوبة منه لأنفسنا ولجميع الخَلق مِن حولنا. وكذلك ينبغي أنْ لا نقعد عن إصلاح أنفسنا ومواصلة تهذيبها وتزكيتها، ودعوة غيرنا إلى الانتظام في سلك التائبين العابدين العاملين، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**».[2] وفي الحديث أيضًا: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**».[3]

وكذلك المؤمن: لا ييأس مِن بَذْر الخير في خاصّة نفسه وفي نفوس

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٤).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد (١٢٩٨١) والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بإسناد صحيح.

غيره، أمّا الحصاد وثمرة هذا البَذر فإنّه محض فضل ورزق من الله ﷻ.

يقول الإمام ابنُ حِبَّان البُسْتِيُّ: «لا يجب على العاقل إذا رُزق السُّلوك في ميدان طاعة من الطاعات، إذا رأى مَن قصر في سلوك قصده، أنْ يعبس عليه بعمله وجهه، بل يُظهر البِشْر والبشاشة له؛ **فلعلّه في سابق علم الله أنْ يرجع إلى صحّة الأوبة إلى قصده**، مع ما يجب عليه من الحمد لله، والشُّكر له، على ما وفّقه لخدمته، وحَرَم غيره مثله».[1]

نسأل الله أن ينير بصائرنا، وأن يطهر قلوبنا، وأن يكفينا شر ذنوبنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



(١) روضة العقلاء (ص٧٦).

٣/ أعمال القلب

٣/ ١ الإيمان.

٣/ ٢ الإخلاص.

٣/ ٣ الثقة بالله.

٣/ ٤ المحبّة.

٣/ ٥ الرَّجـاء.

٣/ ٦ الخوف من الله.

٣/ ٧ الحياء.

٣/ ٨ تعظيم حرمات الله.

٣/ ٩ الغيرة.

٣/ ١٠ اليقين.

٣/ ١١ التوكّل.

٣/ ١٢ اللجوء إلى الله.

٣/١ الإيمان

٣/ ١/ ١ الإيمان بالله.

٣/ ١/ ٢ الإيمان بالملائكة.

٣/ ١/ ٣ الإيمان بالكتب.

٣/ ١/ ٤ الإيمان بالرُّسل.

٣/ ١/ ٥ الإيمان باليوم الآخر.

٣/ ١/ ٦ الإيمان بالقدر.

٣/١/١ الإيمان بالله:

٣/ ١/ ١/ ١ حديث القرآن عن الإيمان.

٣/ ١/ ١/ ٢ الوجود الحق.

٣/ ١/ ١/ ٣ نداء الفطرة.

٣/ ١/ ١/ ٤ حكمة الشّريعة.

٣/ ١/ ١/ ٥ تمام الملك.

٣/ ١/ ١/ ٦ عِظَم التّدبير.

٣/ ١/ ١/ ٧ حقّ العبادة.

٣/ ١/ ١/ ٨ تعرّف إلى الله.

٣/ ١/ ١/ ٩ سبيل التزكية.

٣/١/١/١ حديث القرآن عن الإيمان

أوّلُ أعمال القلوب وأشرفُها وأزكاها، وهو الذي تُبتنى عليه بقيّةُ الأعمال الأخرى: «**عمل الإيمان بالله ﷻ**»، **وهو يتضمّن أربعة أمور:**

١- الإيمان بوجوده ﷻ.

٢- والإيمان بانفراده في الرّبوبية.

٣- والإيمان بانفراده في الأُلوهية.

٤- والإيمان بأسمائه وصفاته.

فالإيمان الحق هو الذي يتضمّن هذه الأربعة؛ فمَن لم يؤمن بوجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن آمن بوجوده ولكن جعل له شريكًا في تصريف أمر المخلوقات وإيجادها وإعدامها فليس بمؤمن، ومن آمن بانفراد الله بالرُّبوبيّة ولكنّه عبده وعبد معه غيره أو لم يعبده فليس بمؤمن، ومن آمن بوجود الله وانفراده بالرُّبوبيّة والأُلوهيّة، لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته؛ فليس بمؤمن. وإن كان هذا الأخير فيه تفصيل، فمنه: ما يُسلَبُ عن تاركه الإيمان بالكليّة، ومنه: ما يُسلب عنه كمال الإيمان.[١]

والمتأمِّل في القرآن الكريم يدرك أهمية هذا العمل في كتاب الله؛ وأنّه هو الذي عليه مدار الإسلام، وأنّه أكثر الأعمال ورودًا في كتاب الله ﷻ؛ **وذلك لأنّ القرآن الكريم:**

---

(١) انظر: شرح الواسطية للشيخ ابن عثيمين (١/ ٥٥).

إمّا حديثٌ مباشِر عن الله ﷻ؛ ذاتِه، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله - كما في آية الكرسيِّ وسورة الإخلاص -.

وإمّا دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وترك ما يُعبَد من دونه من آلهة باطلة. وهذا تقرير لما يستحقُّه الله من إخلاص العبادة له، ودعوةٌ للقيام بهذا الحق العظيم لله على عباده، ونهيٌ عن صرف ذلك لغيره.

وإمّا أمرٌ بطاعته، ونهيٌ عن معصيته ﷻ. وهذا مقتضى الإيمان الصّادق؛ ولذا كان العملُ بالطّاعة أحدَ أركان الإيمان.[1]

والقرآن - أيضًا -:

إخبارٌ عن كرامة الله لأهل الإيمان في الدُّنيا؛ بنصرهم وتأييدهم، وشرح صدورهم وتفريج كروبهم، وإدالتهم على عدوّهم، **وإخبارٌ عن كرامته لهم في الآخرة؛** بدخول جنّته، ونَيل كرامته، والنَّظر إلى وَجهه. وهذا وذاك حديث عن جزاء الإيمان به.

وإخبارٌ عن الكافرين وتقلُّبهم في الدُّنيا بين ذِلّة الكفر والمعصية، وما يعتري نفوسهم مِن حيرة وضِيق وضَنك، واضطراب وتصدُّع بالشُّكوك والأوهام، وتخبّط في ظلمات الجهل، **كما هو خبرٌ عمّا يلقونه يوم القيامة مِن**

---

(١) قال الشافعي: (كان الإجماع مِن الصّحابة والتّابعين مِن بعدهم ممّن أدركناهم: أنّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ ونيّةٌ، لا يُجزئ واحدٌ مِن الثّلاثة إلّا بالآخر). انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالَكائي (٥/ ٩٥٦)، الإيمان الكبير لشيخ الإسلام (ص١٦٦ = مجموع الفتاوى ٧/ ٢٠٩ و٣٠٨)، الإيمان الأوسط (ص٥٨ - ٥٩ = مجموع الفتاوى ٧/ ٥١١).

الكُربات والأهوال والأحوال العِظام التي من أعظمها حجبُهم عن رؤية ربّهم، وإلقاؤهم في نارجهنّم التي هي أعظم مِن نار الدُّنيا بتسعة وستين ضعفًا.[1]

وهذ اللون من الأخبار بيانٌ لجزاء من أعرض عن الإيمان بالله ﷻ.

والحاصل: أنّ القرآن كله -إذا تأمّلت- حديث عن الإيمان بالله، ومصداق ذلك أنّنا نجد أنّ ذِكر الله ﷻ قد تكرَّر في القرآن باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته: (١٠٠٦٢) مرّة، أي: أنّه يمرُّ ذِكرُه في الصّفحة الواحدة قرابة عشرين مرة في المتوسِّط.[2]

ومِن أجل هذا: أجاب ﷺ مَن سأله عن الإسلام بتقديم هذا الإيمان على كل الأعمال مطلقًا؛ سواء ما كان منها متعلِّقًا بالقلب، أو كان متعلِّقًا بالجوارح؛ فعن أبي هريرة ؓ قال: (سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قالَ: «**إيمانٌ باللهِ ورسُولِه**». قِيلَ: ثُمَّ ماذا؟ قالَ: «**الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ**». قِيلَ ثُمَّ ماذا؟ قالَ: «**حجٌّ مبرورٌ**»).[3] وعن أبي ذر ؓ قال: قلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، أيُّ الأعمالِ أَفْضَلُ؟ قالَ: «**الإيمانُ باللهِ، والجِهادُ في سبيلِ الله**». قلتُ: أيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قالَ: «**أَنْفَسُها عِنْدَ أهلِها وأكثرُها ثَمَنًا**». قلتُ: فإنْ لَمْ أفعلْ؟ قالَ: «**تُعِينُ صانعًا،**

---

(١) كما ثبت عند البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة ؓ.
(٢) انظر: العقيدة في الله للدكتور عمر الأشقر (ص٦٧).
(٣) رواه البخاري (٢٦، ١٥١٩)، ومسلم (٨٣).

أَوْ تصنعُ لِأَخْرَقَ». قلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، أرأيتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعضِ العَملِ؟ قالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ الناسِ؛ فإنَّها صدقةٌ مِنْكَ على نَفْسِكَ»[1]

وإنّما اكتسب الإيمانُ هذا التقديمَ لأمور؛ منها:

أوّلًا: أنّه أصل الأعمال ورأس شعب الإيمان، الدّاعي إليها، والمحرِّض عليها؛ فلا تتأتّى صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا عمل من أعمال البرّ، إلّا بإيمان يدفع الهِمَم الزكيّة إليها، والجوارح الطاهرة نحو تحقيق معانيها. بل إنّ ما يقع مِن غير المؤمنين مِن أعمال محمودة؛ مِن صدق، وبِرٍّ، ووفاء، وإحسان؛ ما هو إلّا أثر مِن آثار الفطرة التي جُبِلَت على حُبِّ الخير، أو ثمرة من ثمار النُّبوّات التي لولاها «لم يكن في العالَمِ عِلمٌ نافعٌ البتَّة، ولا عَمَلٌ صالح، ولا صلاحٌ في معيشة، ولا قِوامٌ لمملكة، ولكان الناسُ بمنزلة البهائم والسِّباع العادية والكلاب الضارية التي يعدو بعضها على بعض...؛ ولهذا كان كُلُّ مَوضعٍ ظهرت فيه آثارُ النُّبوَّة، أهلُه أحسنُ حالًا، وأصلحُ بالًا من الموضع الذي يخفى فيه آثارُها».[2]

والأمر الثّاني: أنّ الإيمان شرطٌ في صحّة تلك الأعمال، واستحقاقِ فاعلها لثواب أهل الإيمان؛ فلو فرضنا: أنّ رجلًا حجّ أو صام قبل أنْ

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) واللفظُ له.

(٢) مفتاح دار السعادة (ص ١١٥٥ - ١١٥٦).

يدخل في دين الإسلام بالشّهادتين، فلا يحصل له بسبب ذلك العمل ثوابٌ في الدُّنيا ولا في الآخرة. ومِن أجل هذا قُرِنَ العملُ الصّالحُ بالإيمان في القرآن كثيرًا، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ (الكهف: ١٠٧)، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ (مريم: ٩٦)، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (الفرقان: ٧٠).

والأمر الثّالث: أنّ الإيمان من الصِّفات المتعلِّقة بغيرها، والصّفاتُ المتعلِّقة تكتسبُ شرفَها بحسب مُتعلَّقِها، ومُتعلَّقُ الإيمان هو الله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر، فلا أشرفَ ولا أكرم ولا أعظم من هذا المتعلَّق.

وتحقيقًا لذلك: كانت الدّعوة إلى الإيمان أوّلَ ما يُدعَى إليه النّاس؛ كما في حديث ابن عبّاس: أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا بعثَ معاذًا إلى اليمن، قالَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ».[1] وفي روايةٍ: «فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ...». إلى آخر الحديث.[2]

---

(١) رواه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(٢) البخاري (١٤٩٦، ٤٣٤٧)، ومسلم (١٩).

كما أنّ الإيمان بالله ﷻ إلهًا واحِدًا مُستحقًّا للعبادة دون غيره، هو أصل الحقوق التي افترضها الله ﷻ على عباده، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ - وَكَانَ رَدِيفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ - أنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ». قُلْتُ: لاَ، قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ».[١]

ومن أجل هذا كان الإيمانُ سببَ النّجاة عند الله يوم القيامة وإنْ حصل من المكلَّف تقصيرٌ في بعض الأعمال؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل أنّه ﷺ قال: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ».[٢] وفي حديث عُبادةَ بن الصّامت رضي الله عنه مرفوعًا: «مَنْ قالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وأَنَّ عِيسَى عبدُ اللهِ وابنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وأَنَّ النَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ».[٣] وفي روايةٍ: «أدخلَهُ اللهُ الجَنَّةَ على ما كانَ مِنْ عَمَلٍ».[٤]

---

(١) رواه البخاري (٦٢٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٢) رواه مسلم (٢٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) والسياق له.

(٤) رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) واللفظ له. وللبخاري: «عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ».

والمقصودُ: أنّ الإيمان بالله ﷻ أصلٌ وسببٌ وشرطٌ في استحقاق دخول الجنّة، وأنّ الجنّة حرام على مَن مات كافرًا بالله ﷻ . ثم إنّ أهل الإيمان على درجات، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر: ٣٢). والقول الجامع أنّ «**الظالم لنفسه**» هو المفرِّط بترك مأمور أو فعل محظور دون الشِّرك. و«**المقتصد**»: القائم بأداء الواجبات وترك المحرّمات. و«**السّابق بالخيرات**»: بمنزلة المقرَّب الذي يتقرَّب إلى الله بالنّوافل بعد الفرائض حتى يحبّه الحق. والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه فإنّه مُعرَّضٌ للوعيد؛ إنْ شاء الله ﷻ عاقبه بما اقترف مِن معصية ثم يأمر به إلى الجنّة، وإنْ شاء عفا عنه وتفضّل عليه بدخول الجنّة على ما سلف مِن العمل دون سابقة عذاب. وجميع ذلك يدور وَفق قوانين العدل والحكمة ورحمة أرحم الراحمين.(١)

ثمّ إنّ إيمان العبد بالله ﷻ الإيمان الصحيح لا يستقلّ بنفسه باستحقاق دخول الجنّة، وإنّما هو سبب في الاستحقاق، وليس معاوضةً على العمل، وأمّا أمثال قوله تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٤)، ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٣٢)

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩/ ٣٧٣)، الإيمان لابن تيمية (ص١١)، مجموع الفتاوى (٧/ ١٠، ٥/ ١٦١).

فإنّ الباء في هاتين الآيتين ونحوهما باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره وإنْ لم يكن مُستقلًّا بحصوله؛ فإنّ العبد مهما بلغ من الإيمان ومهما حصّل من العبادة، فإنّه لا يستحق دخول الجنة بهذه الأسباب وحدها، وإنّما برحمة الله ﷻ، وفي ذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِه**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**».(١)

والباء التي نفت الدخول في هذا الحديث هي باء المعاوَضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلًا للآخَر. وهذا الحديث جمع بين استحقاق دخول الجنّة برحمة الله ﷻ أصلًا ثم بالعمل تبعًا؛ فقول النبي ﷺ: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا**» إشارة إلى أهميّة العمل، وقوله: «**إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**» إشارة إلى السبب الأصيل في حصول الاستحقاق بدخول الجنّة.(٢)

اللهمّ ألحقنا بالصّالحين في جنّتك بغير سابقة عذاب، ولا مناقشة حساب، برحمتك يا أرحم الرّاحمين؛ ويا أكرم الأكرمين.



---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦) واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢١٧)، حادي الأرواح (ص٨٧).

٢/١/١/٣ الوجود الحقّ

تقدّم أنّ أساس أعمال القلوب وأشرفها وأهمّها: الإيمان بالله.

وتقدم - أيضًا - أنّ ذلك الإيمان يتضمَّن الإيمان:

بوجوده، وانفراده بالرُّبوبيّة، والأُلوهيّة، والإيمان بأسمائه وصفاته.

وسنبدأ - بعون الله تعالى - في الأمر الأوّل الذي يتضمّنه ذلك الإيمان، وهو «**الإيمان بوجوده**»..

وهذا الأمر هو الأساس لما بعده من الإيمان بربوبيّته وألوهيّته وأسمائه وصفاته؛ ولهذا كثرت عليه الدّلائل الشّرعيّة؛ فقد دلّ عليه:

العقل، والحسّ، والشّرع، والفطرة..

ومن ثَمّ كان النّزاع من البشر في الإقرار به على مدار التاريخ قليلاً[1]، وكان المنكرون لوجود الله شُذّاذًا من النّاس، وهم في إنكارهم لوجود الله الحقّ:

مكابرون معاندون، أكثر من كونهم أقوامًا ساقتهم الحُجّة، ودفَعهم البرهان إلى ما يعتقدون.

---

(١) أحصى الأستاذ عبّاس محمود العقّاد في كتابه «عقائد المفكّرين في القرن العشرين» أساطين العلوم الكونية، فإذا تسعة أعشارهم مؤمنون - والعشر الباقي بين متردِّد وملحد -، ولكنه إيمان عام بوجود الله وعظمته، أمّا تحوُّل هذا الإيمان إلى صلاة وتسبيح وصيام واستغفار، فلا سبيل إليه إلّا بالوحي. انظر: الشيخ محمد الغزالي: الحقّ المرّ - الجزء الثالث، (ص٢٠٧)، المحاور الخمسة للقرآن الكريم (ص٢٥٨).

ولقد شهدنا تجربة تاريخيّة حديثة عندما تزعَّم الشيوعيون الحمر القول بإنكار الله، وفرضوا ذلك على النّاس بالحديد والنّار، فظنّ أقوام أنّ راية الإلحاد قد تمّت لها الغلبة في تلك البُلدان، ولكن الواقع كان بخلاف ذلك؛ فما إنْ سقطت هيبة البطش من أولئك الملاحدة حتى أعلن الناس عن أديانهم - من الإسلام والنصرانيّة واليهوديّة - التي كانوا يستخفُون بها خوفًا من البطش والنَّكال.

ولنذكر نُبذًا يسيرة من الأدلة على وجود الله ﷻ:

▪ فأمّا دليل العقل؛ فيكفي في إيضاحه قول الله ﷻ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥).

فقد تقرّر في العقول: أنّ الموجود المحدَث لا بدّ من سبب لوجوده؛ لأنّ العدم لا يوجِد شيئًا، والشيء لا يوجِد نفسه. هذا أمرٌ مقرّر في بدائه العقول، يتساوى في إدراكه راعي الإبل في صحرائه، وعالم الفيزياء أو الكيمياء في معمله، وعالم الأحياء - من النبات والإنسان والحيوان - في تأمُّله ومشاهداته.

ومن هنا اتفق العقلاء من البشر على القول بـ: «**قانون السببيّة**»، وهو أنّ كل شيء من الممكنات لا يَحدُث بنفسه من غير شيء؛ لأنّه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، فمن باب أَوْلَى أنّه لا يستقلّ بإحداث شيء، فكيف يستطيع أن يمنح غيره شيئًا لا يملكه هو. وبهذا الدليل كان علماء الإسلام يواجهون الجاحدين المنكرين..

حُكِيَ أنّ عالمًا من علماء الإسلام جادل جماعةً من الزّنادقة، فقال لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم: رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأثقال، قد احتوشتها في لُجّة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية، ليس لها ملّاح يجريها، ولا متعهّد يدفعها، ولا مدبّر يدبّر أمرها؛ هل يجوز في العقل؟

قال أولئك الزّنادقة: هذا شيء لا يقبله العقل.

فقال ذلك العالم: يا سبحان الله! إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير ملّاح ولا مُجْر ولا مدبّر، فكيف يجوز قيام هذه الدُّنيا، على اختلاف أحوالها، وتغيُّر أعمالها، وسَعة أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانع ولا حافظ؟!

فبكوا جميعًا، وقالوا: صدقت. وتابوا.[1]

لقد وجهت الآية الكريمة: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ النظر إلى أنّ كل إنسان إذا سئل عن خَلقه، فلا يخلو جوابه:

مِنْ أنْ يدَّعي أنّه خَلَقَ نفسه.

أو أنّه خُلِقَ مِن لا شيء.

أو أنّ هناك خالقًا خَلَقَه.

---

(١) انظر: مناقب أبي حنيفة للكردري (مطبوع مع مناقب أبي حنيفة للموفق المكي) (ص٢١٢)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص٣٥)، تهذيب الفروق (مطبوع مع الفروق للقَرَافي) (٣/ ٤١).

أما الدّعوى الأولى والثّانية؛ فلا يدّعيها عاقل يحترم عقله؛ لأنّه لو زعم أنّه: «خَلقَ نفسه»، لقيل له: إذا كنت أنت الخالق لنفسك؛ فأنت قادر متى شئت وكيف شئت على قبضها قبل الموعد المكتوب لها، أو مَدِّ أجلها إلى أيِّ موعد تشاؤه، أو دفْع كل مكروه عنها مِن مرض ونحوه يمكن أنْ يحلّ بها؟!

فإذا كان عاجزًا عن جميع ذلك - وهو لا محالة عاجز -، فكيف يدّعي أنّه خَلَقَ نفسه؟! ولذا احترم المشركون عقولهم؛ فلم يدّعوا مثل هذه الدعوى الفجّة.

وإذا سقط هذا الاحتمال؛ فلا يصح أنْ يقال: «**إنّهم خُلقوا من غير شيء**»؛ لأنّ «**قانون السببيّة**» ممّا فُطِرت عليه عقول البشر، وهو مِن العلم الضروري؛ فلا يصحّ أنْ يَحدث شيء بغير مُحِدث، ولا مخلوق بغير خالق[1].

وقد كان لهذا الدليل من النور والضياء ما بان أثره على قلب جُبَيْر بن مُطْعم - وهو حينئذ رجل مشرك -؛ حيث قال: **سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ في المغربِ بـ «الطُّور»، فلمّا بلغَ هذهِ الآيةَ:** ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الجواب الصحيح (٣/ ٢٠٢): (إنّ العلم بأنّ المُحْدَثَ لا بُدّ له مِن مُحْدِث، علم فِطريٌّ ضروريٌّ؛ ولهذا قال الله تعالى في القرآن: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (الطور: ٣٦).

خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ (الطور: ٣٥ - ٣٧). قال: «كادَ قلبي أنْ يَطِيرَ».[١]

وإنّما كان انفعاله عند سماع هذه الآية لحُسن تلقّيه معناها، ومعرفته بما تضمّنته من بليغ الحجّة؛ التي أدركها بلطيف طبعه، واستشفّ معناها بزكيِّ فهمه.[٢]

لكن مع هذه الحجّة النيّرة، والبرهان الواضح بالنسبة إلى خَلق الإنسان؛ فإنّ هناك فئامًا من البشر قد يدّعون خلاف العقل، ويزعمون أنّهم خَلقوا أنفسهم، وهنا جاءت الحجّة التّالية؛ لتقطع على المعاند عناده، وتُظهر عجزه ووهاء زعمه، فقال تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾(الطور: ٣٦).

فإنّه لا يوجَد أحد يدّعي أنّه خلق السّموات والأرض، بل إنّه لا يوجَد أحد يدّعي أنّه يعلم كثيرًا ممّا في السّموات والأرض ..

فهل يدّعي أنّه خَلق ما يجهل؟!

وأبدع ما لا يدري؟!

وأنشأ ما لا يعرف؟!

---

(١) صحيح البخاريُّ (٤٨٥٤).

(٢) انظر: أعلام الحديث للخطابي (ص١٩١٢)، وعنه: الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٢٧٠)، وفتح الباري (٨/ ٦٠٣).

▪ وأما دلالة الحسّ على وجود الله ..

فإنّ الإنسان تَضيق به المسالك، وتُظلم أمامه الطرق، فيدعو ربَّه قائلًا: «يا ربّ يا ربّ»؛ فيستجيب الله دعاءَه، ويحقّق له مرادَه .. وها هي قصّة واقعة يدخل فيها ذلك الأعرابيُّ مسجدَ رسول الله ﷺ، فيقول: (يا رسولَ اللهِ، هلكَ المالُ، وجاعَ العيالُ؛ فادْعُ اللهَ لنا أنْ يَسْقِيَنَا.

قالَ أنسٌ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يديْهِ وما في السَّماءِ قَزَعَةٌ.

قالَ: فثارَ السَّحابُ أمثالَ الجبالِ، ثُمَّ لَمْ ينزلْ عنْ مِنْبَرِهِ حتّى رأيتُ المطرَ يَتَحادَرُ علَى لِحيَتِه.

قالَ: فمُطِرْنَا يومَنا ذلكَ ومِنَ الغَدِ وبَعْدَ الغَدِ والذي يَلِيهِ إلَى الجُمُعَةِ الأُخْرَى. فقامَ ذلكَ الأعرابيُّ - أوْ رَجُلٌ غيرُه - فقالَ: يا رسولَ اللهِ، تهدَّمَ البناءُ، وغَرِقَ المالُ؛ فادْعُ اللهَ لنا، فَرَفعَ رسولُ اللهِ ﷺ يديْهِ، وقالَ: «اللهُمَّ حوالَيْنا ولا عليْنا».

قالَ: فما جعلَ يُشِيرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بيَدِه إلَى ناحيةٍ مِنَ السَّماءِ إلَّا انْفَرَجَتْ، حتَّى صارتِ المدينةُ في مِثْلِ الجَوْبَةِ حتّى سَالَ الوادِي - وادِي قَناةَ - شَهْرًا»).[1]

---

(١) صحيح البخاري (٩٣٣، ١٠٣٣)، ومسلم (٨٩٧).

وقوله: (وَمَا في السَّماءِ قَزَعَة): أي: قطعة من الغَيم، وقوله: (الجَوْبَة): هي الحُفرة المستديرة الواسعة. أي: حتّى صار الغَيمُ والسَّحابُ محيطًا بآفاق المدينة. انظر: نهاية ابن الأثير (١/ ٣١٠، ٣٥٣، ٤٦٤، ٤/ ٥٩، ١١٧)، مُعجم البُلدان (٤/ ٤٠١).

كم مِن مُضْطَرٍّ رَفَعَ يده إلى ربِّه، فرجع مسرورًا بقضاء حاجته، مُفَرَّجًا عنه.

وكم مِن مريض بسط إليه أكفّ الضّراعة، نافيًا عن نفسه الحول والقوّة ومثبتًا ذلك له سبحانه، فكشف عنه علَّته..

وكم مِن مدين ضاق بِدَينِه، فطرق باب الكريم، فيسّر له قضاءَه وأكرمه..

وكم في حياة البشر مِن ذلك قَصص وعِبَر، استمع إلى مثل قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣ - ٨٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الصافات: ٧٥ - ٧٦).

وقال تعالى عن نبيِّه لُوط إذْ نادَى: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٠ - ١٧٢).



٣/١/١/٣ نداء الفطرة

سبق أنّ أعظم أعمال القلوب: «الإيمان بالله»، وأنّ ذلك يشمل الإيمان بوجوده وربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته. وذكرنا طرفًا من الأدلّة على الأمر الأوّل، وهو «**الإيمان بوجوده** ﷻ».

وفي هذه المقالة نستكمل الحديث عن دليل آخر من أدلة وجود الحق ﷻ.

▪ ذلك الدّليل هو «دليل الفِطْرَة» ..

فإنّ الله ﷻ رَكَز في فِطَر بني آدم أجمعين الإقرار بوجوده ووحدانيّته، بحيث لو خُلِّيَ الإنسان بينه وفطرته، لَمَا تحوّل عن إقراره بربِّه، قال عَزَّ مِن قائل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠).

يقول تعالى: انصب وجهك، ووجِّهه إلى الدِّين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان؛ بأنْ تتوجّه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدِّين الظّاهرة؛ كالصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ ونحوها، وشرائعه الباطنة؛ كالمحبّة والخوف والرّجاء والإنابة. وخصّ الله إقامة الوجه؛ لأنّ إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتّب على الأمرين سعيُ البدن؛ ولهذا قال: ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي: مُقْبِلًا على الله في ذلك، مُعْرِضًا عمّا سواه. وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ووضع في عقولهم حسنها، واستقباح غيرها؛ فإنّ جميع أحكام الشرع الظّاهرة

والباطنة، قد وَضَعَ اللهُ في قلوب الخلْق كلّهم الميلَ إليها؛ فوضع في قلوبهم محبّة الحقّ وإيثاره، وهذا حقيقة الفطرة، ومَن خرج عن هذا الأصل؛ فلعارِض عَرَضَ لفطرته أفسدها، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما مِنْ مولودٍ يُولَدُ إلّا على الفِطْرةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ أو يُنَصِّرانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البهيمةُ جمعاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فيها مِن جدعاءَ»؟ ثمَّ يقولُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠).[1]

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: لا تُبدِّلوا خَلق الله، فتغيّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبرًا بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، وهو معنى حسن صحيح لا تأباه الآية.[2]

ففي حديث أبي هريرة ﷺ تقرير لحقيقتين:

أولاهما: أنّ النُّفوس البشريّة مجبولة على الإيمان بوجود الله ﷻ ووحدانيّته. ومعنى ذلك: أنه قد رُكِزَ في هذه النفوس من المعلومات الضروريّة التي يتساوون فيها ما يسوقهم إلى ذلك الإيمان، ولكنّه إيمان مجمل لا يَفِي بمعرفة حدود العبادة وكيفيّاتها ومقاديرها، ومن هنا جاءت الحاجة إلى الرسل والرسالات؛ لتتميم هذه المعارف الضروريّة في النّفوس البشريّة.

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨). وانظر: تفسير السعدي (ص٦٤٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣١٤).

والحقيقة الثّانية: أثر المحيط الاجتماعي في تغيير هذه الفطرة؛ فإنّ هذه الفطرة قد يطرأ عليها ما يفسدها من الأديان المحرّفة كاليهوديّة والنصرانيّة، أو الوثنيّات المفتراة كالمجوسيّة والبوذيّة ونحوها؛ فيتغطّى نور الحق الذي في الفطرة بظلمات هذه المعتقدات الفاسدة، فينقلب العبد من موحِّد بفطرته إلى مشرك بسبب تأثير المجتمع من حوله؛ ومن هنا كانت الحاجة إلى بَعث الرُّسل وإرسال الرِّسالات ماسّة لإزالة هذا التلبيس والتضليل الذي صنعه البشر؛ ليعود للفطرة نقاؤها وصفاؤها، وتعود إليها معرفتها وتمييزها.

وقد كان المصطفى - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه - يُذَكِّرُ أصحابه بهذه الفطرة، ويُرشدهم إلى كيفية التعامل بمقتضى هذه الحقيقة الربانية، فعن الأسود بن سَريع التميميِّ ﷺ قالَ: (أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وغزوتُ معهُ، فأصبتُ ظَهْرًا، فَقَتَلَ الناسُ يومئذٍ حتَّى قتلُوا الوِلْدَانَ - وقال مرَّةً: الذُّرِّيَّةَ -؛ فبلغَ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ، فقالَ: «**مابالُ أقوامٍ جَاوَزَهُمُ القتلُ اليومَ حتَّى قتلُوا الذُّرِّيَّةَ**»؟ فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما هُمْ أَوْلَادُ المُشركينَ؟ فقال: «**أَلَا إنَّ خِيارَكُم أبناءُ المُشركينَ**». ثمَّ قالَ: «**أَلَا، لا تقتلُوا ذُرِّيَّةً، أَلَا، لا تقتلُوا ذُرِّيَّةً**». وقالَ: «**كلُّ نَسَمَةٍ تُولَدُ على الفِطْرةِ حتَّى يُعْرِبَ عنها لسانُها، فأبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا وَيُنَصِّرَانِهَا**»[1].

---

(١) رواه أحمدُ (١٥٥٨٨و١٥٥٨٩)، والنسائيُّ في السنن الكبير (٨٥٦٢)، والحاكم (٢/ ١٢٣) وصححه على شرط الشيخين. قال ابنُ المدينيُّ في العلل (٦٣): (إسناده منقطع .. الحسن عندنا لم يسمع من الأسود). (وانظر: تهذيب التهذيب ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩). وللحديث شواهد، منها حديث ابن عمر عند البخاري (٣٠١٥) ومسلم (١٧٤٤) في

وكما أنَّ هذه الفطرة النقيّة السليمة التي يُولَد المرء عليها، صارَت مطمعًا وغرضًا لأولئك الذين انتكست فطرتهم وفسدت عقولهم وقلوبهم من بني آدم، فهي أيضًا غرض أصيل ومطلب عزيز يحرص الشيطان على ارتياده لإفساده بأي وسيلة تمكنه من ذلك، فقد ذكر الله ﷻ عن إبليس قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢، ٨٣).

وقد أُعطي الشّيطان حظًّا من الوسواس في النفوس، فيصدّها بتلك الوسوسة عن مقتضيات الحق، قال ﷺ: «**إنَّ الشيطانَ يَجْرِي مِنَ الإنسانِ مَجْرَى الدَّمِ**».(١)

وإنما يتقي المؤمن ضرره بالاستعاذة بالله ﷻ من شره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (سورة الناس).

وحدّث المصطفى ﷺ عن هذا الأثر للشّياطين في تدنيس هذه الفطرة بأبين عبارة، فقال ﷺ: «**ألَا إنَّ ربِّي أمرني أنْ أُعلِّمَكُمْ ما جهلتُمْ مِمَّا علَّمني يَوْمِي هذا:**(٢) **كلُّ مالٍ نَحلْتُهُ**(٣) **عَبْدًا حلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنفاءَ**

نهي النبي ﷺ عن قتل النساء والصبيان. وحديث أبي هريرة ﵁ عند البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) في أنّ كل مولود يُولَد على الفطرة.

(١) رواه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) في الكلام حذف، أي: قال اللهُ تعالى.. (شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٩٧).

(٣) أي: منحتُه وأعطيتُه.

كلَّهُم، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشياطينُ فاجتالتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عليهِمْ ما أَحْلَلْتُ لهمْ، وأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشرِكُوا بِي ما لمْ أُنَزِّلْ بهِ سُلْطانًا».[1]

وإن شئت أن ترى رصيد الفطرة في النفوس فتأمّل إجابات قوم محمد ﷺ، وهي إجابات لم يكتسبوها من رسالته ﷺ، فهم لم يؤمنوا به بعد، بل كانت تلك الإجابات من رصيد الفطرة السليمة التي بقيت لديهم، يقول تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٤ - ٨٩).

لكن هذه الحُجُب التي تكثّفت على الفطرة نتيجة للتأثير الاجتماعي الإنسانيّ أو التأثير الشيطانيّ، سَرعان ما تنقشع في المواقف الشديدة؛ إذْ تعود الفطرة إلى نقائها، فتلتجئ إلى الباري ﷻ تعلن توحيدها إقرارًا بوجوده، وتضرُّعًا إليه بعبادة الخوف والرجاء والدُّعاء والتوكُّل عليه، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حِمار المُجاشِعِيِّ رضي الله عنه.

إنّ إيماننا بهذه الحقيقة - حقيقة أنّ الله ملأ فطرة البشر بمحبّة التوحيد والقناعة به - **يثمر لنا ثمرات مباركة في تعاملنا مع البشر من حولنا؛ منها:**

أوّلًا: أنّه لا يأس من إيمان أحد من البشر واستقامته، وإنّما الشّأن: هل نحن قادرون على إزالة ما عَلِقَ بفطرته من الشّهوات والشُّبهات؛ لتؤدّي الفطرة دورها في الاستقامة، والأخذ من العمل الصالح؟!

وواقع الدّاخلين في دين الله ﷻ في كل يوم يصدّق هذه الحقيقة؛ فكثير من أولئك لم يحتاجوا إلى كثير من الجدل العقلي؛ بل إنّ كثيرًا منهم عوامٌّ لا يحسنون ذلك، وإنّما كُشِفَ لهم الحقّ الذي جاءت به رسالة محمّد ﷺ فقبلته قلوبهم لِما رَكَز فيها من محبّة هذا الحقّ والانجذاب إليه. فأكثر هؤلاء الدّاخلين إنّما يدخلون من بوّابة الوحدانيّة؛ ذلك بأنّ الله هو الخالق المصرِّف المدبِّر لأمر الكون، ربٌّ واحد لا شريك معه، ولا نِدَّ له.

ثانيًا: إدراك عِظَم شأن التأثير المجتمعيّ على هذه الفطرة ..

ومن هنا وجبت العناية المجتمعيّة - لا سيّما في المجتمعات الإسلاميّة - بضرورة اتّخاذ الأسباب التي يُرجَى من ورائها استقامة الفطرة، والحيلولة دون انحرافها وفسادها، وتأديب مَن يَعْرِض لها بذلك.

ولا ريب أنّ الجناية على الأديان أشدّ ضررًا وأعظم فسادًا عند الله مِن الجناية على الأموال التي لا يزال المجتمع يحافظ عليها ويحتاط لها بأشدّ أنواع الحفظ والحياطة والعناية والرقابة..

والالتزام بموجبات الفطرة فيه سعادة للمسلمين وغير المسلمين؛ ولذلك نجد أنّ كثيرًا مِن غيرَ المسلمين لا يزالون يتمسّكون بجملة من الفضائل والمحامد استجابةً لنداء أصل الفطرة الكائن في نفوسهم، حتى إذا ما انتُهكت بعض هذه الفضائل؛ تعالت الأصوات، وارتفعت النداءات، بوجوب الكف عن هذا العبث، والرجوع إلى مقتضيات الأدب ومحاسن الشِّيَم.[1]



(١) يراجع: د. عمر الأشقر: العقيدة في الله (ص ٦٩).

٣/١/١/٤ حكمة الشّريعة

سبق في المقالتين السّابقتين بيان أنّ أعظم أعمال القلوب وأشرفها: «الإيمان بالله»، وأنّ ذلك يتناول: الإيمان بوجوده، وبربوبيّته، وبألوهيّته، وبأسمائه وصفاته. وذكرنا الأدلّة على المعنى الأول، وهو «الإيمان بوجود الله»؛ فذكرنا «دليل العقل»، و«دليل الحسّ»، و«دليل الفطرة»..

- **وهناك دليل آخَر، وهو «دليل الشّرع» ..**

ولم نؤخّره لنقص في أهميّته، ولكن الكلام يساق أصلًا لحمْل من لا يؤمن بالله على الإيمان بوجوده .. على أنّنا سننحو هنا بالاستدلال بالدّليل الشرعيّ منحًى آخر غير الاستدلال التفصيليّ بالآيات والأحاديث، فنقول وبالله تعالى التوفيق والتسديد:

إنّ المتأمّل في شرائع الرّسالات، لا سيّما الشّريعة الخاتمة، يَجِد مِن انتظامها للمصالح، وتدبير أحوال الخلق على خير وجه، ما لا يتأتّى مجيئه على تلك الصفة إلّا من ربّ عليم حكيم خبير رحيم .. تأمّل -مثلًا- كيف أنّ هذه الشّرائع وازنت بين مصالح العباد في دنياهم وأخراهم؛ فلم تأذنْ لهم بالتّكالُب على الدُّنيا بكل سبيل بحيث لا يحول بينهم وبين مبتغاهم إلّا العجز عن إدراكه، ولم تُعلِّقهم كذلك بالآخرة وحدها وتُحرِّم عليهم مُتَع الدُّنيا وملذّاتها .. بل إنّ الله ﷻ خلق لهم هذه النِّعَم ليستمتعوا بها ويَتَقَوَّوْا

مِن خلالها على طاعته، وتربوا أجسامهم على ما خَلقه لهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: ٢٩).

وفي الحديث القُدْسيِّ يقول الله ﷻ: «**كلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ**».[1]

ولهذا مقت الله ﷻ مَن يُحرِّمون على عباد الله ما أحلّ الله لهم، ولو كانت دوافعهم خيِّرة، فقال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

وانظر إلى خطاب المنفعلين بهذه الحقيقة الشرعيّة حينما يتعاملون مع من بغى، وآثر الدنيا على الآخرة؛ إنهم لا يقابلون تطرّفه بتطرّف آخر، ولكنّهم يردُّونه إلى جادّة الصواب وقصد السبيل: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (القصص: ٧٦، ٧٧).

وكما جاء هذا التّوازن بين الدنيا والآخرة في حسّ المؤمن، كذلك جاءت الموازنة بين مطالب الجسد من الأكل والشّرب والنّوم والنّكاح وسائر المشتهيات، ومطالب الروح من التعبّد والانقطاع إلى الحق؛ ففي حديث عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها وعندها امرأةٌ، فقال: «**مَنْ هذه؟**».

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

قالتْ: هذه فلانةٌ - تَذكرُ مِنْ صلاتِها - قالَ: «**مَهْ، عليكُمْ بِما تُطِيقُونَ؛ فوالله، لا يَمَلُّ اللهُ حتَّى تَمَلُّوا**».(١)

وعن أنس رضي الله عنه قالَ: **دخلَ النبيُّ ﷺ المسجدَ، فإذا حبلٌ ممدودٌ بينَ السّاريتَيْن، فقالَ**: «**ما هذا الحبلُ؟!**». قالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقتْ بِهِ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ**».(٢)

وفي قصّة سلمان وأبي الدّرداء تطبيق لهذا التوازن الشرعيّ؛ فعن أبي جُحَيْفَة وهب بن عبد الله، قال: (آخَى النبيُّ ﷺ بينَ سلمانَ وأبي الدرداءِ، فزارَ سلمانُ أبا الدرداءِ، فرَأَى أُمَّ الدرداءِ مُتَبَذِّلَةً، فقالَ: مَا شأنُكِ؟! قالتْ: أَخُوكَ أبو الدرداءِ ليسَ لهُ حاجةٌ في الدنيا. فجاءَ أبو الدّرداءِ، فصنعَ لهُ طعامًا، فقالَ: كُلْ؛ فإنِّي صائمٌ. قالَ: ما أنا بآكِلٍ حتَّى تأكلَ؛ فأكلَ، فلمّا كانَ الليلُ ذهبَ أبو الدرداءِ يَقُومُ. فقالَ لهُ: نَمْ، فنام، ثمَّ ذهبَ يقومُ، فقالَ لهُ: نَمْ، فلمَّا كانَ مِنْ آخِرِ الليلِ، قالَ سلمانُ: قُم الآنَ. فصلَّيَا جميعًا. فقالَ لهُ سلمانُ: «**إنَّ لربِّكَ عليكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عليكَ حَقًّا، ولأهلِكَ عليكَ حَقًّا؛ فأَعْطِ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ**». فأتَى النبيَّ ﷺ، فذكرَ لهُ ذلكَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**صَدَقَ سلمانُ**»).(٣)

بجانب هذه الأحاديث المتضمِّنة معنى النهي عن المبالغة في التعبُّد

(١) رواه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).

(٢) رواه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

(٣) رواه البخاري (١٩٦٨، ٦١٣٩).

القاطع للعبد عن أمور دنياه وشهواته المباحة، نجد الحضّ على المسارعة في الخيرات والاستكثار من الحسنات، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨)، وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبة: ١١١). ويقول ﷺ: «**بادِرُوا بالأعمالِ سَبْعًا: هلْ تنظرُونَ إلَّا فَقْرًا مُنسِيًا، أو غِنًى مُطْغِيًا، أو مرضًا مُفْسِدًا، أو هَرَمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مُجْهِزًا، أو الدَّجَّالَ فَشرٌّ غَائبٍ يُنْتَظَرُ، أو الساعةَ فالساعةُ أَدْهَى وأَمَرُّ**».[1]

وتصف عائشة رضي الله عنها حال رسول الله ﷺ فتقول: (**كانَ يقومُ مِنَ الليلِ حتَّى تَتَفَطَّرَ قدمَاهُ، فقلتُ لهُ**: لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رسولَ الله، وقدْ غَفَرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأَخَّرَ؟! قالَ: «**أفلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا**»).[2]

هذا وفي تاريخ الإنسان أقوام خلعوا ربقة الدين من أعناقهم؛ وآخرون ابتدعوا من الآصار والأغلال التي أحاطوا بها أعناقهم ما لم

---

(١) رواه الترمذيُّ (٢٣٠٦) وقالَ: (حديثٌ حسنٌ غريب).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠). ويراجع: رياض الصالحين: باب في المبادرة إلى الخيرات، وباب الاقتصاد في العبادة.

يأذن به الله؛ فالأولون استهلكتهم الشهوات؛ فلا يرون لهم هدفًا ولا مقصدًا سوى تحصيلها، والعب منها، والتكالب عليها. أما الآخرون، فتحنثوا بمفارقة الدُّنيا والانخلاع منها، فانتهجوا مجافاة اللذات ومجانبة المشتهيات؛ كاعتزال النساء، ولبس الملابس الخشنة؛ تبتُّلًا إلى الله وإخباتًا له -بزعمهم-، كما يفعله رُهبان النّصارى والهنود الوثنيون السمانيون وطوائف من البوذية والصوفيّة.[1]

ولكن الدِّين الإسلامي يقيم هذا التوازن العجيب بين هذا وذاك؛ بين مراعاة الدّواعي الفطرية الغريزيّة، ومراعاة الدّواعي الروحية القلبيّة ..

أترى هذا الدِّين كائن على هذه الحالة مِن التوازن والاعتدال لو لم يكن من إله واحد عليم حكيم؟!

---

(١) في كثير من مؤلّفات علماء المسيحيين المتأخّرين ذمّ بدعة «الرهبنة»، وما كان لتأثيرها في النفوس والأخلاق من المفاسد والأضرار، وأيّد بعض الباحثين أنها عادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانيين؛ فإنّ لهم أنواعًا كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأمورًا أخرى مقرونة بخرافات، وأما بدعة العزوبة والتبتل، فنشأت مِن حضّ بولس عليها وترغيبهم فيها، مع أنّ الأكثرين من رسل المسيح كانوا ذوي نساء. ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الإنسان على استيفاء حقها ومن العدل أن تستوفيه؛ ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والقسوس والشمامسة لا بل الباباوات المدَّعين للعصمة، قد تكردسوا في هوّة الزنا؛ لعدم تحصّنهم بالزواج الشرعي. فالطريقة الرهبانية هي اختراع شيطاني قبيح، لم يكن له رسم في الكتب المقدسة ولا في أجيال الكنيسة الأولى. محاسن التأويل للقاسمي (٩/ ١٥٧ - ١٥٨) باختصار.

وانظر كذلك إلى التوازن الذي حققته الشريعة في النظرة إلى القِيَم العليا الإنسانيّة الفطريّة والتوازن بين الفرد والمجتمع ..

فأمّا التّوازن في النظرة إلى القِيَم العليا الإنسانيّة الفطريّة، فهو توازن مُحْكَم، لا يُفْرِط في إثقال هذه القيم بواجبات ليست عليها أو ليست بلازمة لها أصلًا، أو يُفَرِّط بإهدار وتضييع هذه القيم رأسًا .. ومِن هذه القِيَم الإنسانيّة العليا التي أَولاها الإسلام العناية العظمى وصانها الصيانة الكبرى: «**قيمة الحياة**»، وسلامتها من الاعتداء أو التجاوز أو الإفساد .. و«**قيمة الأمن**» لتعيش الأُمّة في سكينة وهدوء، آمنَة من التّرويع، مطمئنّة مِن التّفزيع .. و«**قيمة العقل**» وضرورة سلامته مِن كل ما يُفسده ويشوّش عليه ..و«**قيمة العِرض**» وضرورة حياطته من الخوض فيه أو التعرُّض له بغير حقّ.. و«**قيمة المال**» وضرورة صيانته والمحافظة عليه وأنْ يكون طيّبًا مكسبًا وتصرُّفًا ..

إلى آخر هذه القِيَم التي لا يقوم مجتمع إلّا بإعلائها والتوافق عليها وإمضائها.

و«**التوازن القِيَمي**» في ظل الإسلام توازن عجيب مُحكَم، تتجلَّى فيه حِكمة الخالق البارئ؛ مِن ذلك ما جعله الله ﷻ للنفس الإنسانيّة مِن استحقاقات وما رتّب عليها من واجبات؛ فإنْ هي استعملت الحقوق التي لها على الوجه المشروع ولم تتجاوز إلى الإضرار بحقوق الآخرين، وبذلت الواجب الذي عليها؛ فهي نفس مصونة كريمة، وأمّا إذا أخلّت فامتنعت عن بذل ما يستحقه

الآخرون عليها، أو تجاوزت بالنَّيْل مِن حقوق النّاس بالبغي والاعتداء عليهم، فهي بهذا قد جلبت على نفسها مِن أسباب العقاب ما يكون سببًا في رفْع الظُّلم ودفع الضَّيم الذي أوقعته بالآخرين؛ ففي تنزيل هذه العقوبات بمستحقّيها؛ سلامة المجتمع من أنْ تنتشر فيه أسباب الفساد، وقوة له مِن أن تتسرّب إليه أسباب الوهْن.

وللحفاظ على قيمة «حقّ النّفس في الحياة»، شَرَع الله ﷻ القصاص، عقوبة زاجرة ابتداءً من الولوغ في الدّماء بغير حقّ، ثم هي عقوبة جابرة للمقتصّ منه مُكفِّرة لذنبه[1] .. وقد أبان الله ﷻ عن ثمرة تشريع القصاص في كلمة موجزة بليغة، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٩) «أي: تنحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء؛ لأن مَن عَرف أنه مقتول إذا قَتِل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولًا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار، ما يدل على حكمة الحكيم الغفار».[2]

---

(١) روى البخاري (٦٧٨٤) عَنْ عُبَادَةَ بْن الصَّامت ﵁ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ في مَجْلس، فَقَالَ: «تُبَايعُوني عَلَى أَنْ لَا تُشْركُوا بالله شَيْئًا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَسْرقُوا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالْحَقِّ، فَمَنْ وَفَى منْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا منْ ذَلكَ فَعُوقبَ به فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ..».

(٢) تفسير السعدي (ص٨٥).

وهكذا تُضبَط تصرُّفات الأفراد وتُزجَر خفّتها وطيشها، ويُحدّ من جنوحها وانحرافها، وتنتظم مصالح الجماعة فيعمّ الأمن وتسود السكينة.

ومِن المحافظة على النفس: المحافظة على قوامها، وما تُحصِّل به مقاصدها وحاجاتها. وقد شُرِعَ لانتظام ذلك: القصاص في الأطراف. هذا وفي الجملة: قد خَيَّرَ الشارع المجني عليه فيما دون النفس أو أولياء المقتول بين طلب القصاص، أو قبول الدية، أو العفو مجاناً الذي هو في حقيقته عقوبة نفسية فيها معنى المنة على المعفو عنه.. وهذا التنوُّع في التشريع يُمَثِّل أنموذجًا بليغًا في مراعاة اختلاف أحوال النّاس وتباين طبائعهم وأخلاقهم؛ فمن هؤلاء من لا يشفي صدره إلا القصاص، ومنهم من يقوم العِوَض المالي والدّية الشرعية بحاجته وسدّ عوزه وفاقته، ومنهم مَن لا حاجة له في هذا ولا ذاك وإنّما هو مِن أهل العفو يرجو ثواب الله ﷻ ورضوانه في الآخرة.. وفي هذا التوازن بين تقدير درجة الجناية وتشريع العقوبات المتنوّعة الملائمة لمقتضى كل حال، ما يشهد بصدق الرسالة وإحكام الملّة.

ثم اعلم أن هذه الملة -ولله الحمد- ملة وسط ملتين؛ فقد ذكروا أن شريعة اليهود: وجوب القصاص وأنه لا طريق إلى العفو عن الجاني، وأن شريعة النصارى: وجوب العفو عن القصاص وأنه لا سبيل إلى القصاص، وجاءت هذه الشريعة المحمدية وسطاً بين الملتين؛ فجمعت

بين الحزم بوجوب القصاص والفضل بجواز العفو؛ فجاءت شريعة كاملة عادلة: ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (البقرة ١٧٨).[١]

ومِن ضروب «التوازن القيمي» في الشريعة: تلك النظرة المتوازنة إلى «المال» من حيث حق اكتسابه من حِلِّه، وواجب صونه من الاعتداء عليه. ومن ظلال هذه القيمة ما نقف عليه من تمييز الشارع الحكيم بين اليد الأمينة التي تعرق في طلب الحلال الطيب، ولم تَصُل على مال غيرها؛ فصانها وشرفها وكرمها، وشرع العقوبات الزاجرة والرادعة للحفاظ عليها من القصاص أو الدية المقدرة الثمينة أو العفو. بينما اليد الأخرى التي استشرفت المال من غير حِلِّه، وزاغت إلى أموال الناس واستطالت عليها بالسرقة؛ فتلك يدٌ أهانها الله ﷻ، وشرع في حقها الحدود التي لا يجوز الشفاعة فيها أو الإسقاط، فقطعها في ربع دينار وفي مثل المِجَنِّ والبيضة والحبل[٢]، وقد قيل في هذه المفارقة: إن هذه اليد لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت، ومما أنشد في ذلك:

فقيمة اليد نصف الألف من ذهب   فإن تعدت فلا تسوى بدينـــــار

---

(١) انظر الشرح الممتع للشيخ ابن عثيمين (١٤/ ٣٤- ٣٥، ٥٧). وراجع: تفسير الرازي (٥/ ٢٢١، ٢٢٥)، والخازن (١/ ١٠٦، ١٠٨).

(٢) روى البخاري (٦٧٨٣) -وهذا لفظه-، ومسلم (١٦٨٧) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده»، قال الأعمش: «كانوا يرون أنه بيض الحديد، والحبل كانوا يرون أنه منها ما يسوى الدرهم». وروى البخاري صحيح البخاري (٦٧٩٨) أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «قطع النبي ﷺ يد سارق في مجن ثمنه ثلاثة دراهم».

ومِن أجل العيش في ظل «**قيمة الأمن والسّلام الاجتماعي**»، شرع الله ﷻ عقوبة الحرابة؛ ردعًا لأولئك الذين يروّعون النّاس ويُفسدون عليهم معيشتهم وأمنهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (المائدة: ٣٣).

وبعد، **فهذه أمثلة قليلة يظهر فيها ذلك التوازن** بين حقوق الأفراد وحقوق الجماعة، وضبط مسار هذه الحقوق بتشريع العقوبات الرّادعة؛ وبهذا يكون للحياة طعم حينما تزول المخاوف من النفوس، ويحلّ مكانها الأمن والسّلام والطمأنينة، وصدق الله إذْ يقول عز من قائل سبحانه: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٩).

والمتأمِّل في ثمرات هذا التوازن في تعليمات هذه الشريعة، وفوضى احترام النفوس في غير مواطن احترامها؛ يدرك من جلال الشريعة ونورها ما يقوده إلى إجلال من شرعها وأوحى بها وهو الله ﷻ.

وثمّة وجه آخر يَستدل به مَن تأمّل فيه على وجود الحق ﷻ من خلال النظر في شريعته.. إنّه التوازن بين الفرد والمجتمع ..

فالفرد لا يستطيع أن يعيش دون مجتمع، وما المجتمع إلّا حصيلة التآلف بين أولئك الأفراد. ولقد راعت الشريعة آمال الفرد وتطلّعاته، وغذّت حوافز العمل لديه، حينما أطلقت له العِنَان ليحقّق تلك الآمال، ويحوز تلك التطلُّعات؛ ولكن ذلك محكوم بسياج المراعاة لذلك

المجتمع الذي يعيش فيه؛ لأنّه لو تأمّل -ذلك الفرد- بصدق؛ لأدرك أنّه لولا هذا المجتمع لَمَا تحقّقت له تلك الطموحات؛ فالمال - مثلًا - من طموحات الفرد، فهل يمكن أنْ يتحقّق له ذلك لو لم يكن في مجتمع يبيع له ويشتري منه، ويؤجّر له ويؤاجِره، ويَخدمه ويُخدَم من خلاله؟!

فإنْ كان المجتمع سبيل التحقيق لأهدافه؛ فلا يجوز أنْ يهدر حقّ المجتمع؛ فيظلم أو يحتكر، أو يستغلّ أو يخادع، أو يسلك نحو هذه المسالك الرديّة. ومن هنا جاءت ضوابط التعامل في المعاملات الشرعيّة حاكمة لهذا التطلُّع الفرديّ بما لا يضرّه، وحامية لمصالح المجتمع بما لا يُولّد فيه الكسل والأثرة، وحينئذ ينشط الأفراد في جو صحيّ؛ يكسبون فيه حقوقهم، ويؤدّون واجباتهم.

والخلاصة: أنّ التأمُّل في الشريعة عمومًا من أعظم الأدلة على وجود الخالق.

وهذا باب نافع لمن أحسن استثماره في تعريف النّاس بالرِّسالة الخاتمة، وإغرائهم بالدخول في رحابها.

جعلنا الله وإيّاكم هداة مهتدين.



٣/١/١/٥ تمام الملك

من أشرف أعمال القلوب: الإيمان بالله المتضمِّن الإقرار بوجوده، واعتقاد تفرُّده ﷻ بالرُّبوبيّة والألوهيّة، وصفات الكمال وأسماء الجلال.

وقد سبق الحديث مختصرًا عن الأمر الأول -أعني: الإقرار بوجوده ﷻ-.

وهذا أوان الشروع في بيان وجه آخر من توحيده ﷻ في ربوبيته:

وهو تفرُّده ﷻ بالملك، وتفرُّده بالخلق، وتفرُّده بالتدبير..

فهذا الكون الهائل، وتلك المخلوقات العجيبة؛ ملك للحق ﷻ لا يشاركه في ملكها أحد كائنًا من كان، قال عزّ من قائل: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٠٧)، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٨٩)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: ٤٠).

إلى غير ذلك من الآيات التي تقرّر ملكه ﷻ للكون كله؛ علويّه وسفليّه، سمواته وأرضه، وما فيهما من المخلوقات العجيبة التي لا يَعرف البشر منها إلّا أقلّ القليل.

وهذا الملك له وحده ﷻ لا يشركه فيه أحد من خلقه؛ ولذا جمع بينهما في مفتتح سورة «الفرقان»: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ

نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ١-٢).

وجمع بينهما في سورة «سبأ» في قوله عزّ من قائل: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ: ٢٢).

وفي سورتَي «فاطر» و«الأحقاف» يستنكر الله على المشركين ما ذهبوا إليه من عبادة سواه ممن هم في غاية العجز والذِّلّة؛ حيث لم يخلقوا شيئًا من الأرض أو السماء، أويشاركوا في خلقهما؛ فيقول الحق ﷻ في سورة «فاطر»: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (فاطر: ٤٠).

ويقول في سورة «الأحقاف»: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف: ٤).

وفي جانب آخر يُظهِر ﷻ بطلانَ شرك المشركين في صيغة التعجُّب؛ فينفي عن أحد سواه الملك والخلق، فيقول تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٩١، ١٩٢)، ويقول تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٤).

إنّ اليقين بهذه الحقيقة الشرعيّة يُولِّد في النّفس المؤمنة بها ألوانًا من العمل، وصنوفًا من الإخبات له ﷻ؛ ومن ذلك الإحساس بعظمة الخالق ﷻ؛ فإنّك تندهش غاية الاندهاش إذا نظرت إلى عظمة مخلوق واحد من هذه المخلوقات، فكيف بعامّة المخلوقات؟!

كم يتجذَّر في نفسك هذا المعنى الإيمانيّ، وأنت تَشهد عظمة هذه الجبال الراسية؛ في قوّتها، وشموخها، ورسوخها؟!

وكم تمتلئ نفسك بهذا المعنى الإيمانيّ، وأنت ترى البحر الخضم في سعته وعمقه، وما فيه من ملايين المخلوقات، وأسراره العجيبة التي لا يعرف البشر إلّا أقلّ القليل منها؟!

وكم تتغذّى نفسك بهذا الإحساس بعظمة الخالق، وأنت تجول بطرفك في هذه الأرض التي مُلئت بالكنوز، ودُحيت بالأرزاق، وذُلّلت للانتقال في جنباتها، والتقلّب في أرجائها؛ من وسطها تنبع المياه، ومن جوفها يخرج النّبات، وفي أحشائها تترعرع الأشجار التي تولّد الثمار التي تقوم بها الحياة، ويتفكّه بها الناس؟!

إذا دهشت من صنوف العظمة في هذه المخلوقات، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها الذي لا يبلغ وصفه الواصفون؟!

وثمَّة معنى آخر تستوحيه وأنت تستيقن هذه الحقيقة..

حقيقة تفرّده ﷻ بالملك والخلق؛ حيث تدرك رحمة الخالق ﷻ بخلقه؛

حيث أذن لهذا الخلق بالتصرّف في هذا الملك الخالص له؛ فأباح لهم الثمار، وأذن لهم في الارتزاق؛ بل إنّه ﷻ علّل خلْقه لهذه المخلوقات في مواضع من كتابه بأنّه خلَقها لأجل الإنسان: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ (عبس: ٢٤-٣٢)، ويقول أيضًا: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات: ٢٧ - ٣٣).

إنّ هذه الآيات الكريمات لا تشير إلى معنى الإذن فقط، بل تتجاوز ذلك إلى معنى الحضّ على الانتفاع بها؛ حيث إنّ الله ﷻ جعل هذه المخلوقات على صورة يتمكّن الإنسان من الانتفاع بها؛ ولذا جاء التعبير عن هذا المعنى بلفظ التسخير أو معناه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٤).

وإذا شئت أنْ تشبع من هذه الحقيقة، وتدرك هذه الرحمة الإلهيّة من ربك ﷻ، فاقرأ بتأمُّل الربع الأول من سورة «النحل» من الآية (٣) إلى الآية (١٨): ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ

مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فانظر إلى هذا التسخير لهذه المخلوقات جميعًا لأجل مصلحة الإنسان، وذلك شيء من مقتضى ربوبيته ﷻ.



٦/١/١/٣ عِظَم التّدبير

من أعمال القلوب: «**الإيمان بربوبيّة الله ﷻ**»؛ هذه الربوبية التي تعني: الملك والخلق لهذا الوجود، وقد مرّ الكلام بما تيسّر عن شيء قليل من ذلك، لكن هناك معنًى آخر من معاني ربوبيته ﷻ..

وهو تدبير هذا العالَم، والقيام عليه بما تقتضيه حكمته ﷻ..

فإنّه ﷻ لم يخلق الخلْق ثم تركه، ولكنّه لا يزال - ولنْ يزال - مُدبِّرًا لأمر هذا الخلق؛ إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتةً، إلى غير ذلك مما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ (الرحمن: ٢٩).

«يُغني فقيرًا، ويَجبر كسيرًا، ويُعطي قومًا ويَمنع آخرين، ويُميت ويحيي، ويَخفض ويَرفع، لا يَشغله شأن عن شأن، ولا تُغْلِطه المسائل، ولا يُبرِمْه إلحاح الملحّين، ولا طول مسألة السّائلين، فسبحان الكريم الوهّاب الذي عمّت مواهبه أهل الأرض والسّموات، وعمّ لطفه جميع الخلق في كل الآناء واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين بكرمه. وهذه الشؤون التي أخبر أنه كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدّرها في الأزل وقضاها، ولا يزال - تعالى - يُمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامه الدينيّة التي هي الأمر والنهي، والقدريّة التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدّار، حتى إذا تمّت هذه الخليقة، وأفناهم الله تعالى، وأراد أنْ يُنفِذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله

وفضله وكثرة إحسانه ما به يعرفونه ويوحّدونه، نَقَلَ المكلّفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان»[1]

ومن تدبيره ﷻ: رزق عباده مؤمنهم وكافرهم؛ فذاك مقتضى ربوبيته؛ ولهذا لم يُقرّ إبراهيم عليه السلام على دعائه بقَصر الرزق على المؤمنين، قال تعالى في «سورة إبراهيم»: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (البقرة: ١٢٦). هكذا أراد إبراهيم عليه السلام ألّا يُرزق إلّا المؤمن، ولكنّ الله ربّ العباد جميعًا، فقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ١٢٦).

إنّ الرِّزق عامّ بين العباد، وإنّما يتفاوتون في المآل؛ حيث يستعين المؤمن برزق ربِّه على طاعته، فيسعد برضوان الله في الدنيا والآخرة، ويستعين به الكافر على معصيته، فيشقى بسخط الله في الدنيا والآخرة ..

وفي «سورة الإسراء» يذكر الله هذه الحقيقة بشيء من البسط، فيقول ﷻ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ١٨- ٢١).

---

(١) تفسير السعدي (ص٨٣٠).

وبمقتضى ربوبيّته ﷻ تكفّل برزق سائر الكائنات من غير بني الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ (هود: ٦).

وهذا الرِّزق شامل لكل هذه المخلوقات الحيّة، حتى ضعاف الحيوانات التي لا تجد الطاقة على الارتزاق: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: ٦٠).

وهكذا تكفَّل الله ﷻ بأرزاق الخلائق كلهم، قويهم وعاجزهم، حتى تلك الدّواب التي لا تستطيع لوهن قوّتها وضعف عقلها أنْ تدَّخِر غذاءها لغدٍ، فإنَّ الله ﷻ يُوفِّقها لرزقها ويُسخِّر لها قُوْتَها وغذاءها كل يوم وكل وقت بوقته.[1]

وقد ذكروا في رزق الحيوانات الضِّعاف عجبًا من القصص، ومن ذلك ما ذكروه مِن أنّ الغراب إذا فقس عن فرخه خرجت بِيْضًا، فإذا رآها كذلك نفر عنها؛ فتفتح أفواهها، ويرسل الله لها ذبابًا، فيدخل في أجوافها ما تحيا به، فيكون ذلك غذاءها حتى تَسْودّ، فإذا اسودّت، عاد الغراب فغذّاها، ويرفع الله ﷻ الذُّباب عنها.[2]

وأنشد في هذا بعضهم:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤٣٨)، والسعدي (ص٦٣٥).

(٢) انظر: المجالسة للدِّيْنَوَرِيِّ (٤/ ١٩٩)، وعنه: الدَّمِيرِيُّ في حياة الحيوان (٢/ ٤٨٢).

يا رازقَ النَّعّابِ[1] في عُشِّهِ وجَابرَ العَظْمِ الكَسِيرِ المَهِيضِ

إنّ الإيمان الحقّ بهذا المعنى من توحيد الربوبيّة، يوجّه القلب إلى التعلّق بالله والتوكّل عليه، وعدم الوقوف عند الأسباب والتعلّق بها؛ فإن الله مُسبِّب الأسباب، وقد يُجري الله ﷻ الأمر بأسباب أخرى لا يُدركها العبد؛ ومن هنا قال ﷺ لعبد الله بن عباس مُوصيًا: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ...»[2].

وتأمّل في قصّة موسى عليه السلام وفِرعون؛ كيف حَفِظَ اللهُ موسى عليه السلام وأصحابه حين لم يظهر في التقدير البشريّ سبب للنجاة، فلم يَتخلّ عنهم أحوج ما يكونون إليه: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٦٠-٦٨).

ومِن أجل أنّ هذه الربوبيّة تعني التدبير الدّائم لأمر هذا الخلْق، كثر

---

(١) يعني: فَرخ الغراب.

(٢) رواهُ الترمذيُّ (٢٥١٦)، وقال: (حديثٌ حسنٌ صحيحٌ).

النِّداء باسم «الربّ» في آيات كثيرة في دعاء الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين الذين يتذكّرون دومًا أنّ الخلق والتصريف والتدبير بيد الحق ﷻ؛ استمع إلى قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة: ١٢٧- ١٢٩).

وإلى قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (المؤمنون: ٢٦)، وقوله أيضًا: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦)، وقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (نوح: ٢٨). وقول سُليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (ص: ٣٥)، وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (القصص: ١٦)، وقوله أيضًا: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص: ١٧)، وقوله لمّا خرج من قريته خائفًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٢١)، ولمّا ورد ماء مَدْيَنَ وساعد ابنتي الشَّيخ الكبير، ثم تولّى إلى الظِّلّ، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤).

والدُّعاء بالرُّبوبيّة هو -أيضًا- شأن عباد الله الصّالحين من أتباع

المرسلين .. فذكَر الله من دعاء عباده - الذين شرّفهم بنعتهم «عباد الرحمن» - أنّهم يدْعونه باسم الرّبّ ووصْف الرُّبوبية، كما في آخر سورة «الفرقان»: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ (الفرقان : ٦٥)، ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)، وفي آخر سورة «آل عمران» في دعاء أُولِي الألباب أصحاب القلوب الحيّة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ..﴾ الآيات (١٩١ - ١٩٤).



٧/١/١/٣ حقُّ العبادة

سبق أنَّ أشرف أعمال القلوب وأجلّها: «**الإيمان بالله**»، وأنّ ذلك يتضمّن الإيمان بوجوده، وبربوبيّته، وبألوهيّته، وبأسمائه وصفاته. وقد سبق الحديث عن المعنيين الأوّلَين: «**الإيمان بوجوده**»، و«**الإيمان بربوبيّته**»..

- وسيكون حديثنا في هذه المقالة عن الأمر الثالث، وهو:«**الإيمان بألوهيّته**» ..

ويتضمّن: الإقرار بأنّ الله هو المستحق للعبادة وحده، والتوجُّه إليه ﷻ بكل العبادات القلبيّة، وعبادات الجوارح القوليّة والبدنيّة.

ويُسمَّى هذا التوحيد بـ «**التوحيد العملي**»؛ لأنّ متعلّقه الأعمال كلها.

ويسمَّى -أيضًا- بـ: «**التوحيد القصدي الإرادي**»؛ لأنّه يتعلّق بإخلاص القصد والإرادة لله وحده في كل عمل عباديّ يفعله المكلّف: سواء كان ذلك من أعمال القلوب؛ كالخوف والرّجاء، والرّغبة والرّهبة، والخشوع والخشية، والحب والإنابة، والتوكّل والخضوع. أو كان ذلك من أعمال اللسان؛ كالنُّطق بالشّهادتين، والاستعاذة، والدُّعاء، والتسبيح، والتّحميد، والتّمجيد، وتلاوة القرآن. أو كان ذلك أعمال بقيّة البدن؛ كالصّلاة، والصّوم، والحجّ، والنَّذر، والذَّبح، ونحو ذلك. أو كان ذلك من الأعمال الماليّة؛ كالزّكاة، والصّدقات، والكفّارات، والأضحية، ونحو ذلك.

إنّ توحيد الرُّبوبيّة والأسماء والصفات لا يؤتِي ثمرته، ولا يكون مُنجيًا عند الله، إلّا إذا أثمر إخلاص التوجُّه إلى الله، وتوحيد القصد إليه، وترك عبادة أحد سواه؛ ولذا كان من التناقض البيّن حال المشركين الذين كانوا يؤمنون بربوبيّة الله ثم يعبدون غيره مِمَّن خلق؛ ومن هنا ألزمهم الله ﷻ الحجّة بإقرارهم بربوبيّته، ثم إعراضهم عن عبادته، قال تعالى في «سورة النمل»:

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (النمل: ٥٩ – ٦٤).

فهذه الآيات مُصدَّرة بالاستفهام، ومختومة بالاستفهام؛ والاستفهام في أوّلها تذكير بما هو متقرّر عند المشركين من تفرُّد الله بما يُذكَر بعد ذلك الاستفهام. والاستفهام في آخرها استنكار لذلك المسلك الشركيّ الشّائن مِن العدول عن عبادة الله وحده، إلى التوجُّه بالعبادة إلى الآلهة الباطلة.

والمتأمِّل في هذه الآيات يجد هذا الحوار الماتع الذي يأخذ بجنبات النّفس الإنسانية ليقودها إلى الحق والهدى.. من ذا الذي خلق هذه السّموات وتلك الأرض العظيمة في خلقها، الواسعة في أرجائها، الكثيرة في خيراتها؟!

ومن ذا الذي أنزل مِن السّماء ماء، فأنبت به الحدائق الغَنّاء، التي كما تربي الجسد بنباتها، فهي تبهج النفس بحسنها وجمالها؟!

أفي قدرة مخلوق أنْ ينبت مثل هذه الأشجار؟! لا والله ما يستطيع مخلوق أنْ ينبت شجرة واحدة، فكيف بها جميعًا؟!

ثم مَن الذي جعل الأرض على صفة يستقر عليها العباد؛ فيبنون مساكنهم، ويزرعون حروثهم، ويطوونها ذهابًا ومجيئًا، ثم شَقّ فيها الأنهار التي ينتفع بها العباد في شربهم ورعي أنعامهم وسقي زروعهم، وجعل على الأرض هذه الجبال الرواسي التي تحفظها من الميلان والاضطراب، وجعل مجاري الأنهار بعيدة عن البحار فلا يختلط العذب الفرات بالملح الأجاج فيفوت الانتفاع؟!

أيستطيع أن يفعل هذا أحد غير الله؟! لا والله، أفيجوز حينئذ أنْ يُعبَد أحد سواه؟! إنه الجهل العظيم والغباء المتناهي وإنْ زعم صاحبه كمال العلم ووفرة العقل؛ ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٦١).

ثم انظر إلى حالة الكرب والضّنك التي تعتري الخلق؛ مَن الذي يكشفها، ويمحو آثارها، أو يُخفّف مِن وطأتها؟! وأنتم أيها المشركون إذا مسّكم الضُّرّ التجأتم إلى الله، ودعوتموه بكل صدق وإخلاص، أفيستحق أحد سواه أنْ يُعبد؟! لا والله، ولكنها الغفلة، وقلّة التدبُّر تقود إلى مثل هذه المسالك: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٣).

ثم أنتم تمتطون البراري والبحار، فيدلهمّ عليكم الظّلام، وتحيط بكم الحنَادِس.. مَن الذي هيّأ لكم العلامات من القمر والكواكب التي بها تستدلّون؟! إنه الله..

ومَن الذي يرسل تلك الرياح المبشّرات بالخير لما تحمله من سبب الحياة بما تسوقه من السُّحب المحمّلة بالماء؟! إنَّه الله .. أفيصح أنْ يُعبد سواه؟!

إنّه الانتقاص لمقام الله، والإعراض عن موجب الوفاء بعبوديّته ..

فسبحان مَن تقدّس وتعاظم عن فعل الجاحدين: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٦٣).

ثم انظر إلى هذا الخلق بكل أصنافه وأجناسه؛ من الذي بدأه أوّل مرة؟! ومن الذي سيعيده؟! ومن ذا الذي بسط الأرزاق في السماء والأرض؟! إنّه الله ..

كل هذه حجج تُبطل شرك المشركين؛ فإنْ كان لديهم حجّة تسوّل لهم

ما يقترفون من الشرك، فليُظهروها؛ ولذا ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).[١]

جاء في الأثر الإلهيّ: «إِنِّي وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ؛ أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ غَيْرِي».[٢]

فمِن الظُّلم البيّن والشّرك الجليّ العدول عن عبادة الله الخالق إلى عبادة المخلوق ..



(١) يراجع: تفسير السعدي (ص٦٢).

(٢) روا الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٩٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣١٠). وإسناده منقطع.

٨/١/١/٣ نتعرَّف إلى الله

أشرف أعمال القلوب «**الإيمان بالله**»، بجانبيه: العَمليّ، والعِلميّ..

وقد تقدّم الحديث عن **الجانب العمليّ** المعبَّر عنه بـ: «**توحيد الأُلوهيّة**»، أو «**توحيد القصد والعمل**». وسنتناول الجانب الآخر، وهو **الجانب العِلميّ**..

إنّ النفوس البشريّة مفطورة على محبّة البحث عن باريها وخالقها ومحاولة معرفته؛ ولذا ذهب بعض الباحثين عن الله إلى صفحة هذا الكون يلتمسون فيها التعرُّف إلى خالقهم، وهَداهم هذا النظر في الكون المحكَم البديع الواسع الأرجاء الهائل الخلق، إلى أنّ خالقه: حكيم عليم قادر.

لكن هذا العلم الذي حصّله أولئك النّاظرون، علم محدود قاصر، لا يُطفئ ظمأ الإنسان ولا يروي غليله.

بل إنّ مقدار هذا المحدود الذي عرفه، والقاصر الذي وقف عليه، يجادله فيه النّاس حتى يكون مجال أخذ وردّ.

ولذا كان من رحمة الله هذا الفيض الغزير من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة في الحديث عن الله، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله، استمع إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ... ﴾ (الحشر: ٢٢-٢٣).

واستمع إلى آيات الحديث عن فعله ﷻ في مثل قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠-٣٣).

وعندما تجاهل فرعون - استكبارًا وعنادًا - وجود الخالق ﷻ، أفاض موسى ﷺ في التعريف بربّه؛ لعلمه أنه كلما زادت معرفة العبد به، زاد يقينه وقويت محبّته وعظمت رغبته: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٣-٢٨).

ليت شعري! أيّهما أحق بوصف الجنون؟!

أهذا الذي امتلأ قلبه معرفة بربِّه، واستحضارًا لعظمته، وتأمُّلًا في فعله؛ فرأى مِن دلائل ربوبيّته في خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات، ورأى مِن آثار أسمائه وصفاته في بديع صنع الكون وإحكامه؟!

أم هذا الجاحد الذي تعالى على كل ذلك؛ فأغلق سمعه وبصره وعقله، ومِن ثَمَّ تحيَّر في حُجَّته، وأعيا عليه بيانُه؛ فانتقل من حوار الفكر، إلى سياط الجلّادين، وجفاء السجّانين: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٩) ؟!

ولذا اهتم علماء الإسلام قديمًا وحديثًا بجمع ما وردت به النصوص الشرعية من أسماء الله وصفاته، وألِّفت في ذلك المؤلّفات المتعدِّدة بين مُطوَّل ومُختصَر؛ من مثل ما جمعه: الإمام جعفر الصّادق، وأبو سليمان الخطّابي، وابن القيِّم، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي، وغيرهم من أهل العلم إلى وقتنا هذا.[1]

ولقد ورد وصف الله ﷻ بأنّ «**له الأسماء الحسنى**» في أربع آيات من الكتاب الكريم: قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٠)، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (الإسراء: ١١٠)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (طه: ٨)،

---

(١) انظر: معتقد أهل السُّنّة والجماعة في أسماء الله الحسنى (ص١٣١ -وما بعدها).

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الحشر: ٢٤).

فأسماء الله كلها حسنى، أي: بالغة الكمال الأعظم في الحُسن؛ فهي حُسنى لدلالتها على أحسن وأعظم وأجلّ وأقدس مُسمًّى وهو الله ﷻ.

وهي حُسنى لأنّها دالّة على صفات الكمال العظيمة التي يتّصف بها الباري ﷻ؛ فاسمه «العليم» -مثلًا- دالٌّ على أنّ له علمًا محيطًا عامًّا بجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة: ٦-٧).

واسمه «الرحيم»: دالٌّ على أنّ له رحمة عظيمة وسعت كل شيء.

واسمه: «القدير»: دالٌّ على أنّ له قدرة عامة لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السّماء.(١)

وكما يكون الحُسن في أسمائه تعالى باعتبار كل اسم على انفراده، فكذلك يكون باعتبار جمعه إلى غيره؛ كـ: «الغنيّ الحميد»، و«العفوّ القدير»، و«الحميد المجيد».. وهكذا عامّة الصّفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن؛ فإنّ

(١) انظر: تفسير السعدي (ص٣٠٩).

«الغِنَى» صفة كمال، و«الحمد» كذلك. واجتماع «الغِنَى» مع «الحمد» كمال آخر؛ فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك: «العَفُوّ القدير»، والحميد المجيد»، و«العزيز الحكيم».

والتأمُّل في هذا المعنى من أشرف المعارف، وأزكاها وألطفها.[1]



(١) انظر: بدائع الفوائد (١/ ٢٨٣).

٣/١/١/٩ سبيل التزكية

إذا كان العلم بأسماء الله وصفاته مِن أشرف العلوم؛ لتعلُّقه بأجلّ وأعظم وأقدس مسمًّى وهو «الله»؛ فإنّ العلم بها - أيضًا - هو سبيل التزكية للنفس البشريّة، وتطهيرها من أدران المعصية والغفلة؛ وذلك لأنّ القرآن العظيم كلّه حديث عن الله - تبارك وتعالى - وصفاته وأفعاله في كونه، والدّعوة إلى الاستجابة لشرعه، والابتعاد عن الأسباب المفضية إلى انتقامه وغضبه.

إنَّ النفوس المؤمنة قد تهفُو إلى المعصية، ويستزلّها الذَّنب فينبو بها عن جواد الطّاعة، ولكنها حينما تتذكّر أنّ الله يراها على تلك الحال؛ تستحي منه، وتنكفّ عن مخالفته؛ وأمّا النفوس المحادّة لله فإنّها لا تعبأ برؤية الله ومراقبته: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ (العلق: ٩ - ١٤).

والعبد مهما بلغت منزلته، وعلت درجته؛ تنتابه الغفلة، ويدركه السهو، فيقع في الذّنب؛ إلّا أنّ لهذا العبد في رحمة الله ﷻ ملاذًا يحثّه على التوبة، وملجأً يُراجع فيه نفسه، ويلتقط فيه أنفاسه، حتى ينفذ ببصيرة التّائب إلى حقيقة ما قدّم وأخّر، فيغسل بماء النّدم أوضار الخطيئة، ويعلم أنّ له ربًّا رحيمًا يقبل التوبة من عباده، وأنّ رحمته ﷻ: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

ومِن رحمته ﷻ بخَلقه: ما أرسله من الرسل، وما أنزله من الكتب، كما قال تعالى في وصف نبيّه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقال أيضًا: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ (التوبة: ٦١). وقال تعالى عن كتابه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٥٢)، وقال أيضًا: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧).

وإذا كانت الكتب التي جاء بها المرسلون من رحمة الله، فحريّ بالعبد أنْ يتشبّث بها تصديقًا بها، واتّباعًا لما جاء فيها من الأوامر والنّواهي؛ لتدركه رحمة الله.

وقد تحدّث الإمام ابن القيِّم حديثًا طويلًا عن الآثار الإيمانيّة المعرفيّة والسُّلوكيّة لمعرفة أسماء الله وصفاته، وكان ممّا قرّره - أنّ «**القرآن كلام الله، وقد تجلَّى الله فيه لعباده بصفاته:**

فتارة: يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال؛ فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة: يتجلَّى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله، ونعوت كماله، فيصبح فؤاد العبد فارغًا إلّا من محبته، فإذا أراد منه الغير أنْ يعلّق تلك المحبة به أَبَى قلبه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يُرادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيانُكُم وتأبَى الطِّباعُ على النَّاقِلِ

فتبقى المحبة طبعًا لا تكلُّفًا.

وإذا تجلَّى بصفات الرَّحمة والبِرِّ، واللُّطف والإحسان، انبعثت قوةُ الرَّجاء من العبد، وانبسط أملُه، وقوي طمعُه، وسار إلى ربِّهِ، وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جد في العمل؛ كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

وإذا تجلَّى بصفات العدل والانتقام، والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلَّى بصفات الأمر والنهي، والعهد والوصية، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلَّى بصفات السمع والبصر والعلم، انبعثت من العبد قوة الحياء؛ فيستحيي ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلَّى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم؛ انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضى به، وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه..

وإذا تجلَّى بصفات العزّ والكبرياء، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه، وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وتوقه وحدته.

وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرَّف إلى العبد بصفات إلهيّته تارة، وبصفات ربوبيّته تارة؛ فيوجب له شهود صفات الإلهية: المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأُنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير - هو وحده - همه دونما سواه.

ويوجب له شهود صفات الربوبية: التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع، والانكسار له.

وكمال ذلك: أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه..

وأنت إذا تدبرت القرآن، وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين، وأفكار المتكلِّفين؛ أَشْهَدَكَ: مَلِكًا قيُّومًا فوق سمواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يَأمر ويَنهى، ويُرسِل الرُّسل، ويُنزِلُ الكتب، ويَرضى ويَغضب، ويُثيب ويُعاقِب، ويُعطِي ويَمنع، ويُعزّ ويُذلّ، ويَخفض وَيرفع، يَرى مِن فوق سبع ويسمع، ويعلم السِّرَّ والعلانيَة، فعّال لما يريد، موصوف بكل كمال، مُنزَّه عن كل عيب، لا تتحرك ذَرَّة فما فوقها إلّا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلّا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلّا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع».[1]



(١) الفوائد (ص٩٨ – ١٠١). وانظر: د. عمر الأشقر -: أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة (ص٢٢ – وما بعدها).

٣/١/٢ الإيمان بالملائكة:

٣/ ١/ ٢/ ١ العالم النُّوراني.

٣/ ١/ ٢/ ٢ رُسل الحق .. وعضد المؤمنين.

١/٢/١/٣ العالَم النُّوراني

سبق أنّ أشرف أعمال القلوب «**الإيمان بالله**»، وقد بيّنا جوانب هذا الإيمان بيانًا موجزًا فيما مرّ.

ومِن أركان الإيمان بالله «**الإيمان بملائكته**»، وما أخبر به عنهم، وافترض علينا مِن الإيمان بهم، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وفي حديث سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإيمان، أجابه ﷺ بقوله: «**الإيمانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ ...**».[١] الحديث.

الملائكة عالَم غيبيّ، لا نعرف عنه إلّا ما أخبرنا الله ورسوله عنه، وقد بسطَت النصوص من الكتاب والسُّنّة الحديث عنه، بما يجعل الإيمان بالملائكة في غاية الوضوح، وإن كانت هناك جوانب لا نعرفها، ونحن موقنون أنْ لو كان لنا في معرفتها فائدة لجاء بها الوحي.

وهذه الاستفاضة من النصوص الشرعية في الحديث عن الملائكة تشعر بحاجتنا إلى هذه المعرفة أوّلًا، وانتفاعنا بها ثانيًا؛ فليس الإيمان بالملائكة قضيّة عقليّة يجب التسليم بها فقط، بل هي قضية إيمانيّة لها آثارها في العقل والقلب والجوارح.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (١ – ٨) واللفظ لمسلم.

ولعلّك – أخي القارئ – تجول بفكرك فيما ينبغي أنْ تستفيده وتستثمره من خلال معرفتك لجوانب هذا الرُّكن من أركان الإيمان بالله.

الملائكة مخلوقات أبدعها الله، وأنشأها من النور، كما خلق آدم من التراب، قال ﷺ: «خُلقَتِ الملائكةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نارٍ، وخُلِقَ آدمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».[1]

والملائكة مخلوقات عظيمة الخَلْق والصُّورة، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(فاطر: ١)، وعَنْ عَبْدِالله بن مسعودٍ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ (النجم: ١٨)، قَالَ: «رَأَى النبيُّ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ»[2]، ورأى النبيُّ ﷺ جبريل عليه السلام في صورته مُنهبِطًا من السّماء، سادًّا بِعِظَم خَلْقه ما بين السّماء والأرض.[3]

كما أنّ الملائكة مخلوقات جميلة، حسنة الصورة، باهرة المنظر، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ (النجم: ٥، ٦): ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾: «ذُو مَنظرٍ حسَن». وقال قتادة: «ذُو خَلْقٍ طويلٍ حَسَن».[4]

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) رواه مسلم (١٧٤).

(٣) رواه مسلم (١٧٧).

(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ١٠).

وقد تقرّر عند البشر حُسن الملائكة وجمالهم، كما قصّه الله ﷻ في قصة النسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة يوسف: ٣١).

والملائكة عدد هائل لا يَعرف نهايته إلّا مَن خلقهم ﷻ. ولو وقفتَ على إحصائيّة لبعضهم لهالَك هذا العددُ، استمع - مثلًا - إلى قوله ﷺ في وصف «البيت المعمور»: «**فإذا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُوْدُونَ إليهِ آخِرُ مَا عليهِمْ**».[1] إذا كان هذا عدد الطّائفين في اليوم الواحد؛ فكم يبلغ عدد الطّائفين عليه منذ خُلقوا.

وحقيقةٌ عدديّةٌ أخرى ذكرها النبيُّ ﷺ حين وصف جهنّم - أعاذنا الله وإيّاكم منها -، فقال ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سَبعُونَ أَلْفَ زِمامٍ، معَ كلِّ زِمَامٍ سبعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها».[2] فيتحصَّل من هذا أنّ عدد الذين يجرّون جهنّم «أربع مليارات وتسع مئة مليون ملَك» (٤,٩٠٠,٠٠٠٠٠٠)؛ فما ظنّك بعدد الملائكة كلهم؟!

وفي هذه الكثرة ما يوجِب تعظيم الخالق ﷻ، ويقطع الأمل دون الوصول إلى حقيقة عددهم، ويكفينا أنْ نُردِّد قول الباري ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١).

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).

وبجانب هذه الزوايا مِن عظمة خَلق الملائكة وجمالهم وحُسن صورتهم وكثرة عددهم، فهناك زاوية أخرى، وهي الكمال الرُّوحيّ والنَّقاء النّفسيّ؛ فهم بررة أتقياء، أقوالهم سداد، وأفعالهم رشاد، وصفهم الله بقوله: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (عبس: ١٥، ١٦). «أي: خُلقهم كريم حَسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارّة طاهرة كاملة».[1]

والملائكة آتاهم الله مِن لدنه علومًا عظيمة، ومعارف شتّى، لم يتعاطَوا غيرها، ولم يخلطوها بما يصرفها عن نقائها وصفائها: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٢).

هؤلاء الملائكة مطبوعون على عبادة الله: ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦).

ممتثلون لأوامر الله ﷻ؛ خائفون من التقصير في طاعته، وجلون أنْ يُعذِّبهم إنْ عصَوا أمره: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (النحل: ٥٠)، وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بالمَلَإِ الأَعْلَى، وَجِبْرِيلُ كالحِلْسِ البالِي مِنْ خشيةِ اللهِ ﷻ»**.[2]

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢١).

(٢) رواه الطبرانيُّ في الأوسطِ (٤٦٧٩)، وابن أبي عاصم في السُّنَّة (٦٢١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧٨): (رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح). وقال السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ٢٦١): (إسناده صحيح). وقال الألباني في صحيح الجامع (٥/ ٢٠٦): (إسناده حسن).
وقوله: (كالحِلْسِ البَالي): الحِلْسُ: كِسَاءٌ يكون تحت برذعة البعير، أي: صار الخوف له

والملائكة متأدِّبون مع ربِّهم غاية الأدب، كما قال الحق ﷻ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٨).

هؤلاء الملائكة يُصلُّون لله، وهم في صلاتهم غاية في الانتظام؛ ولهذا أمر النبي ﷺ أمته بالاقتداء بهم في ذلك، فقال ﷺ: «**ألا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟**». قِيلَ: وكيفَ تَصُفُّ الملائكةُ عندَ رَبِّها؟ قالَ: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ، ويَتَرَاصُّوْنَ في الصَّفِّ**».[1] وكان عُمَر إذا أقيمت الصلاة؛ استقبل الناس بوجهه، ثم قال: «**أقيموا صفوفكم واستووا؛ فإنّما يريد الله بكم هَدْي الملائكة**»، يقول: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴾ (الصافات: ١٦٥- ١٦٦).[2]

كما أنّهم يحجّون إلى البيت المعمور - الذي هو كعبة أهل السّماء، ففي حديث المعراج قول النبي ﷺ: «**ثمَّ رُفِعَ لِيَ البيتُ المعمورُ، فسألتُ جبريلَ، فقالَ: هذا البيتُ المعمُورُ، يُصلِّي فيهِ كلَّ يوم سَبعُونَ ألفَ مَلَكٍ، إذا خَرَجُوا لمْ يَعودُوا إليهِ آخرَ ما عَليهِمْ**».[3] يعني: يتعبّدون فيه

حِلْسًا، يعني: مُلازِمًا. ومن ذلك قوله: (كُنْ حِلْسَ بَيتِك) أَي: ملازمه. انظر: الغريب لابن قتيبة (٢/ ٦٤٧)، الفائق للزمخشري (١/ ٣٠٥)، الغريب لابن الجوزي (١/ ٢٣٤).

(١) رواه مسلم (٤٣٠).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٩/ ٦٥٣).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٧) -والسياق له-، ومسلم (١٦٢).

ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السّماء السّابعة؛ وَجَدَ نبيُّنا ﷺ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام مُسنِدًا ظهرَه إلى ذاك البيتِ المعمور؛ ولعل ذلك لأنّه باني الكعبةِ الأرضيّة، والجزاءُ من جنس العمل.[1]

هذا الجنسُ من المخلوقات لَهَجُه الدّائمُ تسبيحُ الله وتمجيده، وتعظيمه وتبجيله، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ (غافر: ٧).

ومِن كثرة تسبيحهم صحّ أنْ يوصفوا بالمسبِّحين، كما قالوا عن أنفسهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴾ (الصافات: ١٦٦).

ولا عجب أنْ يشتغلوا بالتّسبيح؛ فإنّه أفضلُ ما ذُكِر اللهُ ﷻ به، فقد سُئِل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الكلام أَفْضَلُ؟ قال: «مَا اصْطَفَى اللهُ لملائِكَتِه أوْ لِعِبادِه: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِه».[2]



---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٧ - ٤٢٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣١).

٢/٢/١/٣ رُسل الحق .. وعضد المؤمنين

تقدَّم أنّ مِن أركان الإيمان: «**الإيمان بملائكة الرّحمن**»، وقد مرّت إلماحةٌ سريعة عن خَلْقهم وخُلُقهم، وعبادتهم للحق ﷻ.. ونستكمل الحديث عن جانب آخر من جوانب هذا الإيمان، وهو جانب: **العَلاقة بين الملائكة والإنسان..**

وفي معرفة هذه العَلاقة أثر إيجابي في سلوك العبد المؤمن، بل هو من أهم عوامل الانضباط السلوكيّ، وقبل ذلك: الرقيّ الإيماني، واستحياء القلب ووجله من خوف التقصير.

هؤلاء الملائكةُ هم رُسل الحقِّ ﷻ؛ فعن طريقهم يتنزّل الوحي، وبسفارتهم يؤدَّى كلام الله إلى عباده المرسلين: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (البقرة: ٩٧).

وأحيانًا يُرشدُ المَلَكُ الرّسولَ إلى ما يُسَهِّلُ عليه وعلى أُمَّته الوحي، كما جاء من حديث أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائيلَ أَتَيَاني، فَقعدَ جِبْريلُ عن يميني، ومِيكائِيلُ عن يسارِي، فقال جِبْريلُ: يا مُحَمَّدُ، اقرأِ القرآنَ على حَرْفٍ. فقال مِيكائِيلُ: استزِدْهُ. فقلتُ: زِدْني. فقال: اقرأْهُ على ثلاثةِ أحرُفٍ. فقال ميكائيلُ: استزِدْهُ. فقلتُ: زِدْني. حتّى بلغَ سبعةَ أحرُفٍ. فقال: اقرأْهُ على سبعةِ أحرُفٍ، كلُّها شافٍ كافٍ**»[١]

---

(١) رواه أحمد (٢١١٣٢)، وعبدُ بنُ حُمَيْد (المنتخب ١٦٤)، والنسائي (٩٤١)، بسند

لقد جعل الله الدُّنيا دار ابتلاء واختبار، ومن هنا كان هناك مجال واسع لوسوسة الشّيطان وإغوائه. ولكنّ الله أعان العبد المُقبل عليه بالمَلَك الذي يحضُّه على الخير، ويُرغِّبُه في المعروف، ويُحرِّكُ فيه بواعثَ التعبُّد والتقرُّب إليه ﷻ؛ فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إذَا أَوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ ابْتَدَرَهُ مَلَكٌ وَشَيْطَانٌ، فَيَقُولُ الْمَلَكُ: اخْتِمْ بِخَيْرٍ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: اخْتِمْ بِشَرٍّ. فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ، ثُمَّ نَامَ، بَاتَتِ الْمَلَائِكَةُ تَكْلَؤُهُ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ، قَالَ الْمَلَكُ: افْتَحْ بِخَيْرٍ، وَقَالَ الشَّيْطَانُ: افْتَحْ بِشَرٍّ. فَإِنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ نَفْسِي، وَلَمْ يُمِتْهَا فِي مَنَامِهَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ...﴾ (فاطر: ٤١) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ (الحج: ٦٥)؛ فَإِنْ وَقَعَ مِنْ سَرِيرِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ».[1]

صحيح. وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري (١/ ٣٤). وأصل الحديث في صحيح مسلم برقم: (٨٢٠) من حديث أُبَيِّ بْن كَعْب، وفيه قصة، وفيه: قول النبي ﷺ: «يَا أُبَيُّ! أُرْسِلَ إِلَيَّ: أَن اقْرَأ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْف، فَرَدَدْتُ إِلَيْه أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ: اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْن، فَرَدَدْتُ إِلَيْه أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ: اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَة أَحْرُف، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّة رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْم يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ ﷺ»). وكذلك رواه مسلم (٨١٩) مختصرًا من حديث ابن عباس.

(١) رواه أبو يعلى (١٧٩١)، والنسائي في السنن الكبير (١٠٦٢٣، ١٠٦٢٤)، وابن حبان (٥٥٣٣)، والحاكم (١/ ٥٤٨) وصحّحه على شرط مسلم. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٠): (رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامي، وهو ثقة).

والملائكة مُوكَّلون بحفظ أعمال بني آدم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ (الانفطار: ١٠-١٢)، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٦- ١٨).

هذا التّسجيل الدّقيق يتناول كل الأقوال والأعمال، بل يتناول أعمال القلوب؛ ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: قال الله عز وجل: «**إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا**».[1]

والملائكةُ مُحِبُّون لأهل الخير والإيمان، يَدعون لهم بكل خير، كما ثبت من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**».[2]

والملائكةُ يُؤَمِّنون على دعاء المسلم، كما في حديث أبي الدّرداء رضي الله عنه أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**».[3]

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٣).

وقد ثبت في السُّنَّةِ دعاء الملائكة للمؤمِنين في مواطن عدّة:

١- فيدْعون للذين يبقون في مُصلَّاهم بعد الصّلاة، يقولون: «**اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهمَّ ارْحَمْهُ**». **مَا لَمْ يُحْدِثْ**.(١)

٢- ويدعون للمتسحِّرين، كما في حديث: «**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ**».(٢)

٣- ويدعون لمن يعودون المرضى؛ فقد قال ﷺ: «**مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا إِلَّا ابْتَعَثَ اللهُ سبعينَ ألفِ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عليهِ في أيِّ ساعاتِ النَّهارِ كانَ حتَّى يُمْسِيَ، وأيِّ ساعاتِ الليلِ كانَ حتَّى يُصْبِحَ**».(٣)

٤- ويدعون لمن يُعلِّمون النّاس الخير ويُفَقِّهُونَهم في أمر دينهم، فعن أبي أُمامةَ رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ**».(٤)

والملائكة مُحِبُّون للخير، يشهدون مجالس العلم والذِّكر، يستأنسون بها، ويُحِفُّون حاضريها؛ فعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنّ النّبيّ ﷺ قال:

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥، ٦٥٩، ٦٤٧، ٣٢٢٩)، ومسلم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن حبان في باب السَّحور من كتاب الصوم (٣٤٦٧) من حديث ابن عمرٍ.

(٣) رواه الإمام أحمد (٦١٢ و٧٥٤ و٩٥٥)، وابن حبان (٢٩٥٨) من حديث عليٍّ رضي الله عنه.
وقد اختلف في رفعه ووقفه ورجَّح الدارقطنيُّ في العلل (٣/ ٢٦٩) وقفه؛ لكن ذلك مِمَّا لا يُعرَف بالرَّأي فله حكم الرفع، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٥/ ١٥٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وقال: (حديث حسن صحيح غريب).

«لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ...». الحديث.[1]

والملائكة في موقف الضِّيق والضَّنك يقاتلون مع المؤمنين - بإذن من الله ﷻ -؛ تثبيتًا لهم، وإدخالًا للبشرى في نفوسهم وطَمأنةً لقلوبهم؛ فيكونون مِن أقوى أسباب نصرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٣-١٢٥).

وثبت عن ابن عباس أنّ النّبيّ ﷺ قال يوم بدر: «هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الحَرْبِ».[2]

وما ذُكِر من هذه الأعمال للملائكة لا يُبتغَى به الحصر؛ ولكننا نبتغِي أنْ يتقرَّر أنّ الإيمان بالملائكة ليس قضيّة فكريّة يؤمِن بها الإنسان وكفى، ولكنّها حقيقة تتغلغل في النفس البشرية؛ فتضبط سلوكها، وتُشعرها بدفء الإيمان، وحرارة التقوى، ومعيّة هؤلاء العِباد المُكْرَمِين.



(١) رواه مسلم (٢٧٠٠)..

(٢) رواه البخاري (٣٩٩٥). وقوله:(أداة الحرب): آلتها، وأراد بها: السلاح. جامع الأصول (٨/ ١٨٧).

٣/١/٣ **الإيمان بالكتب:**

٣/ ١/ ٣/ ١ النُّور ... والرُّوح.

٣/ ١/ ٣/ ٢ الخاتم والمهيمن.

٣/ ١/ ٣/ ٣ الحجّة النّيّرة.

١/٣/١/٣ النُّور ... والرُّوح

من أشرف أعمال القلوب «**الإيمان بالله**»، وذلك يقوم على أركانٍ سبق الحديث عن بعضها. والحديث في هذه المقالة عن «الإيمان بالكتب» التي أنزلها الله على رسله. والإيمان بها، يعني: التصديق الجازم بأنّها حقّ وصدق، وأنّها مُنَزَّلَة من عند الله ﷻ، فيها الهدى والنُّور، والكفاية لمن أُنزِلَت إليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ (النساء: ١٧٤)، ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ ﴾ (النور: ٣٤).

وهذه الكتب هي رسائل الله ﷻ إلى خَلقه وعباده، اصطفى لإنزالها خِيرة الملائكة، لتبليغها لخِيرة النّاس، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ ﴾ (الشعراء: ١٩٢، ١٩٣)، وقال: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٩٧)، وقال عزّ من قائل: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: بالمعجزات البيّنة، والأدلّة والشّواهد والعلامات الدالّة على صِدْق ما جاءوا به وحَقِّيّته ﴿ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ﴿ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال؛ ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ (الحديد: ٢٥) قيامًا بدِين الله، وتحصيلًا لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها.(١)

---

(١) تفسير السعدي (ص٨٤٢).

ولكننا لا نعرف كل هذه الكتب، سوى ما أخبرنا الله ﷻ به من صُحُف إبراهيم وصحف موسى - وهي أسفار التوراة، وقيل: هي الألواح التي كُتِبَت فيها التوراة، وقيل: بل الصُّحُف أُنزِلَت عليه قبل التوراة وهي عبارة عن مواعظ وعِبَر - والإنجيل والزَّبور والقرآن.

إلا أننا مع عدم معرفتنا بها تفصيلًا، فإنّه يجب علينا الإيمان بها إجمالًا، كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولا يحلّ بحال من الأحوال أنْ يؤمن العبد ببعض تلك الكتب ويدع الإيمان بالبعض الآخر؛ لأنّ ذلك من التفريق الذي نهى الله عنه، وهو مساو للتفريق بين أجزاء الكتاب الواحد بالإيمان ببعضه وترك الإيمان بالبعض الآخر، فكلاهما مذهب في مشاقّة الباري ﷻ بالغ السُّوء، كما قال عزّ من قائل: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (البقرة: ١٧٦).

ولو تلمّس المرء أسباب التفريق بين الكتب، أو بين أجزاء الكتاب الواحد، لم يجد عند ذلك المفرّق سوى أمرين:

أولهما: الهوى والعناد؛ فالمتّبع لهواه لا يبالي بالحقائق، مهما كانت واضحة، ولا يعبأ بالدليل مهما كان نيّرًا؛ بل إنّ هواه يُصوِّر له الدّليل بصورة تبعد عنه اليقين، ويصوِّر له الشُّبهة بصورة توهمه أنّها عين اليقين، ويكفي أنّ متبع الهوى لا يلبث غير يسير حتى يصير عبدًا لهواه، أسيرًا له، مُنكسرًا بين يديه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ (الجاثية: ٢٣).

وثانيهما: **الفرح والتباهي** بما عند ذلك الإنسان من علوم يزعمها عقليّة ويعتقدها يقينيّة، أو مكتشَفات ومخترَعات يظن - بغير حق - أنها تغني عن الوحي، فيُفتَن بها كما فُتِن الأوّل بهواه. وهذه العلوم التي يتباهى بها من يتباهى، تتعدّد بحسب أحوال البشر على مدار التاريخ؛ فلكلّ قوم علم يعتقدون أنّه يُحصِّل لهم اليقين .. وهو وَهْمٌ كاذب عند التحقيق .. قال تعالى في وصف هذه الحالة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ (غافر: ٨٣).

وانظر إلى التعبير في قوله تعالى: ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ فالكتاب المنزَّل من الله واضح الحجّة، بيّن الدلالة على ما هو دليل عليه؛ ولكن ذلك المفرّق أو المعرِض يُعرِض عنه، لا من وضوح زائد لديه، ولكنّه مسوق بحالة نفسيّة ضالّة، هي حالة الفرح المعمية عن رؤية الحق، والحاجبة عن الانقياد للدليل.

ولذا كثر وصف الله ﷻ لهذه الكتب بالحق في مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (البقرة: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢١٣)، وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (الأنعام: ١١٤).

ولعلّك تلاحظ - أخي القارئ - هذا الاقتران بين وصف الكتاب بالحق ووجوب الحكم به؛ لتعرف أنّ من التكذيب بكتب الله التكذيب العمليّ لها؛ بالإعراض عنها، والتحاكم إلى غيرها، وطلب الهدى من سواها.

ومِن الدعاوى الفجّة: التوقير المصطنع لكتب الله، والتدليس على أهل الإيمان بادّعاء محبّتها واحترامها وإجلالها، ثم في مواقف التحاكم وفي ميدان العمل وتسيير الحياة وَفْق رَسْم هذه الكتب ونظامها، يَنأى هذا المتصنِّع وذاك المدلِّس عن التوقير الحقيقيّ والمحبّة الخالصة لهذه الكتب؛ بالتحاكم إليها، وتحليل حلالها، وتحريم حرامها، والوقوف عند حدودها..

ولعمري، إنْ لم يكن التوقير بالعمل، والمحبّة بصدق التحاكم، فلا توقير ثَمّ ولا محبّة هناك.

ثُمّ إنّ توالي هذه الكتب الإلهيّة على مدار التاريخ، يكشف عن حقيقتين هامّتين في النفس الإنسانية:

الأولى: أنّ البشر مهما أوتوا من الذّكاء، ورُزقوا من العلوم؛ فلن يستطيع أحد منهم أنْ يدرك الحقيقة المفصّلة للتعبُّد لله رب العالمين. والتعبُّد حاجة إنسانيّة لا يستغني عنها أحد؛ ولذا كان بعض أهل الجاهليّة - الذين أدركوا بفطرتهم ضلال الشرك الذي عليه قومهم - يتحسّر، ويقول: «**يا رب، لو أعرف كيف أعبدك؛ لعبدتك**».

فالسَّير إلى الله بإخلاص العبادة له، لا يستطيع أحد إدراك حدوده بمحض علمه؛ ولهذا جاءت هذه الكتب لتأخذ بيد الإنسان؛ فتدلّه على

ربّه، وتشقّ له طريق الترقّي إلى مولاه، وجاء فيها من التفصيل في هذا الباب ما لم يجيء في غيرها.

والحقيقة الثانية: أنّ للبشر من الشّهوات والأغراض، وفيهم من الأهواء والمطامع، ولديهم من النقص والعجز؛ ما يَحُول بينهم وإقامة تشريعٍ متكامل عادلٍ نزيه؛ يُصلِح أمور معاشهم، ويَضبط معاملاتهم، ويَفصل في نزاعاتهم، ويحفظ لهم الحقوق، ويستجلب لهم المنافع، ويستدفع عنهم المضارّ، وينأى بهم عن الظُّلم..

ويكفي دلالة على حاجة البشر إلى هذه الكتب أنّه ما جاء جيل من البشر إلّا وكشف عن ضلال أو خداع أو نقص في الشريعة التي سنّها الجيل الذي قبله؛ مما يوجِد اليقين بأنّهم بمعزل عن هداية الوحي الإلهيّ لا يستطيعون هداية أنفسهم الهداية الحقّة؛ ولذا احتاج المشرِّعون الوضعيُّون في كثير من الأزمنة والأمكنة أنْ يلتقطوا هداية الكتب السّماويّة، وإنْ كانوا لا يؤمنون بها ولا يذعنون لها ولا يُقرُّون بقدسيّتها.

ثم خُتِمَت هذه الكتب بالكتاب الخاتم: «القرآن الكريم»، المهيمن على تلك الكتب السماوية. وللحديث عنه فسحة من القول فيما سيأتي إن شاء الله.



٢/٣/١/٣ الخاتم والمهيمن

من أسس الإيمان بالله - الذي هو من أشرف أعمال القلوب - «**الإيمان بكتبه**» التي أنزلها على رسله. وانتهى بنا المقام إلى الحديث عن خاتم هذه الكتب، وهو «**القرآن الكريم**». وسنتناول جوانب قليلة عن هذا الكتاب الكريم، ونخصّ بالحديث ما له علاقة بأعمال القلوب.

فالقرآن الكريم، كلام الباري ﷻ أوحاه إلى نبيّه ﷺ ليهدي الناس إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٢ - ١٩٥)، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

وكلام الله لا منتهى له، وصف الله ﷻ سعته بأبلغ وصف حين قال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧).

فلو أنّ الله جعل البحار العظيمة حِبرًا تُكتَب به كلمات الله، والأشجار أقلامًا تكتب بها تلك الكلمات؛ لنَفِدت البحور، وفَنِيت الأقلام، ولم تصل إلى منتهى كلامه ﷻ.

وكذلك القرآن العظيم، لو تأمّل الخَلق في عجائبه ما شاءت لهم نفوسهم أنْ يتأمّلوا؛ لفنيت أعمارهم دون أن يصلوا إلى منتهى ما دلّ عليه من العلم.

وانظر إلى ما كتب الأوّلون في علوم القرآن تفسيرًا وبيانًا وتفصيلًا واستنباطًا؛ تجد عجبًا، ثم لا ينقضي العجب حتى يدفع بعجب مثله مِن أولئك الذين ساروا على درب الأوّلين في العناية بالقرآن، ثم استخرجوا من الدقائق القرآنيّة والمعاني الربّانيّة ما خفي على المتقدِّم، وهكذا القرآن يقذف في نفوس أهل كل عصر من المعاني اللطيفة ما يَشهد بعظمته ويُفصح عن جدّته، وكأنّه نزل مِن السماء الآن؛ يُبيّن ويُفصّل القول، ويُزيل الجهل، ويرفع الغيم عن الأبصار والأفئدة، كتابٌ لا تنتهي عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا يَخْلَقُ مِن كثرة الرَّدّ..

إنّ هذا النبع المتدفّق الدائم من علوم الكتاب العزيز، يُغري القلب بالعكوف عليه تدبُّرًا وتأمُّلًا واسترشادًا، وكلَّما كان القلب أنقى، كان انتفاعه بالمعاني واكتشافه للحقائق أتمّ وأبقى.

هذا القرآن هو خاتم كلام الله إلى خَلقه، وهو ناسخ لكل ما مضى من كلامه ﷻ في كتبه السّابقة.

وقد ذكر الله ﷻ في «سورة المائدة» التّوراة وما فيها من الهدى، فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾، ثم ذكر الإنجيل، فقال: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾، ثم ذكر القرآن، فقال: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾، إلى أنْ قال: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ

﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾

(المائدة: ٤٤- ٤٩).

إنّ الإيمان بهذه الحقيقة يملأ القلب ثقة بهداية القرآن الكريم، كما يصرفه في الوقت نفسه عن التماس الهدى من غيره من الكتب السماوية، فضلًا عن إنتاج العقول البشريّة والفلسفات الأرضيّة.

فما أعظم الخسار لمن أعرض عن كلام الله الذي مُلِئ عِلمًا ونورًا، ثم أخذ يقتات من فتات الفلسفات وإنتاج العقول المتضاربة المتنافرة، ويتسكّع على أبواب أصحابها طالبًا الهداية! وكيف تُرجَى الهداية مِمَّن ضلّ في نفسه، واضطرب في حقيقة أمره؟!

ولقد وَصف الله القرآن:

بأنه «برهان»، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾

(النساء: ١٧٤)..

وأنه «بصيرة»، فقال: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ ﴾

(الأعراف:٢٠٣)..

وأنه «هدى»، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢)..

وأنه «بيان»، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ (المائدة: ١٥)، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ ﴾ (النحل: ٨٩).

والقرآن الكريم يجمع بين بلوغ الغاية في قوّة الحجّة، ووضوح الدليل وتفصيله، وملامسة القلب بحُسن موعظته، ورقّة مخاطبته، وحلاوة إيراده؛ ولذا جاء وصفه في ثلاث آيات بأنّه: «شفاء»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٧)، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)، وقال أيضًا: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ (فصلت: ٤٤).

ووصفه الله ﷻ بأنّه «موعظة»، كما في قوله عزَّ من قائل: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨).

هذه الموعظة، وهذا الشِّفاء، هو الذي يزيل ما ران على القلوب من صدأ الخطايا والسّيئات، فكم من آية كشفت عن القلب هذه الغشاوة العارضة، فعاد يبصر الحق الذي تركه دهرًا، فأصبح بعد هذا السماع من خيار عباد الله وأتقاهم له.

ومن هنا كان حقًّا على مَن أراد حياةَ قلبه، وجِلاء روحه، وزكاة نفسه؛ والشفاء من عِلَل شهوته وشبهته؛ أنْ يُديم النظر في كتاب الله ﷻ، وأنْ يُرطِّب لسانه بتلاوته، وأنْ يسرّح عقله في تدبُّر آياته، وروحه في تأمّل مواعظه، وأنْ يتقلَّب بين زواجره وأوامره، ونذارته وبشارته .. فلعمري إنّ هذا لسبيل السُّعداء الذين نَعِمُوا بعافية الإيمان، ونَهلوا مِن مَعِين التقوى؛ فلا غرو أنْ يجدوا حينئذ للحياة طعمًا لا يجده غيرهم من

أحلاس الغفلة، ويبصروا من مباهجها القلبيّة ما حُجِب عن غيرهم من أرباب الشهوة، ويجتهدوا في مَلء عَيْبة الحياة بنفائس العمل، وجواهر القُرَب.

أخي الكريم! هذا القرآن العظيم مائدة الله في أرضه، فأقبل عليها بشغف، واستكثر من أصنافها، وعبّ من شرابها، وتضلّع من علومها؛ لتحيا حياة الصدّيقين، في وقت تكاثرت ملهياته، وتداعت شبهاته، وعكف الناس على تعمير الدنيا والإقبال عليها، وتخريب الآخرة والإدبار عنها.

ثم اعلم - أخي القارئ - : أنّ مَن اتبع القرآن ومواعظه حال الفَتْرة - أي: حال ضعف الاتِّباع للرسالة -، واقتفى العلم والسُّنن عند ظهور البدع، لا يقصر حاله عن حال الصدّيقين، ولا تنزل درجته عن درجة المهديِّين[1].

اللهمّ اجعلنا منهم بمنّك وكرمك يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.



(١) انظر: التذكار (ص٩١).

٣/٣/١/٣ الحُجَّة النَّيِّرة

لا يزال الحديث موصولًا عن «**القرآن الكريم**»؛ إذْ إنّ الإيمان به جزء من الإيمان بكتب الله الذي هو ركن من أركان الإيمان.

وقد سبق الحديث عن كونه: كلام الله، أنزله على خاتم رسله محمد ﷺ، وجعله مهيمنًا على ما سبقه من الكتب، كما جعله شفاء لما في الصُّدور من الشَّهوات والشُّبهات.

لقد جاء هذا القرآن الكريم بأبلغ لفظ، وأبين حُجَّة، وأعمق أثر في نفوس من يسمعه، وصف الله أثره في النفوس بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (الأنفال: ٢).

وذكر أثرًا آخر له، فقال: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣).

قدم وفد النجاشيّ على رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ «سورة يس»، فبكَوا وأسلمُوا، وقالوا: ما أشبهَ هذا بما كان ينزل على عيسى!

وفي شأن هؤلاء ومَن كان في صفتهم نزل قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ

﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٢ - ٨٣).[1]

وهكذا كان حال رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده والتابعين لهم بإحسان؛ قُشَعْرِيرَةٌ في الجلود، ووَجَلٌ في القلوب، ودمع من العيون، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩).

وذكر الله ﷻ في «سورة مريم» جماعة من الأنبياء: عيسى وإبراهيم وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، ثمّ قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم: ٥٨).

وقد كان نبيُّنا - صلواتُ الله وسلامُه عليه - : إذَا صَلَّى سُمِعَ لصدرِه أَزيزٌ كأَزيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكاءِ.[2] وقال نبيُّنا - صلواتُ ربي وسلامُه عليه - لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اقْرَأْ عليَّ». قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «إِنِّي أُحبُّ أَنْ أَسمعَهُ مِنْ غيرِي»، فقرأْتُ عليهِ سورةَ النِّساءِ

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (ص٢١٩)، تفسير الطبري (٨/ ٦٠٠).

(٢) رواه أحمد (١٦٣١٢)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤).

وقوله: (كأزيز المِرْجل مِنَ الْبُكَاءِ): أي: خَنين - بالخاء المعجمة - مِن الخوف وهو صوت البكاء. وقيل: هو أن يَجيش جوفه ويغلي بالبكاء. النهاية (١/ ٤٥).

حتَّى بلغتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١) **قال: «أَمْسِكْ»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.**[١] **وفي روايةٍ: قال عبدُ الله: «حتَّى إذا بَلَغْتُ:** ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ **رَفَعْتُ رَأْسِي - أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي - فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ».**[٢]

فـ«يجب على القارئ إحضار قلبه، والتفكُّر عند قراءته؛ لأنّه يقرأ خطاب الله الذي خاطب به عباده؛ فمن قرأه ولم يتفكّر فيه وهو أهل أنْ يدركه بالتذكُّر والتفكُّر، كان كمن لم يقرأه، ولم يَصِل إلى غرض القراءة من قراءته؛ فإنّ القرآن يشتمل على آيات مختلفة الحقوق، فإذا ترك التفكُّر والتدبُّر فيما قرأ، استوت الآيات كلها عنده، فلم يرع لواحدة منها حقّها، وقد قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩)، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤)».[٣]

وقد جاء الحضّ على التدبّر في القرآن الكريم؛ لإدراك الحقّ الذي فيه، ومعرفة الباطل الذي في سواه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٢، ٥٠٥٠، ٥٠٥٥).

(٢) رواه مسلم (٨٠٠)

(٣) التذكار (ص١٩٩).

وجاء الحضُّ على التدبر لفكّ الأقفال التي على القلوب؛ لتّتسع وتنشرح لهداية القرآن: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤).

وجاء التَّبكيت والذَّمّ لمن أعرضوا عن التدبّر حتى حاق بهم العذاب ..

وتأمّل هذه المقابلة التي جاءت في «سورة المؤمنون» بين فريق المتدبِّرين وفريق الغافلين ..

ذكر الله شأن المتدبّرين وما أثمره تدبّرهم من الخشوع والخوف من الله والخوف من عدم قبول العمل مع كمال الاجتهاد فيه بل والتسابق إلى الاستكثارمنه وحوز قَصَب السَّبْق فيه فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٧-٦١). وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ «أي: إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، ويتفكّرون أيضًا في الآيات القرآنيّة ويتدبّرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتّفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه، وأحوال الجزاء؛ فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبِّر عنه اللسان».[1]

ثمّ ذكر الله شأن الفريق الثاني، فريق المعرضين عن التدبّر، وما أنتج ذلك من جهالة في قلوبهم، وسوء في أعمالهم، ونكوص عن الهدى،

(١) تفسير السعدي (ص٥٥٤).

واستكبار عن اتباع الحق، وكل هذه عواقب وخيمة حاقت بهم من ترك التدبُّر والتأمُّل، قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٦٣ - ٦٨)، فهم في «وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن؛ فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء»[(١)].

ولتحقيق هذا التدبُّر والتذكُّر، جاء عن النبي ﷺ تَرْدادُ الآية أحيانًا لمزيد تفكُّر فيها، فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه: «أَنَّ النبيَّ ﷺ لَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُ هذهِ الآيةَ حتَّى أَصْبَحَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨)»[(٢)].

وعن عُرْوَةَ رضي الله عنه قال: «دَخَلْتُ عَلَى أَسْمَاءَ وَهِيَ تُصَلِّي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (الطور: ٢٧) فَاسْتَعَاذَتْ، فَقُمْتُ وَهِيَ تَسْتَعِيذُ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيَّ، أَتَيْتُ السُّوقَ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَهِيَ فِي بُكَائِهَا تَسْتَعِيذُ»[(٣)].

---

(١) تفسير السعدي (ص٥٥٤).

(٢) رواه أحمد (٢١٣٢٨)، وابنُ أبي شيبة (٨٤٥٤، ٣٢٤٢٧)، والنسائيّ (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)، والحاكم (١/ ٣٦٧) وصحّحه.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٥٥) وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص١٤٧).

وكان سعيد بن جُبَير: «يُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي الصَّلَاةِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١)».[1]

وقال رجلٌ مِن قَيْسٍ يُكنَى أبا عبد الله: «بِتْنَا ذاتَ ليلةٍ عندَ الحسنِ، فقامَ مِنَ الليلِ فصلَّى، فلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُ هذهِ الآيَةَ حتَّى السَّحَرِ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤) فلمَّا أصبحْنا قُلْنَا: يا أبا سعيدٍ، لَمْ تكدْ تُجَاوِزْ هذهِ الآيةَ سائرَ الليلِ؟ قالَ: أَرَى فيها مُعْتَبَرًا، ما أرفعُ طَرْفًا ولا أَرُدُّهُ إلَّا قدْ وقعَ علَى نِعْمَةٍ، وما لا يُعْلَمُ مِنْ نِعَمِ اللهِ أكثرُ».[2]

والمقصود: أنّ الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلّا لمن أعطاه حقّه من التأمُّل والنّظر، وحينذاك يحيا قلبُه بالقرآن، وتستقيمُ جوارحُه به، وينتفع به غايةَ الانتفاع.

نفعنا اللهُ وإيّاكم بهَدي كتابه، ومَنَّ علينا بتدبُّره وتذكُّره.



(١) رواه أحمد في الزهد (٢١٦٥)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص١٤٧).

(٢) التذكار (ص٢٠١).

٣/١/٤ الإيمان بالرُّسل:

٣/ ١/ ٤/ ١ الرَّكب المصطفى ﷺ.

٣/ ١/ ٤/ ٢ معاناة وصبر.

٣/ ١/ ٤/ ٣ حُجَّة وبيان.

٣/ ١/ ٤/ ٤ تنويع الوسائل.

٣/ ١/ ٤/ ٥ صبر وبذل.

٣/١/٤/١ الرَّكب المصطفى

لا يزال الكلام موصولًا عن أهّم عمل من أعمال القلوب، وهو «الإيمان»، وقد سبق الحديث عن بعض أركانه: «**الإيمان بالله**»، و«**ملائكته**»، و«**كتبه**».

وسنتناول **الرُّكن الرّابع** من أركان هذا الإيمان، وهو «الإيمان بالرُّسل»..

وهؤلاء الرُّسل امتلأ القرآن الكريم بالحديث عنهم في مواضع متعدِّدة .. ومن عقيدة المسلم: الإيمان بهذا الرَّكْب الكريم المبارك، كما قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ومعنى الإيمان بهم: التّصديق الجازم بأنّ الله بعثهم في أممهم بالدَّعوة إلى عبادة الله وحده، والكفر بما كانت تعبد من دونه، وأنّ هؤلاء الرُّسل: بررة أتقياء، هداة مهتدون، مؤيَّدون من ربِّهم بالبراهين الظّاهرة، والآيات الباهرة.

كما يتضمّن الإيمان بهم: الشّهادة لهم بأنّهم بلّغوا ما أرسلهم الله به؛ فلم يكتموا ولم يغيّروا ولم يبدِّلوا ولم يزيدوا أو ينقصوا.

هؤلاء الرُّسل الكرام هم صفوة البشريّة، وغاية الكمال الإنسانيّ، رزقهم الله ﷻ سلامة القلب، وزكاة النّفس، ونقاء الرُّوح، واستقامة الجوارح؛ فاستحقوا بذلك أنْ يكونوا قدوة في الخير، وأئمّة للهدى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(آل عمران: ٣٣)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ (البقرة: ١٣٠)، وقال أيضًا: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ (ص: ٤٥ - ٤٨)، وقال عن موسى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ (الأعراف: ١٤٤).

وقاعدة الاصطفاء تنتظمُ كُلَّ المرسلين، كما أبان الله ذلك في قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٥).

ولو تأمّلت في صفات هؤلاء المرسلين -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم-؛ لوجدتَهم أهلًا لهذا الاصطفاء الرَّبَّاني؛ فَلْنُشِر إلى بعض صفاتهم الواردة في كتاب الله الكريم:

- فمِن صفاتهم: الإخلاصُ لله في دعوتهم؛ فهم لا يبغون من ورائها جاهًا ولا مالًا، ولا أيَّ أجر دُنيويٍّ أو مكسب شخصي، وإنّما يسعون إلى طلب الأجر والثّواب من ربِّ العالمين.

ولقد ساق الله ﷻ في «سورة الشعراء» جملةً من قصصهم، وفي كل واحدة منها ينادي كل رسول منهم في قومه: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠).

قال هذه الكلمة: نوحٌ وهودٌ وصالحٌ ولوطٌ وشُعَيبٌ عليهم السلام

يخاطِبون بها أقوامَهم؛ ليُطمئنوا أفئدتَهم أنّهم دعاةُ هُدى، يبغون لهم النّجاة في الدُّنيا والآخرة، وليسوا طُلّاب مكاسب، ولا صيّادي متاع دُنيويٍّ؛ فإنّ الدُّنيا في عيونهم وقلوبهم أحقرُ من أنْ يُرتكب لتحصيلها الكذبُ على ربِّ العالمين، أو خَلْطُ العمل بمقاصدَ أرضيّة تُشَوِّهُ صورتَه، وتَحرِمُ أجرَه.

وعلى مقالة هؤلاء الرسل الأقدمين جرى خاتمُهم محمّدٌ ﷺ؛ فأمره ربُّه بأنْ يقول لمن يدعوهم: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠) ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ (سبأ: ٤٧).

▪ **ومن صفات أولئك المرسلين: الأمانة، والنُّصح لأقوامهم،** وفي «سورة الشعراء» يخاطب كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام أقوامهم بقولهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨)..

وخاتمُهم محمّدٌ ﷺ كان يُعرَفُ في قومه بـ«الأمين»؛ إذْ لم يجدوا في سيرته يومًا من الأيّام ما يُنافي هذه الأمانة..

ومِن أمانته ﷺ: تبليغه لأمته حتى ما كان فيه عتاب له - صلوات الله وسلامه عليه -، كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٣)، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(الأنفال: ٦٧ -٦٨)، وقوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ ﴾ (عبس: ١- ١١).

هذه الأمانة التي اتّصف بها المرسلون، هي التي جعلتهم أهلًا لأنْ يؤتمنوا على أغلى شيء، وهو وحي الله وكلامه، قال ﷺ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً**».[1]

ثم إنّ هؤلاء الرسل مع هذه الكمالات التي مُنِحوها من الحقّ ﷻ، لم ينخلعوا عن صفاتهم البشريّة، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾(الفرقان: ٢٠)، «أي: قد كانوا بشرًا مِن البشر، يأكلون ويشربون مثل النّاس، ويدخلون الأسواق للتكسُّب والتجارة، وليس ذلك بضارٍّ لهم ولا ناقص منهم شيئًا، كما توهّمه المشركون في قولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾(الفرقان: ٧)».[2] وقال عزّ مِن قائل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧، ٨). أي: وما جعلنا الرُّسل قَبلك ذوي أجساد إلّا ليأكلوا الطعام، ولم

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٤).

نجعلهم خارجين عن طباع البشر - كالملائكة - لا يحتاجون إلى طعام وشراب.[1]

هذه الحقيقة أكّدها الأنبياء حتّى في حالة عناد المعاندين، وادّعائهم أنّ النّبوّة لا ينبغي أنْ تكون في البشر، وإنّما ينبغي أنْ تكون في الملائكة، كما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، فكان ردّ المرسلين: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (إبراهيم: ١٠-١١).

بل إنّ ادّعاء الانخلاع من البشريّة في شخصيات الأنبياء، إفْك عظيم وضلال مبين أنكره الله على من قال به، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥)

هؤلاء الرسل بهذه الصفات المتميّزة، والطاعة الممتدّة لربّ العالمين؛ قدوة يسير وراءها السائرون، وأدلّة على الرب ﷻ؛ فواجب على العبد أنْ يمتلئ قلبه محبّة لهم وإجلالًا وتعظيمًا وتوقيرًا؛ ليأخذوا بيديه إلى مراتب الكمال ومعارج السّموّ، فينال رضا ربه ﷻ، ويستحق دار كرمته وجوار رحمته.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٢٩)، معاني القرآن للزجّاج (٣/ ٣٨٥)، تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٢)

جعلنا الله من أتباع الأنبياء، وحشرنا في زمرتهم، وأكرمنا بشفاعتهم.



٢/٤/١/٣ معاناة وصبر

من عقيدة المسلم: الإيمان بمن **أرسلهم** الله إلى الخَلق لتبليغ الدِّين، ودعوة الناس إلى عبادة الله وحده.

وقد ذكرنا طرفًا من «**صفاتهم**»، وسنذكر -بعونه تعالى- طرفًا من «معاناتهم وصبرهم» في سبيل هذا التبليغ. فقد كانوا -صلوات الله وسلامه عليهم- أئمّة في الصبر على ما يصيبهم من أذى في سبيل الدّعوة إلى الله ﷻ، كما كانوا أئمّة هُدى ومصابيح دجى في الدعوة ذاتها؛ ولهذا أمر الله خاتمهم محمدًا ﷺ باقتفاء أثر من سبقه منهم في الصبر على هذه المهمّة الجليلة الشاقّة، فقال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

ولنقف متأمّلين مسترشِدين مع بعض قصص هذا الركب الكريم:

- ذَكَرَ الله ﷻ «قصّة نوح عليه السلام» في مواطن كثيرة من القرآن الكريم؛ فأنزل فيه سورة كاملة «سورة نوح»، وذكره في سُوَر: «الأعراف» و«يونس» و«هود» و«الأنبياء» و«المؤمنون» و«الشُّعراء» و«العنكبوت» و«الصافات» و«اقتربت».

لقد ألَانَ نوحٌ عليه السلام لقومه الخطاب فناداهم، بقوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾، وبيّن لهم مهمّته، وكشف لهم عن رسالته؛ وأنّه نذير يَخشى عليهم الهلكة، ويرجو لهم النجاة، وسلك في سبيل ذلك كل مسلك مِن

تنويع الخطاب، وتطلُّب الأوقات التي يرجو أنْ يستجيبوا فيها: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ (نوح: ٥ - ٩).

مع كل هذا؛ لم يستجب أكثرهم لدعوته لينتقلوا مما هم فيه من الشرك إلى عبادة الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هود: ٤٠). بل ناصبوه العداوة وتهكّموا به وسخروا منه وبمن اتّبعه من المؤمنين، وتوعّدوهم بالرّجم والإخراج: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأعراف: ٦٠)، وقالوا: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ (الشعراء: ١١١ - ١١٦)، وقالوا - أيضًا -: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ (هود: ٢٧).

وانظر كيف ذمُّوا المؤمنين في مسارعتهم إلى تصديق نوح عليه السلام بقولهم: ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا رويّة .. **إنّ هذا لأمر عُجاب!**

إنّ المسارعة إلى الاستجابة للحقّ أحقّ بالمدح ومدح فاعلها، من ذمِّها

ورَمي صاحبها بضعف البصيرة؛ فإنّ الحقّ الظّاهر لا يحتاج إلى رويّة، بل يجب الانقياد له بمجرّد ظهوره وعلوّه؛ ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال مادحًا أبا بكر رضي الله عنه: «مَا دَعوْتُ أَحدًا إِلَى الإِسْلَام إِلَّا كَانَتْ لَهُ عَنْهُ كَبْوَةٌ وتَردُّد ونَظَرٌ، إلّا أبَا بكرٍ، ما عَكَمَ حِينَ ذَكَرْتُه لهُ، ومَا تَردَّدَ فِيه».[1]

ولهذا - أيضًا - كانت بيعتُه يوم السَّقِيفَة سريعةً؛ لأنّ أفضليّته على من عَداه ظاهرةٌ جليّة عند الصّحابة رضي الله عنهم؛ فإنّ رسول الله لمّا أراد أنْ يكتب استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، ترك ذلك لبدوّ فضله ومنزلته ممّا لا يحتاج معه إلى كتاب، وحينئذ قال ﷺ: «يَأبَى اللهُ والمؤمنُونَ إلَّا أبَا بكْرٍ».[2]

وبعد أنْ ذَمَّ قومُ نوح عليه السلام المؤمنينَ بالمسارعة إلى الإيمان، ثَنَّوْا برميهم لهم بالكذب: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧) ..

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة (ص١٣٩/ وانظر: تهذيبها لابن هشام ١/ ٢٥٢) من رواية محمد بن عبد الرحمن التميمي، عن النبي ﷺ مرسلًا. والتميمي هذا من أتباع التابعين، وكان صوّامًا قوّامًا من المتعبّدين. انظر: التاريخ الكبير(١/ ١٥٦ - ١٥٧)، الثقات لابن حبان طبقة أتباع التابعين (٧/ ٤١٣). ورواه ابن بطّة في الإبانة الكبرى (٩/ ٤٥٢) من رواية القاسم بن محمد، عن النبي ﷺ مرسلًا.
وقوله: (الْكَبْوَةُ): يعني: الوقفة. النهاية (٤/ ١٤٦). وقولُه: (ما عَكَمَ): يعني: ما تَلَبَّثَ. انظر: سيرة ابن هشام، (١/ ٢٥٢) شرح السيرة لأبي ذر الخشني (ص٧٩).

(٢) رواه أحمد (٢٥١١٣) واللفظ له ومسلم (٢٣٨٧) والبخاري بنحوه (٧٢١٧) عن عائشة رضي الله عنها، قالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِه: «ادْعُوا لِي أَبَاكِ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ لأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ، وَيَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللهُ عز وجل وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ». وانظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١١/ ٩٠ - ٩١ و١٥/ ١٥٥).

ولكنّ نُوحًا عليه السلام مع كل هذا الصَّلَف والعناد، لم يتحوّل عن التلطُّف في الخطاب؛ لعلهم يَرعَوون[1] عن عنادهم، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود: ٢٨)، والرحمةُ التي آتاه الله هي النّبوّة والرّسالة؛ فهو يدعوهم إلى هذه الرحمة ليستفيئوا بظلّها، وينالوا مِن خيرها، ولكنّه مع ذلك لا يملك غصبهم وإجبارهم على الانقياد: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾.

ثم صبر نبيُّ الله نوح عليه السلام على مكر قومه في ردّ دعوته، ومراوغتهم ومغالطتهم للإعراض عن رسالته، بانتقاص أتباعه وزعمهم أنهم السبب في ترك الإيمان به، فقالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ (الشعراء: ١١١)، أي: كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرذلون أولئك الذين لم ينالوا من الدنيا ما يرفع ذكرهم من نسب أو حرفة أو جاه. وفي قولهم هذا تعريض بإيمان الذين استجابوا له بأنّ إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح وفحص دقيق، وإنما كان لمغانم ابتغوها، ومنزلة افتقدوها، فتطلَّبوها في اتّباعه.[2]

وهنا أعلمهم نبيُّ الله نوح عليه السلام أنّ الاعتبار الصحيح والسبيل المستقيم في التمييز بين العباد إنّما يكون بالاستجابة للإيمان في الظاهر، وإجراء

---

(١) (الارعواء): الندم على الشيء، والانصراف عنه، والترك له. غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ٢٢٧).

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٢٦).

الأحكام على موجبه، دون التنقير في البواطن والتفتيش في الضمائر، أو التمييز بين الخَلْق على أساس اختلاف صورهم وأشكالهم وألوانهم ويسارهم وعوزهم، أو على مفاهيم مغلوطة ومقاييس باطلة، نحو ربط صلاح الباطن بترف الظاهر ورقّة الظاهر بفساد الباطن، ونحو تخطئة الحقّ لا لعيب فيه وإنّما لإقبال الضُّعفاء عليه، وتصويب الباطل لا لحقٍّ فيه وإنّما لشرف المعرِض عنه.. فالحقُّ حق في ذاته، لم يكتسبه من إقبال شريف عليه، وشرف النسبة إلى الإيمان أعظم من شرف النسبة إلى الحسب والنسب المال، والعبرة «بالأخلاق الفاضلة والملكات الكاملة التي تحمل على تعرُّف الحقّ والتوجُّه إليه ثم اعتناقه والمحافظة عليه».[1]

ثم - أيضًا - من ذا الذي يكشف سُجُفَ[2] الغيب؛ فيقول: إنّ هذا القلب أحق بالهداية، وذاك أحق بالغواية؟! ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣﴾ (الشعراء: ١١٢- ١١٣)، ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود: ٣١).

ثم هو رسول هداية لا جامع مال ولا بان لأمجاد الدنيا حتى يتبعه من يُقيِّم الأمور من خلال حصولها: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يفنيها شيء، فأدعوكم إلى اتّباعي عليها .. وما كان له أنْ يُميل قلوب

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٤٦٥).

(٢) يعني: سِتْر أو سُتور. انظر: الصحاح (ستر ٢/ ٦٧٦ سجف ٤/ ١٣٧١)

الخلق بصفة ليست فيه لو ادّعاها لمالوا إليه سراعًا ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ﴾ أيضًا ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ ما خفي من سرائر العباد؛ فإنّ ذلك لا يعلمه إلا الله، فأدَّعي الربوبيّة وأدعوكم إلى عبادتي ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ (هود: ٣١) مِن الملائكة أُرسِلت إليكم، فأكون كاذبًا في دعواي ذلك، بل أنا بشرٌ مثلكم كما تقولون، أُمِرت بدعائكم إلى الله، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم.[1]

ومن وجه آخر أيضًا: كان نوح عليه السلام يخاف وحق له أن يخاف إنْ فعل بهؤلاء المؤمنين ما يريده أولئك المستكبرون، أنْ يجأر هؤلاء المتّقون بالشكوى إلى رب العالمين؛ فمن ينصره مِن الله إنْ فَعل بهم ذلك، ومَن يكن له ظهيرًا مِن دونه إنْ هو أسلمهم لعدوّهم، وولّى ظهره دونهم؟!.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: ٢٩-٣٠).

وكيف يطردهم وقد آمنوا به، وكيف يطردهم وقد استجابوا لدعوته؛ ألرقّة حالهم يطردهم، ألضعفهم الظاهر يعرض عنهم .. كيف وهم القلّة والصّفوة التي آمنت واستجابت؛ فهي بلا مرية أرجح عقلًا وأخلص قلبًا وأصفَى محلًّا به .. إنّ طردهم خيانة للرسالة، وتضييع للأمانة، وتعرُّض لغضب الله وعقابه، وحاشا نبي الله نوح أنْ يكون في شيء من ذلك.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٦).

٣/٤/١/٣ حُجَّة وبيان

قد ذكرنا بعض ما لاقاه «نوح عليه السلام» في دعوته، وتبليغ رسالته التي أرسله الله بها. وإنّما نبتغي من وراء ذلك: أنْ يكبر في صدر المسلم مكانة أولئك النبيّين والمرسلين، من خلال الاطّلاع على تلك الجهود التي بذلوها في دعوة الخَلق إلى الخالق..

وفي هذه المقالة نعرض نموذجًا آخر من خلال سيرة أبي الأنبياء «إبراهيم عليه السلام».

فلقد وُلِدَ عليه السلام بأرض بابل التي كانت تَعُجُّ بعبادة الأصنام، فنشّأه الله نشأةً طاهرةً؛ لِمَا يَعلمُ عز وجل من استحقاق تلك النّفس الشّريفة لهذا الاصطفاء المبارك: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٥١).

فبدأ بدعوة أقرب النّاس إليه أبيه آزر، ووجّه نظره إلى صفات الألوهيّة، التي لا يوجد شيء منها في تلك الأصنام التي يعبدون: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٤١ - ٤٥).

ولكن هذا الأسلوب الراقي في الحوار العقلي، الغني بالدفء العاطفي،

لم يقابَل - وللأسف الشديد - إلّا بكُلِّ كُنُودٍ[1] وجحود وتهديد ووعيد من آزر أبي إبراهيم: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ (مريم: ٤٦).

إلّا أنّ هذا الرَّدَّ الجافي لم يَحمل إبراهيم عليه السلام على أنْ يُقابله بمثله، بل قابله بالصَّفح والعفو، بل أكثر من ذلك؛ بدعاء الله لأبيه بالمغفرة: ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ (مريم: ٤٧ - ٤٨).

وقد مكث إبراهيم عليه السلام زمنًا يستغفر لأبيه حتى تبيّن له أنّه عدوٌّ لله، فتبرّأ منه، وترك الاستغفار له.

ولم يكن قوم إبراهيم أحسن حالًا من أبيه في استغلاق عقولهم، واستحواذ الفتنة عليهم، واستدبارهم الحقّ، واسترواحهم إلى تقليد الآباء والأجداد..
وفي «سورة الأنبياء» طرف من صنيع إبراهيم مع هؤلاء القوم: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ

---

(١) (كُنُود): يعني: كُفران. تاج العروس (٩/ ١١٤).

إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٥١ - ٦٧).

انظر كيف صرف إبراهيم هؤلاء القوم عن الاحتجاج بالتّاريخ -اتّباع الآباء والأجداد- إلى إرسال النّظر في الآيات المبثوثة بين أيديهم ويشاهدونها بأعينهم، وهي من الوضوح والظهور بحيث لا تحتاج معها إلّا إلى توجيه النظر إليها.. إنّها آيات السّموات والأرض.. ولكنهم لم يعيروا لهذا الدليل بالًا، ولم يولوه اهتمامًا.. وهنا لم يكتف إبراهيم عليه السلام بالمحاجّة باللسان، وإنّما سلك معهم فجًّا آخر مِن طرق الاستدلال، وهو كشف النقص في آلهتهم المدَّعاة؛ فإنْ لم يدركوا الكمال في الإله الحق، فليدركوا النقص في آلهتهم الباطلة..

لقد حطّم إبراهيم عليه السلام آلهتهم التي يعبدونها مِن دون الله، فجعلها جُذاذًا - أي: قطعًا مكسّرة - إلّا كبيرها وعظيمها فلم يكسره، وعلّق الفأس في عنقه؛ لعل هؤلاء الضُّلّال يرجعون عمّا هم عليه من عبادة الأصنام، إلى ما هو عليه من توحيد الله والبراءة من الأوثان، أو يرجعون إلى كبير هذه

على أنّه قد جرت سنة الله في عباده بأنّ هؤلاء الضعفاء هم أتباع الأنبياء، حتّى سرت هذه الحقيقة في الخليقة مجرى الشمس، كما في حديث هرقل لما سأل أبا سفيان رضي الله عنه عن أتباع النبيّ ﷺ: «أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟»، فلمّا أُجيبَ: «أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ»، قال: «وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ».[1]

فلمّا تطاول الزمان وعظمت المجادلة بينهم وبينه - ألف سنة إلّا خمسين عامًا -، حقّت كلمة الله بهلاك أولئك المكذّبين، وبقي نوح عليه السلام مثلًا في صبره وحلمه وبلاغه لدين ربه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ٤٠ - ٤٤).



(١) صحيح البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

الأصنام فيسألونه: ما لهؤلاء مكسورة ومالَك صحيحًا والفأس في عنقك فلم تدفع عنها؟! وحينئذ يستبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، وأنّ الذي لا يستطيع أنْ يدفع عن نفسه كيف يدفع عن غيره، ويظهر لهم أنهم في عبادتهم على جهل عظيم.[1]

وهنا أدركتهم حالة من اليقظة: ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي: بعبادتها.. ولكنها كانت ومضة يسيرة في ظلام الشّرك الدّامس سَرعان ما انطفأت: ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦٥).

وهنا أغلقوا كل مجال للحوار والجدال، واتّجهوا إلى تصفية إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ٦٨).

هذا الاتّجاه لتحريق إبراهيم لئن كان يكشف عن غلظة في أكباد أولئك القوم، وجفاء في طبعهم؛ فإنه يكشف - في الوقت ذاته - عن ضعف كبير، وخور ومهانة نفسيّة، حين عجزوا عن البرهان على أحقيّة ما يفعلون: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ٦٨).

ولكن الله الذي أمدّ نبيّه بالحجّة النيّرة، والبرهان الساطع، وأمدّه أيضًا بالنّجاة التامّة من كيد أولئك الفجّار: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ (الأنبياء: ٦٩ - ٧٠).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٩٦ - ٢٩٧)، تفسير المراغي (١٧/ ٤٧).

لقد كان إبراهيم عليه السلام: إمامًا في الدّعوة والمجادلة، وإمامًا في الصبر والمصابرة .. فلم يُرَع له جَنان، ولم تتضعضع له عزيمة، وهو يرى ألسنة النّار تمتد إلى السّماء تبتغي أنْ تلتهم ذلك الجسد الطهور؛ إنّه لم يزد على أنْ قال: «حسبُنا الله ونِعم الوكيل»..

إنّه صِدق اللجأ إلى المولى جل جلاله، والثقة الكاملة بكفايته جل جلاله، فلا يحتاج معه العبد إلى أحد سوى الله؛ ولهذا قالها ولده محمد ﷺ في آخر الزمان، حين أزمع المشركون على التخلُّص منه، كما أزمع الأقدمون على التخلُّص من أبيه إبراهيم؛ فعن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما قال: (**«حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ»، قالها إبراهيمُ عليه السلام حين أُلقِيَ في النّار، وقالها مُحمّدٌ ﷺ حين قِيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾** (آل عمران: ١٧٣،١٧٤))[١].

إنّ الإيمان بإبراهيم عليه السلام كما يعني التصديق برسالته، والإيمان ببلاغه؛ فهو يستصحب هذا الجهاد العظيم له في رسالته، والصبر على صنوف الأذى في القيام بها، فتشرب النفس محبّة لذلك النبيّ الكريم، وإجلالًا لتلك التضحيات الجسام، ورغبة في الاقتداء بذلك السُّلوك المُشْرِق النيّر.

جعلنا الله من أتباع الأنبياء، وحشرنا في زمرتهم يوم الدين.



(١) صحيح البخاري (٤٥٦٣).

٤/٤/١/٣ تنويع الوسائل

الإيمان بالرسل يجب أنْ يتجاوز مجرَّد التصديق بهم وبرسالتهم، إلى حُبٍّ يأخذ بشغاف القلب ومجامع النفس ويستقر في سويداء الفؤاد، واتِّباعٍ تستقيم معه الأعضاء والجوارح..

ومن هنا طاب لنا الحديث فيما سبق عن طرف من سيرة «نوح» و«إبراهيم»، في دعوتهما إلى الله .. ونتابع -إنْ شاء الله- الحديث عن طرف موجز من بلاغ النبي الخاتم «محمّد ﷺ» لأمر الدعوة، وما لاقاه في سبيلها..

وإنّما نبتغي بهذا الوصول إلى برد اليقين بالإيمان برسالته، واتّباعه عن ثقة بأنّه لا حَقّ إلّا ما أخبرنا به.

إنّ مهمّة التبليغ عن الله التي يضطلع بها المرسلون، ليست كمهمّات التبليغ التي يقوم بها البشر في الدّعوة إلى فكرة أو عقيدة ما، فغير الرُّسل يدْعون النّاس عادة إلى شيء تألفه نفوسهم وتهواه، أي: إنّهم يأتون النّاس من قِبَل ما يشتهون؛ فلا يعانون شيئًا، ولا يحتاجون إلى تضحيات جسام.

وأحيانًا يُضحّون؛ ولكنّهم ينتظرون كسبًا مادِّيًا أكثر من تضحيتهم.

وتراهم دائمًا يلاحظون السّلامة إلّا إذا أتاهم ما لم يكونوا يحتسبون.

وترى الحياة عزيزة عليهم؛ ولذا فما أسهل ما ينسون دعوتهم إذا يئسوا من الكسب أو النّصر.

أمّا الرُّسل -عليهم الصّلاة والسّلام-، فهم يبلّغون النّاس رسالة الله التي فيها ضبط نفوس البشر حتّى تستقيم على السَّنَن الصحيحة للحياة، وهم -بهذا- يدخلون في صراع مع أهواء البشر؛ فلكل إنسان هوى ورغبات وشهوات.

ويواجهون -أيضًا- طرفاً آخر من صعوبات التربية لأتباعهم الذين لم يزالوا محتاجين إلى التعهُّد والرِّعاية والثَّبات على أخلاق الرِّسالة، ومقتضيات الشّريعة.

وسنتكلّم عن طرف من الوسائل والطرق التي سلكها النبيّ ﷺ لدعوة النّاس إلى الإسلام؛ لنُطلّ سريعًا على ذلك الجهد الضخم الذي تكلّفه المصطفى - صلواتُ الله وسلامُه عليه -، ثم نتناول نماذج من مدافعة الكافرين لدعوته ﷺ ليصرفوه عنها..

فإلى النّوع الأول من هذا الحديث:

- **الوسائل والطُّرق التي سلكها النبيّ ﷺ لدعوة النّاس إلى الإسلام:**

لقد سلك - صلواتُ الله وسلامُه عليه - كل طريقة ممكنة ليصل هذا الدِّين للنّاس، بدءًا بالاتِّصال المباشر، وعرض الدّعوة على من يرجو عقله وحصافته من أقربائه وأصدقائه، فأسلم بذلك نفرٌ منهم؛ كخديجة، وعليّ بن أبي طالب، وأبي بكر الصِّدِّيق.

ثم سلك ﷺ ما هو أعمّ من هذه الصِّلة الفرديّة ، حينما أمره اللهُ بذلك

في قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) **فأتى الصَّفا، فصعِد عليه، ثم نادى: «يَا صَبَاحَاهُ». فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ، حتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا، نَادَاهُمْ بِعَشَائِرِهِمْ، قَالَ: «أرأيتُمْ لوْ أخبرْتُكم أنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الجبلِ تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، صَدَّقْتُمُونِي؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فإنِّي نذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَامَ الشَّقِيُّ أَبُو لَهَبٍ، فَقَالَ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟!.**[1]

فلمّا لم تُجْدِ هذه الوسيلةُ، أخذ - صلواتُ الله وسلامُه عليه - يغشاهم في أماكن تجمُّعاتهم؛ في سوق ذي المجاز وفي مِنًى في الحجّ، وكان يأتي كل قبيلة في مكان إقامتها؛ فنزل على بني كِنْدَةَ وكَلْبٍ وبني حَنيفةَ وبني عامر بن صَعْصَعَةَ وبني بكر بن وائل؛ فكانوا يأبَون عليه دعوته، ومنهم من كان يبلغ في قُبْحِ الرَّدِّ مبلغًا عظيمًا، ومنهم من يسأله عن الرِّياسة والملك: هل ستصير إليهم من بعد موته؟![2]

وكأنّه - صلواتُ الله وسلامُه عليه - باحث عن مُلك ورياسة يجني ثمارها مُدّة حياته ثم يبذلها مكافأة سخيّة لمن أعانه ونصره..!

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠، ٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس.

(٢) ففي سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٤ - ٤٢٥) أنّه قيل للنبي ﷺ: (أرأيت إنْ نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، فقيل له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك، فأبَوا عليه).

إنّه معنًى يستنكره كلُّ لبيب عارف بحقائق الأمور، عارف بمقادير المبادئ. ولقد صدَق شيخُ بني عامر في استنكار هذا المسلك لمّا حدّثه قومه - الطّامعون في الرِّياسة - حين سألهم عن موسم الحجّ وما جرى فيه، فقال له قومُه: **جاءنا فتًى من قريش، ثم أحدُ بني عبد المطَّلب، يزعم أنّه نبيٌّ، يدعونا إلى أنْ نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشَّيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لنا من تلاف؟ هل لِذُنَابَاهَا مِنْ مُطَّلِب**[1]**؟ والذي نفسُ فلان بيده ما تَقَوَّلَها إسماعيليٌّ قَطُّ**[2]**، وإنّها الحقُّ؛ فأين رأيُكم كان عنكم؟!**[3]

ثم خرج -صلواتُ الله وسلامُه عليه- خارج مكّة وتجمُّعاتها؛ لعلّه يجدُ أقوامًا ينصرونه ويؤيِّدونه، فرحل إلى الطّائف، ولكنّه لم يجد أُذُنًا صاغية تتدبّر الحق الذي يُلْقِيه، والحجّة التي يرسلها ناصعة قويّة لمن رام الحقّ وأراده.

كما أنّ جهده ﷺ في التبليغ لم يقف ﷺ عند هذا الحدِّ، بل أرسل رسله إلى الأماكن والأصقاع، وأرسل برسائله إلى الملوك والزعماء، حتى جاوزت تلك الرّسائل محيط الجزيرة العربيّة إلى الممالك المعروفة في عهده؛ فها هو ﷺ يرسل إلى:

---

(١) (هل لِذُنَابَاهَا مِنْ مُطَّلِب): مَثَلٌ يُضرَب لِمَا فات. وأصله من (ذُنَابَى الطّائر) إذا أفلت من الحبالة، فطلبت الأخذ. (حاشية سيرة ابن هشام ١/ ٤٢٥).

(٢) أي: ما ادَّعى النُّبُوَّة كاذبًا أحد مِن بني إسماعيل.

(٣) السيرة لابن هشام (١/ ٤٢٥)، دلائل النبوة لأبي نعيم (ص٢٨٨).

الأَصْحَم ملك الحبشة..

وإلى هِرَقْل عظيم الروم..

وإلى كِسْرَى عظيم فارس..

وإلى أُسْقُف نَجْران..

وأُسْقُف أَيْلَة وأهلها..

ويكتب إلى أهل جَرْباءَ وأَذْرُحَ[1] ..

وغيرها من الرسائل العظيمة التي كانت تعريفًا لهم بالإسلام، ودعوة إلى الدخول فيه. كما استقبل - صلواتُ الله وسلامُه عليه - الوفود الكثيرة التي تقاطرت على المدينة بشكل كبير جدًّا بعد فتح مكّة؛ فمنهم مَن آمن، ومنهم مَن استمع وعاد ليفكِّر في أمره، ويراجع نفسه؛ فكانت الوفود مِن أخصب الوسائل لتعريف النّاس بالإسلام.

وبجانب ذلك؛ فإنّ رسول الله ﷺ كَلَّف كل مَن أسلم أنْ يُبلِّغ هذه الرسالة إلى مَن لم يُسْلِم مِن قومه وعشيرته والنّاس أجمعين ..

عن البراء رضي الله عنه : **أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعثَ خالدَ بنَ الوليدِ إلى أهلِ اليمنِ يدعُوهم إلى الإسلام، قال البراءُ: فكنتُ فيمنْ خَرَجَ معَ خالدٍ، فأقمْنا سِتَّةَ أَشْهُرٍ يَدعُوهُم إلى الإسلامِ، فلَمْ يُجيبُوه، ثُمَّ إنَّ رسولَ اللهِ**

(١) (جَرْباءَ وأَذْرُحَ): في صحيح مسلم (٣٤)، هُما: (قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام). وانظر: معجم البُلدان (١/ ١٢٩، ٢/ ١١٨).

ﷺ بعثَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ وأمرَه أنْ يُقْفِلَ[(١)] خالدًا إلَّا رجلًا كانَ مِمَّنْ معَ خالدٍ فأحبَّ أنْ يُعقبَ معَ عليٍّ فلْيُعقِّبْ معهُ، قال البراءُ: فكنتُ فيمنْ عَقَّبَ معَ عليٍّ، فلمَّا دَنَوْنَا مِنَ القومِ، خرجُوا إليْنا، ثُمَّ تقدَّمَ فصلَّى بنا عليٌّ، ثُمَّ صفَّنا صفًّا واحدًا، ثُمَّ تقدَّمَ بينَ أيدِينا، وقرأَ عليهِمْ كتابَ رسولِ اللهِ ﷺ، فأسلمتْ هَمْدَانُ جميعًا، فكتبَ عليٌّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بإسلامِهم، فلمَّا قرأَ رسولُ اللهِ ﷺ الكتابَ خَرَّ ساجدًا، ثُمَّ رفعَ رأسَه، فقالَ: «السَّلامُ على هَمْدَانَ، السَّلامُ على هَمْدَانَ».[(٢)]

فتفكَّر معي: هل كان هناك أسلوبٌ كان يمكن أنْ يسلكه النبي ﷺ فلم يسلكه، أو كانت هناك جادّة تنهج فلم ينهجها؟

لَا هَاءَ اللهُ[(٣)] إلّا شيئًا لم يكنْ يستطيعه.

فصلواتُ الله وسلامُه عليه، وجزاهُ عن أُمَّته خير ما جزى نبيًّا عن أُمَّته.



(١) أي: يُرْجِع.

(٢) رواه الرُّويانيُّ في مسنده (٣٠٤)، والبيهقيُّ في السنن الكبير (٢/ ٣٦٩) ودلائل النبوّةِ (٥/ ٣٩٦) ومعرفة السنن (٤٧٤٤) مختصرًا، وصحّح سنده. وأصلُ الحديثِ في صحيح البخاريِّ (٤٣٤٩) وساق صدرَه ولم يسقه بتمامه.

(٣) (لَا هَاءَ اللهُ): أي: لا والله. انظر: مشارق الأنوار (٢/ ٢٦٤)، النهاية (٥/ ٢٣٧).

٣/١/٤/٥ صبر وبذل

كان الحديث في المقالة السّابقة عن الوسائل التي سلكها النبيُّ ﷺ في تبليغ دعوته.. والحديث في هذه المقالة عن الجهد الضخم الذي تكلَّفه المصطفى - صلواتُ الله وسلامُه عليه - وهو يدعو قومه إلى عبادة الله، وترك عبادة ما سواه، وتحمُّله ما توجَّهوا به من الأذى إليه ..

لقد عزَّ على قريش أنْ يأتيَهم محمّدٌ ﷺ بدِين غير دينهم، كما عزَّ عليهم أكثرَ أنْ يسمعوا منه -صلواتُ الله وسلامُه عليه- سبَّ آلهتِهم وعيبَها، وإظهارَ عجزِها ونقصِها؛ فأخذت تسلك في الكيد له مسالك شتّى، وتتفنَّنُ في ضُروب الأذى لتمنعَه مِن تبليغ الحقِّ الذي معه .. فها هو ﷺ يدعو قومه إلى عبادة الله، وهو مُظْهِرٌ لأمره، لا يستخفي به، مُبادٍ لهم بما يكرهون مِن عيبِ دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إيّاهم على كفرهم[1]، صابرٌ في ذلك مُحتسِبٌ، يملأ صدرَه الأمل في أنْ يُوفَّقوا إلى طريق الهداية، ويدَعوا طريق الغواية .. ولا يزال قومه ينهون عنه ويَنْأون عنه، ويتربّصون به ويترصّدونه، ويُمطرونه بصنوف البلايا، ويؤذونه بأنواع الأذايا: فأحيانًا يُغرون به سُفهاءَهم عند طوافه وصَلاته؛ فيجلس النفر منهم حيث يسمعهم ويسمعونه يُؤذونه ويسبُّونه، ويَغمزونه ويُسفِّهونه. وطورًا يرمونه بالسِّحر والشِّعر والكَهانة. وحِينًا ينالون منه بعض ما يكره

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٩).

مِن العَيب لدِينه والتضعيف لأمره. وربما بلغت بهم الشقاوة مبلغًا عظيمًا، إذْ وضعوا القاذورات على ظهره الشَّريف وهو ساجد..

وهكذا في مسالك رديّة، ومناهج وضيعة حتّى بلغ بهمُ الأمرُ أنْ تمتدَّ يدَا عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ - قُبِّحَت من يدين - إليه ﷺ وهو يُصلِّي في ظلِّ الكعبة، فيجعلُ رداءَه في عنقه ﷺ، ثمَّ يجذبُه إلى أنْ سقطَ رسولُ الله ﷺ على ركبتَيْه، فأدركه أبو بكر ﵁، ومنعه منهم وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٨).[١]

وكما كان ردّ «قريش» عليه ﷺ قبيحًا كما سَمِعْتَ، فكذلك كانت «ثَقيف»، فلم تجاوز مثل هذه المنزلة؛ فسادتها الثّلاثة الذين عَرَضَ النّبيُّ ﷺ عليهم الدّعوة[٢] يقول أحدهم: «أنا أسرق ثياب الكعبة إنْ كان الله بعثك بشيء قط»!

ويسخر الآخر قائلًا: «أَعَجزَ اللهُ أنْ يُرسِلَ غيرَك»؟!

ويتسربل الثالث بالورع الكاذب، فيقول: «**والله، لا أُكلِّمك بعد هذا كلمة واحدة أبدًا، لئنْ كنت رسولًا لأنت أعظم شرفًا وحقًّا مِن أنْ أكلِّمك**».[٣]

فلما أدركَت قريش أنّ هذا الإيذاء غير رادٍّ النبيَّ ﷺ عنْ دعوته،

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٧٨).

(٢) وهم إخوة: عبد ياليل بن عمرو، وحبيب بن عمرو، ومسعود بن عمرو. انظر: دلائل النبوّة لأبي نعيم (١/ ٢٩٥)، الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر (ص٦٢).

(٣) دلائل النبوّة لأبي نعيم (١/ ٢٩٥)، الدرر (ص٦٢).

سلكتْ معه مسلكَ الإغراءِ والمخاتَلة[1]، حتّى قال قائلهم:

«إنْ كُنتَ إنّما تريدُ بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك مِن أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا.

وإنْ كنت تريد به شرفًا سَوَّدْناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك.

وإنْ كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا.

وإنْ كان هذا الذي يأتيك رِئْيًا تراه[2] لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطِّب، وبذلنا فيه من أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنّه رُبما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه».

ويح قريش! أفقَدَت عقولها حتّى تعرض هذا العرْض الصبيانيّ على نبيّ الرسالة؟!

وهل كان المال والسؤدد والملك مَطلبًا له حتى يُغرَى به؟!

وهل الحق الذي نطقت به شفتاه، مِن جنس هذيان المجانين حتى يُطلَب لقائله الطبيب؟!

لقد أعرض نبيُّنا ﷺ عن الدخول في نقاش حول هذا العرْض المهين الذي عمي أصحابه عن الهدف السامي لهذه الدعوة، وقال لهذا المتحدِّث - وكان عتبة بن ربيعة - : «**أقدْ فرغتَ يا أبا الوليدِ؟**» قال: نعم. قال: «**فَاسْمَعْ مِنِّي**».

---

(١) (المخاتلة): المخادعة. انظر: الصحاح (٤/ ١٦٨٢).

(٢) يعني: من الجنّ يُلقِي إليك الأخبار.

قال: أفعل. فقال ﷺ قارئًا عليه: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ (فصلت: ١ - ٥).

ثمّ مضى رسولُ اللهِ ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلمّا سمعها منه عُتبةُ أنصتَ لها، وألقَى يديهِ خَلفَ ظَهْره مُعْتَمِدًا عليهما يسمعُ منه، ثمّ انتهى رسولُ اللهِ ﷺ إلى السّجدةِ منها، فسجد، ثم قال: «قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ».

لقد بلغَت هذه الآيات مِن نفس عُتبةَ مبلغًا عظيمًا حين قرعت عقله حججها، وخالطت قلبه مواعظها، فقال لقومِه -هو يعيش هذه الحالة من التأثر البالغ، وهم الذين ندبوه لهذه المفاوَضة-: «قَدْ سَمِعْتُ قولًا واللهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، واللهِ مَا هُو بالشِّعْرِ ولا بالسِّحْرِ ولا بالكهانةِ. يا معشرَ قريشٍ! أطيعُوني، اجعلُوها بِي، وخَلُّوا بينَ هذا الرجلِ وبينَ ما هُو فيه فاعتزِلُوه، فواللهِ لَيَكُونَنَّ لقولِه الذي سمعتُ منهُ نبأٌ عظيمٌ؛ فإنْ تُصبْهُ العربُ فقدْ كُفِيتُمُوهُ بغيرِكُم، وإنْ يَظهرْ على العربِ فمُلْكُه مُلْكُكُمْ وعِزُّهُ عِزُّكُمْ وكُنْتُمْ أسعدَ النّاسِ به». فقالُوا له: «سَحرَكَ واللهِ يا أبا الوليدِ لسانُه!». فقال: «هذا رأيي فيهِ، فاصنعُوا ما بَدَا لَكُمْ».[1]

---

(١) سيرة ابن إسحاق (ص٢٠٧-٢٠٨)، ومن طريقه: البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٤).

لقد يئست قريش مِن الحديث معه ﷺ؛ فلا الإغراء يثنيه، ولا الإيذاء يفتّ من عزيمته.. فلعلها تجد طريقًا آخر إلى ما تبتغيه. فعنت لها خُطَّة رُشد - كما تظن -، فجاءوا إلى عمِّه أبي طالب - الذي يحميه وينصره - يطلبون منه أنْ يكفّ ابن أخيه عنهم، فلا يغشاهم في أفنيتهم ونواديهم، فيُسمعهم ما يؤذيهم كما يزعمون.

حاول أبو طالب أنْ يجمع بين مراد قومه، ومبتغَى ابن أخيه، ولكنه وجد إصرارًا عجيبًا منه ﷺ على الصَّدع بدعوته؛ إذْ إنّ ذلك الذي يفعله أَمْرٌ أُمِرَ به لا يستطيع له رَدًّا، **فَحَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟»**. قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**مَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلُوا لِي مِنْهَا شُعْلَةً**»، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: «**مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي، فَارْجِعُوا**».[1] وفي رواية لابن إسحاق: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ظَنَّ أَنْ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيهِ، وَأَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ، وَضَعُفَ عَنِ الْقِيَامِ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَمِّ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي مَا تَرَكْتُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْ أَهْلِكَ فِي طَلَبِهِ**»، **ثُمَّ اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَكَى، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ لَهُ حِينَ رَأَى مَا بَلَغَ الأَمْرُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ:**

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٦٨٠٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٩١) والأوسط (٨/ ٢٥٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٥): (رجال أبي يعلى رجال الصحيح). وقال ابن حجر في المطالب العالية (١٧/ ٢٥١): (إسنادأبي يعلى حسن).

يُسمَّى «يوم الزحمة»، فأدارت فيه الرأي وألقت فيه المشورة، ثم أجمعت أمرها وخلَصت إلى قتل النبي ﷺ على أنْ يأخذوا من كل قبيلة فتًى شابًا جلدًا نسيبًا وسيطًا، فيعطوا كل واحد منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدون إليه، فيقتلونه دفعة واحدة فيفترق دمه بين القبائل حتى يعجز قومه عن طلب الثأر، فيرضوا حينئذ بالفداء.[1]

ولكن الله مُتمّ نوره، ومُنْجٍ نبيَّه ﷺ من كيد الكائدين.

هذه صورة موجزة وسريعة، تُوقع في النفس محبّة المصطفى ، وتُشعرها -أيضًا- بضخامة ما قام به من عبء البلاغ، وتستدعي للإيمان به معنى وراء التّصديق المجرّد، إلى الاتّباع والائتساء والمتابعة، وقبل ذلك الحبّ.

جعلنا الله من أتباعه ﷺ، ومِن السّائرين على دربه.



(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٠ -وما بعدها)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٣/ ٢٣١ - وما بعدها).

«يَا ابْنَ أَخِي! - فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ - امْضِ عَلَى أَمْرِكَ وَافْعَلْ مَا أَحْبَبْتَ، فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا».(١)

فلمّا رأت قريش إفلاس هذه الخطة في ثنيه - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه - عن تبليغ الدعوة، وسّعت دائرة الضغط عليه؛ فاستعملت مسلكًا مَشِينًا لا يسلكه إلا أصحاب النفوس الشريرة، والقلوب القاسية؛ فاجتمعوا وائتمروا بينهم أنْ يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب أنْ لا يَنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ثم علّقوا صحيفةَ الشُّؤم هذه في جوف الكعبة. واستمرت هذه المقاطعة الجائرة ثلاث سنوات متواليات أصاب بني هاشم وبني المطلب من جرائها ضنك شديد، غير أنها لم تفلح في بلوغ هدفها؛ فلا ثنت محمدًا ﷺ عن دعوته، ولا حملت بني هاشم وبني المطلب على الأخذ على يديه كما كانت تتمنّى قريش.

ثم كانت الرمية الأخيرة مِن كنانة قريش: الائتمار على قتله ﷺ .. وكانوا بدأة ذي بدء يريدون أنْ يَلِيَ هذه الجريمة أقرباؤه، فعرضوا على عمّه أنْ يقتله ويعطوه غلامًا بدله -وهو عمارة بن الوليد- لكنها خُطّة سفيهة لا يقبلها عاقل فضلًا عن رجل في مثل وزن أبي طالب رجحان عقل وقمّة وفاء.

فلمّا خابت هذه الرمية، وطاش نَبلُها، اجتمعت قبائل قريش وأشرافها في دار الندوة - التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلّا فيها -، في يومٍ كان

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٠)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٧).

٣/١/٥ الإيمان باليوم الآخر:

٣/ ١/ ٥/ ١ عناية نصوص الوحي باليوم الآخر.

٣/ ١/ ٥/ ٢ لِمَ العناية به؟!.

زمانها، محدودة في قدرة أهلها، إلى تلك الدّار المختلفة عن كل هذه الدار؛ لذّة وزمنًا وقدرة. فالموفَّق من أَوقف جُلّ همّه على التفكير فيها والعمل لها، فجعلها نُصْبَ عينيه، وسابق إليها بكل ما يستطيع لنيل درجاتها.

لقد كثر الحديث عن اليوم الآخر في نصوص الوحي على وجوه متعدِّدة، منها:

- أنه قُرِنَ بالإيمان بالله ﷻ في مناسبات متعدِّدة وسياقات شتّى مع أنه داخل في الإيمان به ﷻ من حيث الجملة:

- كما في القرن بين الإيمان باليوم الآخر والإيمان به ﷻ، وأثر ذلك على تباين أجور العاملين واختلاف درجاتهم في الآخرة، كما في قوله ﷻ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٦٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) «أي: تُعطَون جزاء أعمالكم وافيًا يوم القيامة؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر»[1]، وكما في قول شُعَيْب عليه السلام: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ (العنكبوت: ٣٦). يعني: «وارجُوا بعبادتكم إيَّايَ جزاءَ اليوم الآخِر»[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٨٨)، محاسن التأويل (٢/ ٤٧٤).

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٣٩٧).

٣/١/٥/١ عناية نصوص الوحي باليوم الآخر

ما زال الكلام موصولًا عن أهمِّ عمل من أعمال القلوب، وهو «**الإيمان**». وقد انتهى بنا الحديث إلى «**الإيمان باليوم الآخر**».

والإيمان باليوم الآخر -على سبيل الإجمال- يعني: التصديق واليقين القلبيّ بقدوم ذلك اليوم الموعود الذي أخبر الله ﷻ به وأخبر به رسوله ﷺ. ذلك اليوم الذي يُنفَخ فيه في الصُّور، فيخرج الخلائق من قبورهم، ويقفون موقف القيامة العظيم، فيَقضِي الله بين عباده، وهو أحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين.

ومَشاهد ذلك اليوم كثيرة ومُفزعة: من الحشر، إلى نشر الصحف، ومحاسبة الخلائق، وضرب الصراط، ووضع الموازين، وورود حوض المصطفى ﷺ الذي يكرم الله المتّقين بالشرب منه فيقطع عنهم الظمأ، ثم يكون العباد بعد ذلك فريقين: فريق في الجنّة، وفريق في السّعير.

كما يتضمّن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بما وردت به الأخبار من أشراط الساعة وأماراتها الدالّة على قرب وقوعها، والإيمان بما ورد من أحوال المحتضرين عند الموت، وبعد موتهم في قبورهم من السؤال والفتنة، والنّعيم أو العذاب.

اليوم الآخر، هو: النُّقلة الأبديّة إلى الدار التي لا تضمحلّ، والمقام الذي لا ينقطع. إنّه الرحلة من عيشة محدودة في ملذّاتها، محدودة في

- والإيمان باليوم الآخِر قُرِن مع الإيمان بالله تعالى في معرض بيان أعظم صفات المؤمنين، وهي أنّهم لا يوادُّون مَن أعلن منافرة الدِّين وأظهر عداوته، بل إنّهم يتبرّؤون منه ولا يوالونه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة: ٢٢).

- والإيمان باليوم الآخر قُرِنَ بالإيمان بالله تعالى في كونهما سببَي الاتّعاظ، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ (البقرة: ٢٣٢). وكذلك في كونهما علامتَي الانقياد لأحكام الله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ (التوبة: ١٨).

ومِن علامات هذا الانقياد: ما يتجلّى مِن حال المؤمنين بالله واليوم الآخر حينما ينفقون أموالهم طواعيةً لله ﷻ؛ ابتغاء مرضاته، وطلبًا لثوابه، بخلاف مَن أعرض عن هذا الإيمان؛ فإنّه يغلّ يده عن النفقة، أو يخرجها يوم يخرجها طلبًا للسمعة وابتغاء الذِّكر بين النّاس، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٨ - ٣٩).

ومِن علامات الانقياد كذلك: ما ثبت في الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1]، وحديث: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً»[2].

وقد جاء القرن بينهما كذلك في معرض بيان حقيقة البرّ، وأنّ أهم ركائزه الإيمان بالله واليوم الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وإذا كان الإيمان باليوم الآخر سببًا لحصول هذه المكرمات، فإنّ التخلّي عنه - والعياذ بالله - سبب لوقوع العقوبات والمكروهات، كما قال عزّ من قائل: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (التوبة: ٢٩).

▪ والوجه الثّاني المبين عن كثرة نصوص الوحي عن اليوم الآخِر:

أنّه ورد في تفصيل أحوال هذا اليوم ما لم يرد في تفصيل غيره، والقرآن الكريم ملآن بذِكر هذه التفاصيل بألفاظ متنوعة، وأساليب شتّى، ومقامات مختلفة:

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٠٤ و ١٨٣٢ و ٤٢٩٥)، ومسلم (١٣٥٤) من حديث أَبِي شُرَيْحٍ العَدَوِيِّ رضي الله عنه.

- فأحيانًا يقع الحديث عن الجنة وأحوال أهلها، وما أكرمهم الله به من النعمة التي لا تنقطع، والسرور الذي لا يتكدَّر..

- وأحيانًا يقع الحديث عن أهل النار؛ عن طعامهم الخبيث، وشرابهم النَّتِن، وحالتهم التّعيسة، وما يَلْقَوْنَه من صنوف العذاب الأليم، وما يقع مِن تلاومهم وتعاتبهم وتمنِّيهم الرجعة، حتى تنقطع بهم الآمال، ويصير غاية ما يتمنَّون: القضاء السرمدي، والموت الأبدي.

- وأحيانًا يقع الحديث عن الصُّحف التي أُحصيت فيها أعمالُ العباد صغيرُها وكبيرُها، حتّى إنّ العبدَ ليفزعُ من هذا الإحصاء الدّقيق: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ (الكهف: ٤٩).

- وأحيانًا يقع الحديث عن أحوال المخلوقات حين قيام الساعة؛ كحال السّماوات والأرض، وحال الجبال والبحار، وحال الإنسان والحيوان؛ مما يوقع في القلب ذلك الخوف الشّديد من ذلك اليوم العظيم.

▫ وثمّة وجهٌ ثالث كثر الحديث به عن اليوم الآخر في النُّصوص الشّرعيّة:

وهو تعدُّد أسماء ذلك اليوم، وتنوّع مدلولاتها، وتميُّز فحواها، وما تُلقيه من ظلال في النّفس، وما تُحدِثه مِن دهشة للعقل، واستثارة للوجدان .. ومن هذه الأسماء: يوم القيامة، والسّاعة، والآخرة، ويوم الدِّين، ويوم الحساب، ويوم التّلاق، ويوم الجمع، ويوم التّغابن، ويوم الخروج، ويوم

الخلود، ويوم الحسرة، ويوم التّناد، ويوم الآزفة، ويوم الطامّة، ويوم الصّاخّة، والحاقّة، والغاشية، والواقعة.. وغيرها من الأسماء.

نسألُ اللهَ النّجاةَ في ذلك اليوم، والتوفيقَ للاستعداد له.



٢/٥/١/٣ لِمَ العناية به؟!

قد ذكرنا وجوهًا من عناية النّصوص الشرعية بركن «الإيمان باليوم الآخر».

وسنذكر - بإذن الله تعالى - طرفًا من أسباب العناية بهذا الإيمان..

إنّ الله ﷻ جعل هذه الدّار دار امتحان واختبار، يَبتلي فيها العباد بالشّهوات تارة، وبالشّبهات تارة أخرى، لكن الله لم يتخلَّ عن عباده؛ فأنزل الكتب، وأرسل الرسل مبشّرين ومنذِرين؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢).

وكان من أعظم الرّكائز للطّاعة المستبصرة من العبد لأوامر ربه ﷻ «الإيمان باليوم الآخر»؛ فإنّ هناك فرقًا واضحًا بين من يؤمن بأنّ هناك دارًا أخرى ينال فيها المطيع ثوابه وينال فيها العاصي عقابه، ومن لا يؤمن بتلك الدّار:

- فالأول منضبط في سلوكه وتصرفاته؛ لأنّه على يقين مِن أنّه موقوف بين يدي الإله الحق الذي لا يساوي بين المتقين والمجرمين، ولا يماثل بين أهل الاستقامة وأهل الانحراف، وإنّما يَقْدُر كل فريق قَدْره، ويُنزل كل فريق منزلته: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨)، ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ٨ - ٩).

وهذا المؤمن باليوم الآخر على يقين - كذلك - أنّ مقامات الفلاح أو الخسار في الآخرة، مرهونة بمقدِّمات الصّلاح أو الفساد في الدُّنيا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠).

غَدًا تُوَفَّى النُّفُوسُ مَا كَسَبَتْ ... وَيَحْصُدُ الزَّارِعُونَ مَا زَرَعُوا

إِنْ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لِأَنْفُسِهِم ... وإِنْ أَسَاؤُوا فَبِئْسَ مَا صَنَعُوا

▪ وعلى النَّقِيض مِنْ هذا: ذاك الذي لا يُؤمِنُ بهذا اليوم الآخِر، ولا يُقِيمُ له وزنًا، فإنَّه لن يحول بينه وارتكاب الظلم والعدوان إلّا عجزه أو خوفه أو بعض بقيّة مِن الفطرة لديه، ولن تكون دوافع الخير في نفسه بتلك القوة التي تحمله على فعل أنواع البر وشرائع التقوى. وقد كثر في القرآن الكريم الربط بين الإيمان باليوم الآخر وصلاح العباد، والرّبط بين الكفر باليوم الآخر وفساد العباد، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ (المدثر: ٣٨ - ٥٣)، ويقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المطففين: ١ - ٦)،

ويقول تعالى أيضًا: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (الماعون: ١ - ٣).

أرأيت ترك الصّلاة، وقسوة القلب المتمثّلة في عدم العطف على المساكين، وإرسال اللسان كيفما اتفق في الخوض والكلام الباطل؟!

ثمّ أرأيت التّطفيفَ في الموازين، وتنكُّبَ العدل في البيع والشِّراء، والنَّهرَ في وجوه اليتامى المكسورين، ويُبْسَ الأكُفِّ عنْ إطعامِ المساكين .. إنْ كُلّ ذلك إلّا ثمار خبيثة، وأوزار وبيلة، وأدواء وخيمة؛ جَرَّ إليها التكذيب بيوم الدِّين.

وعلى عكس أولئك المكذِّبين باليوم الآخِر: نجد المؤمنين به؛ يُقبلون على كل خير ويسارعون إليه، ويستدبرون كل شر وينأون عنه؛ فهم أحرص النّاس على خير، وأمثلهم حَذْوًا بالنبيِّ ﷺ الذي جعله ربُّه ﷻ مِن أبرز العلامات على رجاء اليوم الآخر: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١).

وهؤلاء هم المنقادون لمواعظ الحق ﷻ في أمورهم كلها، وكمثال على ذلك: أمر الأسرة والتعامل مع الزوجة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (الطلاق: ٢).

وهم المحافظون على صلواتهم؛ برعاية أوقاتها، ورعاية كمالها

وخشوعها، وصيانتها مما يخدشها وينقص مِن أجرها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٢).

ولعلّ من حِكَم الاعتناء بالإيمان باليوم الآخر: أنّ النّفس البشريّة تنسى كثيرًا ذلك الموعد الحق. وفي جواذب الطبيعة، ودواعي الشّهوة، ما يؤدّي إلى هذا النّسيان؛ ولذا نجد في كتاب الله ﷻ صورًا من الحضّ على التعالي على هذه الجواذب، والتسامي عن هاتيك الدّواعي، واستحضار ذلك الموعود الحقّ من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١).

وفي آية أخرى يحقر الله الرّضا بالحياة الدّنيا ومتاعها الذي يحول بين المرء ورؤيته لنعيم الآخرة وسرورها، فيقول عزّ مِن قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨).

نسأل الله الكريم أنْ يحيي قلوبنا بالإيمان باليوم الآخر، وأنْ يصلح أعمالنا ونيّاتنا بتذكُّر ذلك اليوم العظيم، وأنْ يرزقنا الاستعداد لما هنالك؛ إنّه هو الموفِّق الهادي.



٣/١/٦ الإمان بالقضاء والقدر:

٣/ ١/ ٦/ ١ سِرُّ الله في خَلقه.

٣/ ١/ ٦/ ٢ نظام التّوحيد.

١/٦/١/٣ سِرُّ الله في خَلقه

سبق الحديث عن بعض أركان الإيمان، فذكرنا: «**الإيمان بالله**»، و«**ملائكته**»، و«**كتبه**»، و«**رسله**»، و«**اليوم الآخر**».

وسنتناول **الرُّكن السّادس** من أركان الإيمان، وهو «**الإيمان بالقَدَر**»؛ فقد قال ﷺ وهو يُعلِّم من سأله عن الإيمان: «... **وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه**».[١]

والإيمانُ بالقدَر: هو اليقين الجازم بأنّ الله ﷻ قدّر الأشياء في الأزل، وعَلِمَ ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة، وعلى صفات مخصوصة، فهي واقعة على حسب ما قدّرها سبحانه.[٢]

وهذا التقدير السّابق واقع على أتم الدقة، وأوفر العلم؛ فهو تقدير يتناول كل ما خَلقَ اللهُ مِن الأشياء: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢).

وهو تقدير يتناول الكمّ والكيف للمخلوق: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨)، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١)، وقال أيضًا: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (المؤمنون: ١٨)، وقال أيضًا: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ١٢).

---

(١) رواه مسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٤)، لوامع الأنوار البهيّة (١/ ٣٤٨).

كما يتناول تقديره ﷻ للأشياء؛ تقدير آجالها ومواقيتها، بدءًا وختامًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤).

وقال في أمر الشمس: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٨، ٣٩).

إذًا؛ فالقدَر: تحديد ماهيّات وخاصيّات وأعراض الخلائق وأفعالها، مع تحديد حدوث الخلائق زمانًا ومكانًا، وكيفية أفعالها في زمان ومكان محدَّدين بذلك، وكل هذا التحديد الدّقيق كائن قبل حدوث هذه الأشياء.[1]

والصُّورة الشّرعية للإيمان بالقدَر هي حصيلة المركب الآتي التي إذا اجتمعت صار العبد بها مؤمنًا بالقدَر وإلّا فلا ..

▪ فأوّل عناصر هذا المركب: اليقين بعلم الله السّابق بكلّ مخلوقاته، وأحوالها قبل وجودها..

وعِلْم الله ﷻ علم جليل، وصَفه الباري ﷻ بقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٣).

ووصف ﷻ علمه في مواطن أُخر بالشُّمول الذي لا يُداخله استثناء، فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢).

---

(١) انظر: د.فاروق أحمد الدسوقي: القضاء والقدر (١/ ٣٢٣ - ٣٢٤).

وعِلمه ﷻ يتناول: عالَم الغيب -وهو ما خفي على العباد-، وعالَم الشهادة -وهو ما يدركونه بحواسّهم-: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ (الحشر: ٢٢)، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩).

هذا العِلم المحيط ينفي -نفيًا تامًّا- أحقيّة الاعتراض على شيء من قدر الله؛ ولهذا عاب الله على المشركين اعتراضهم على اختيار محمد ﷺ للرِّسالة، وأحالهم ﷻ على علمه، فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وبيّن أنّ القلوب والعقول في قبولها للهدى وإعراضها عنه، تحت علمه ﷻ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

والمقدَّرات على العباد ممّا يحبُّون ويكرهون؛ إنّما يدركون منها الوجه الظّاهر، ولكن باطنها مختصّ به ﷻ لا يعلمه أحد سواه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

بل إنّ بدء خَلْق الإنسان قوبل بشيء من الاستغراب من الملائكة في حكمة خَلْقه، فأحال الله ﷻ ملائكته على علمه، ثم أظهر لهم ذلك العلم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣).

▪ وثاني عناصر هذا المركب: هو أنّ هذه المقادير قد سُجِّلت وكُتبت عنده ﷻ في كتاب لا يناله تغيير ولا تحريف ولا تبديل: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس: ١٢)، والإمام المبين هو اللوح المحفوظ[1]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (فاطر: ١١).

إنّ العبد ليندهش وهو يتصوّر ذلك الكتاب العظيم الذي سُجِّلت فيه حركة الكون: بسمواته وأرضه، بجباله وأشجاره، ببحاره وأنهاره، بطيوره وحيواناته ... وسُجِّلت فيه حركات العباد: مؤمنهم وكافرهم، تقيّهم وشقيّهم؛ ولكنك إذا استحضرت عظمة الخالق هان عليك عِظَم هذا المخلوق؛ ولهذا ختم الله وصف ذلك الكتاب بقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

▪ وثالث عناصر هذا المركب: أنّ الله اقتضت مشيئته النّافذة، وإرادته التي لا رادّ لها، وقوع هذه الأشياء المقدَّرة؛ لحِكَم عظيمة، ومنافع جمّة؛ فمن تلك

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٦٨، ٧/ ٢١٨).

المقدَّرات ما يحبها الله؛ كالإيمان، والإحسان إلى الخَلق، وبذل المعروف.

ومنها ما يكرهه الله؛ كالكفر، والظُّلم، والتعدِّي على حقوق العباد، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٩)، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣-٢٤).

■ **ورابع عناصر هذا المركب**: أنّ الله خلق كل شيء؛ فهو الذي خلق هذا الإنسان، وأقدره على إرادة الأفعال، وأمدّه بالقوة التي يوجد بها الفعل، ورتب المسببات على الأسباب، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر: ٦٢)، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦).

فإذا استجمع العبد هذه المركّبات الأربعة؛ فقد استكمل الصُّورة الشّرعيّة المكتملة للإيمان بقدَر الله ﷻ.



٣/١/٦/٢ نظام التّوحيد

سبق أنّ «**الإيمان بالقدَر**» -الذي هو أحد أركان الإيمان- يتركّب من أربعة عناصر:

أولها: الإيمان بعِلم الله المحيط.

وثانيها: كتابته ﷻ لكل ما هو كائن.

وثالثها: أنّه له ﷻ المشيئة التامّة، والقدرة الشّاملة، فلا يقع في هذا الكون إلّا ما شاء ﷻ وقوعه.

ورابعها: أنّ كل ما سوى الله مخلوق له ﷻ لا يشذّ عن ذلك شيء.

والإيمان بالقدر: نظام التوحيد، وبه يعيش العبد هذه الحياة الدنيويّة بعيدًا عن الاضطراب النفسيّ، والقلق والحيرة التي تستولي على المعرضين عن الله.

فاليقين بعلم الله المحيط: يوجِد في قلب العبد الثقةَ بمولاه، وأنّ وراء ما يشاهده من الأمور وجهًا آخر لا يدركه إلّا صاحب العلم المحيط، وهو الحق ﷻ.

من ذا الذي يحب المرض أو يأنس بالمصائب؟!

إنّ فطرة البشر تكره المؤذيات، غير أنّ المؤمن يعلم أنّ هناك شيئًا لا يعلمه إلّا الله، وهو الخير الذي استتر عنه؛ ولذا يقول المصطفى ﷺ في بيان هذا الأمر: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا**

لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ، شَكَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». [١]

ولنتأمّل في هذه الحادثة التي يصفها أمرها سهل بن حُنَيْف رضي الله عنه، وكيف ينطبق عليها ما قدّمنا من الوصف. قال سهل رضي الله عنه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ؛ لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ لَرَدَدْتُهُ». [٢]

وعنه رضي الله عنه بلفظ أطول، قال: (أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ! لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، وَذَلِكَ فِي الصُّلْحِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا» ... إلى أنْ قال: فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْفَتْحِ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ، فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ). [٣]

---

(١) رواه مسلم (٥٣١٨) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣١٨١ و٧٣٠٨)، ومسلم (١٧٨٥).

(٣) رواه مسلم (١٧٨٥).

لقد ضاقت نفس عمر ونفوس قوم آخرين كسهل بن حُنَيْف؛ لعدم إذنه ﷺ بمقاتلة المشركين. كان عمر ومن معه يَصدرون عن علمهم ومعرفتهم، وكان النبي ﷺ يصدر عن عِلمه بالله وثقته به وحفظه له، وأنّ ما أراده ﷻ وقدّره خير له - وقد كانت حقيقة الأمر على ذلك - حتى وَصفُ الله ﷻ ذلك الصلح الذي ضاقت به صدور بعض المؤمنين بأنّه فتح، وهو كذلك؛ فقد آمَن الناس على نفوسهم، وتفرّغوا للتفكير في أمر هذا الدِّين، فدخلوا فيه بأعداد تفوق من دخل فيه قبل ذلك الصلح، مع أنه صلح لم يستمر أكثر من عامين.

الإيمان بالقدَر: هو الذي يقيم الحياة على الاستقامة في طلب الأرزاق دون جشع وتكالب. فالمؤمنون بالقدَر يسيرون في مناكب الأرض يبتغون من فضل الله، ولكن ابتغاءهم للرزق لا يحملهم على ما لا يحمل من وسائل الكسب؛ لأنّهم مستيقنون أنّهم لن يدركوا إلّا ما قدّره الله لهم. وفي حديث جابر رضي الله عنه عنه ﷺ أنّه قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ**»[1].

---

(١) رواه ابن ماجَهْ (٢١٤٤)، وابن الجارود في المنتقى (٥٥٦)، وابن حبّان في صحيحه (٣٢٣٩ و٣٢٤١).

و(إجمال الطلب): هو أن يطلبه من الحلال مُعْتَمِدًا على الله ﷻ، ولا يلاحظ في طلبه قواه ومكايده وحيله ولا يطلبه من الحرام. انظر: شعب الإيمان (٢/ ٤٠٦).

ومن هنا نهى ﷺ عن وسائل للكسب مُشعرة بالهلع والطمع في جلب الرِّزق، وعدم الثقة بما قدّره الله ، كما في قوله ﷺ: **«لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ، دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقُ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ»**.[1]

فالأصل أنْ تُترك السِّلَع حتى يَهبط بها أصحابها إلى السُّوق، فيقع بسبب ذلك رِفْقٌ بالمشتري وحظٌّ للبائع. وأمّا إذا تلقّف النّاس البائع قبل أنْ يَهبط إلى السوق، فربّما خدعوه بشراء سلعته بأقل من ثمنها نظرًا لجهله بالسُّوق، وضيّقوا على سائر النّاس نظرًا لتكاثر السِّلَع في أيد معينة محدودة.

الإيمان بالقدَر: هو الذي يدفع المؤمنين إلى ساحات الجهاد طلبًا لمرضاة الله، دون أن يقعدهم الخوف، أو يستولي عليهم الجبن؛ فهم موقنون بأنّ الآجال مُقدَّرة لا تزيد ولا تنقص، وأنّ الأعمار مضروبة لا تتقدّم ولا تتأخّر، فلن يغادر عبد دنياه قبل أنْ يَمضي كتابه، ولنْ يؤخّره عن أجله تقاعسه واحتجابه؛ فعنه ﷺ أنه قال: **«مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ»**.[2]

---

(١) رواه مسلم (٢٧٩٩).

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٩).

الإيمان بالقدَر: يمنع العباد من الانشغال بالتّثريب على بعضهم - إذا لم يكن ثَمّ تقصير -؛ لأنّه لم يحصل لهم ما كانوا يبتغونه؛ فقد يريد النّاس مساعدتك فيما أنت فيه، ولكنهم لا يوفّقون لذلك؛ لأنّ قدَر الله السّابق أنّهم لا يستطيعون مساعدتك، فلا تعودنّ عليهم بلوم، كما لا تعودنّ على نفسك باللّوم إذا لم يتحقّق لك ما تريد، مع عدم تقصيرك في تحصيل ذلك المراد، يقول ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».(١)

إنّ العبد المؤمن بالقدَر لا بُدَّ له من اليقين بحقيقتين:

أولاهما: أنّ الله حَكَم عدْل، لا يظلم أحدًا من العباد؛ فهو لم يجبرهم على أفعالهم، بل أعطاهم إرادة واختيارًا يحاسَبون عليها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦)، ويقول أيضًا: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).
وقوله: (فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان): بإلقائه في القلب الوسوسة ومعارضة القدَر. (انظر: مرقاة المفاتيح ٨/ ٣٣١٩). قال الطِّيبيُّ في شرح المشكاة (١٠/ ٣٣٣٥): (وقد جاء استعمال «لو» في الماضي، كقوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسُق الهدي»، فالظاهر: إنّما وَرَدَ ذلك فيما لا فائدة فيه، فيكون نهي تنزيه، لا تحريم. وأمّا من قاله متأسِّفًا على ما فات مِن طاعة الله، أو هو معتذرٌ مِن ذلك، فلا بأس به، وعليه يُحمَل أكثر استعمال «لو» الموجودة في الأحاديث).

والحقيقة الأخرى: أنّ الإيمان بالقدَر لا يعني بحال القعود عن العمل، بل إنّ من ثمراته الجدّ في العمل؛ ولذا قال ﷺ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٥ - ١٠).[1]



(١) رواه البخاري (٤٩٤٥ و٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه.

٣/٢ الإخلاص

٣/ ٢/ ١ مَن هم المخلصون؟

٣/ ٢/ ٢ سادة الإخلاص.

٣/ ٢/ ٣ الثمرات المباركة.

٣/٢/١ مَن هم المخلصون؟

من أعظم أعمال القلوب وأزكاها: عمل «الإخلاص لله ربّ العالمين» في الأقوال والأفعال، وجميع الشّأن والأحوال. فينقاد العبد في أعماله انقيادًا خالصًا لله ومحبّةً له، ورغبةً في ثوابه وخوفًا من عقابه. فهو لا يتصنّع لمخلوق، أو يتجمَّل لإنسان؛ رجاء محمدة، أو خشية مذمّة، أو طلبًا لصيت أو شهرة؛ بل يؤذيه أنْ يُمْدَح في وجهه، أو يَسمع كثرة الثناء عليه، أو المبالغة فيه.

فالمخلِص: مُقْبِلٌ على ربِّه في جميع عباداته وطاعاته؛ من صلاة، وصوم، وزكاة، وحجّ.. إلى غير ذلك مِن أعمال البر ..

ليس يشغل قلبه إلّا الخوف من أنْ يُرَدّ عليه عمله، أوْ أنْ يُحرَم ما كان يرجوه مِن ثوابه؛ ولذا ينتفي عنه الرياء في همّته التي دفعته إلى العمل، وينتفي عنه الرياء في أثناء عمله إذا أحس بعلم الناس به، وينتفي عنه العُجب بعمله بعد أن يفرغ منه.

المخلِصون حقًّا: هم الذين لا يتّخذون من أعمالهم الصّالحة مطايا يصلون بها إلى قضاء حوائجهم، أو استدرار مدح الناس أو كسب أموالهم، أو استخدامهم في قضاء مآربهم بالخدمة والشّفاعة ونحوها.

المخلِصون: هم الذين لا يبتغون أنْ تمتلئ القلوب بمحبتهم؛ فإنهم على يقين أنّ الله إذا أحبهم قذف المحبة في قلوب عباده لهم.

المخلِصون: هم الذين لا يرغبون في الأعمال الصّالحة أو يرغبون عن

الأعمال السّيئة، طمعًا في ثناء العباد عليهم ومِدْحَتِهم، أو خوفًا مِن مَذَمَّتِهم وتنقُّصهم.

فالمخلِص: مصبوغٌ بماء الإخلاص الذي تخلّل جميع ذرّاته الباطنة والظّاهرة، حتى صار خالصًا لله وحده، فلسان حاله ومقاله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣).

ومِن بركات الإخلاص: أنّ من التمس رضا الله ﷻ في أمر من الأمور وإنْ كان ذلك مما يُسخِط عليه النّاس، أنّ الله تعالى يَرضَى عليه، ويُلين قلوب العباد له حتّى يرضوا عنه؛ فعن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**».[1] والجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربّك أحدًا.

وعلى كلٍّ؛ فالإخلاص مأخوذ من الخلوص، وهو النّقاء من الشّوائب المكدِّرة للصَّفو. وإنّما يتكدَّر العمل الصّالح، ويذهب صفاؤه؛ بنسيان الخالق، والالتفات إلى مطالعة الخلق.

وقد أمر الله ﷻ بالإخلاص في كتابه، فقال: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (البينة: ٥)، وقال أيضًا: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٧٦).

وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (غافر: ١٤)، وقال أيضًا: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (غافر: ٦٥)، وقال أيضًا: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الأعراف: ٢٩)، وقال أيضًا: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ١١).

وامتلأت السُّنَّةُ بالأحاديث المبيِّنة لهذا المعنى؛ من مثل ما رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».[1]

فالهجرة عمل ظاهر يتفاوت النّاس في باطنه؛ فمنهم مَن يهاجر إلى ربِّه ﷻ قاصدًا مرضاته، ومنهم مَن يهاجر إلى حظِّه ومتاع نفسه قاصدًا إصابته والنَّيل منه. وإنَّما الهجرة الشرعيّة الذي يثاب عليها صاحبها ويجني مِن ثمراتها، هي التي تكون خالصة لوجه الله ﷻ.

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**».[2]

---

(١) رواه البخاري (٥٤ و٢٥٢٩)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والمعنى: أنّ الأعمال الظاهرة وحدها لا تحصل بها التقوى، وإنّما تحصل ابتداءً بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته.

ومقصود الحديث: أنّ الاعتبار في هذا كلّه بالقلب، وهو من نحو قوله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**».[1]

وسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**».[2] فلمّا كان الجهادُ ذِرْوَةَ سَنَام[3] الإسلام، لم يَقبل الله من المجاهد أنْ يجعل نيّته لشيء سواه من الحميّة والشّجاعة والسُّمعة؛ فالله ﷻ غنيٌّ عن عباده، ولا يَقبل من عملهم إلّا ما كان خالصًا لوجهه، وفي الحديث القُدْسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».[4]

ومعناه: أنا غنيٌّ عن المشاركة، فمَن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير. والمراد: أنّ عمل المرائي باطلٌ لا ثواب فيه، ويأثم به.[5]

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنه. وانظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٢١).

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤).

(٣) يعني: أعلى موضع في الإسلام وأشرفه. جامع الأصول (٩/ ٥٣٦).

(٤) رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) شرح النووي على مسلم (١٨/ ١١٥ - ١١٦).

وقد كان الصّالحون مِن سلف هذه الأُمّة يُخفون أعمالَهم خوفًا مِن أنْ يَشوبَها الرِّياء، فتردّ عليهم أو أنْ يُنتقَص مِن إخلاصها وثوابها؛ فهذا الإمام عبد الله بن المبارك شيخ الإسلام في وقته، وعالم مَرْو، يقول عنه محمد بن أَعْيُن - وكان صاحبه في أسفاره -: «كان ذات ليلة، ونحن في غَزاة الروم، ذهب ليضع رأسه ليريني أنه ينام، فقلت: أنا برمحي في يدي قبضت عليه، ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام كذلك، فظنّ أنّي قد نِمْتُ، فقام فأخذ في صلاته، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أَرْمُقُه، فلما طلع الفجر جاء فأيقظني، وظنّ أني نائم، وقال: يا محمد. فقلت: إني لم أنم. قال: فلما سمعها مني ما رأيته بعد ذلك يكلمني، ولا ينبسط إليّ في شيء من غَزاته كلها، كأنّه لم يعجبه ذاك منِّي لِمَا فَطِنْتُ له من العمل. فلم أزل أعرفها فيه حتى مات. ولم أر رجُلًا قط أسَرّ بالخير منه». (١)

وهذا مَثَلٌ آخر للاستسرار بالعمل عن أخصِّ خاصّة الإنسان، إنّه حسّانُ بْنُ أبي سِنَان البصريّ، أحد عُبّاد التّابعين، تتحدّث عنه زوجته، فتقول: «كان يَجيءُ فيدخلُ في فِراشي، ثم يُخادِعُني كما تُخادِعُ المرأةُ صَبيَّها، فإذا عَلِمَ أنِّي نِمْتُ سَلَّ نَفْسَهُ، فخرج، ثم يقومُ فيُصلِّي. قالت: فقُلتُ له: يا أبا عبدِ الله! كَمْ تُعَذِّبُ نَفسَك، اُرْفُقْ بنفسِكَ، فقال: اُسكُتِي، وَيْحَكِ، فيوشِكُ أنْ أَرقُدَ رَقدةً لا أقومُ منها زمانًا». (٢)

---

(١) الجرح والتعديل (١/ ٢٦٦ - ٢٦٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التهجُّد (١١٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١١٧).

ومن العجَب أنْ يُوفَّق بعضهم لإخفاء عمل مُتعدٍّ، الأصل أنْ يبدو ويُعلَم، ولو إلى مَن وصل إليه ذلك العمل، ومع ذلك لا يُعلَم. فالصَّدقة الأصل فيها أنْ يَعلمَ المتصدَّق عليه بها، ولكن هذا زَين العابدين عليّ بن الحُسَين -رحمه الله- كان يَحمِلُ جِرابَ الخبز على ظهره بالليل، فيتصدَّق به، ولا يعلمون مَنْ هو ذلك المتصدِّق، وقد كان ذلك دأْبه -رحمه الله-؛ حتى إنّهم لمّا غسّلوه جعلوا ينظرون إلى آثارٍ سوداءَ بظهرِه مِن أثرِ حَمْلِ جُرُبِ الدّقيق ليلًا يُعطيها فقراءَ المدينة.[1]

كانت صدقته رحمه الله سرًّا بينه وبين ربه، حتى إنهم كانوا يُبَخِّلونَه- أي: ينسبونه إلى البخل -؛ لأنهم لا يرون صدقته ظاهرة، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة.[2] يقول محمد بن إسحاق: «كان ناسٌ مِنْ أهلِ المدينة يعيشون، لا يدرونَ مِنْ أينَ كان معاشُهم، فلمّا ماتَ عليُّ بنُ الحُسَينِ، فقدوا ما كانوا يُؤْتَوْنَ بِه في الليل».[3] وهكذا: لم يزل المخلصون خائفين من الرِّياء الخفيّ، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها، رجاء أنْ يَخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم. وشوائب الرياء الخفيّ كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أنْ يُطَّلَعَ على عبادته أوْ لا يُطَّلَع، ففيه شُعبة

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٣/ ١٣٥ - ١٣٦).

(٢) انظر: الطبقات لابن سعد (٥/ ٢٢٢)، حلية الأولياء (٣/ ١٣٦).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ١٣٦).

من الرياء، ولكنْ ليس كل شَوب مُحبِطًا للأجر، ومُفسِدًا للعمل، بل يُنظَر إلى قَدْر قوّة البواعث:

- فإنْ كان الباعث الدينيّ مساويًا للباعث النفسيّ، تقاوما فتسقطا وصار العمل لا له ولا عليه.

- وإنْ كان باعث الرِّياء أغلب وأقوى، أضرّ وأوجب العقاب أيضًا، لكن عقابه أخفّ من عقاب العمل الذي تجرّد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرُّب.

- وإنْ كان قصْد التقرُّب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر، فله ثواب بقدر ما فضَلَ مِن قوّة الباعث الدينيّ؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (الزلزلة: ٧ – ٨)؛ ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (النساء: ٤٠). فلا يضيع قصد الخيروإذا عَقَدَ العبدُ العبادةَ على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء؛ فلا يخلو إمَّا أن يرد عليه بعد فراغه من العمل[1] أو قبل الفراغ:

- فإنْ ورد بعد الفراغ سرور بمجرَّد الظهور من غير إظهار؛ فهذا لا يُفسِد العمل؛ إذْ العمل قد تمّ على نعت الإخلاص سالمًا عن الرياء، إلَّا

(١) قال ابن القيّم في طريق الهجرتين (ص ٣٦٨): (الرياء لا يكون إلّا مقارنًا للعمل؛ لأنّه «فعال» مِن الرؤية التى صاحبها يعمل ليرى الناس عمله، فلا يكون متراخيًا).

إذا ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدَّث به وأظهره، فهذا مَخُوف، وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه مُحْبِط.

- وأمَّا إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من العمل، وكان عُقِدَ على الإخلاص:

- فإنْ كان مجرد سرور فلا يؤثِّر في العمل وعليه أنْ يجتهد في دفعه.

- وإنْ كان رياءً باعثًا على العمل وختم العبادة به، حبط أجره؛ لأنّ الواجب عليه أداء العمل خالصًا لوجه الله، والخالص ما لا يشوبه شيء، فلا يكون مؤدِّيًا للواجب مع هذا الشَّوب.

- وأما الرياء الذي يقارن حال العقد، كأنْ يبتدئ الصّلاة على قصد الرياء:

- فإن استمرّ عليه حتى سَلَّمَ، فلا خلاف في أنه يَقضِي ولا يَعتدّ بصلاته.

- وإنْ ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام، فالأرجح أنه لا تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف؛ لأن باعثه في الرياء في ابتداء العقد دون امتثال الأمر، فلم ينعقد افتتاحه، فلم يصحّ ما بعده.[1]



(١) انظر: إحياء علوم الدِّين (٣/ ٣٠٠ - وما بعدها)، منهاج القاصدين (ص٩٧٤ - ٩٧٥)، ومختصر منهاج القاصدين (ص٢٢٠ - ٢٢١)، وموعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (ص٢٣٨).

٢/٢/٣ سادة الإخلاص

خَيرُ مَن تـمثّل صفة الإخلاص، أنبياءُ الله ﷺ ورسلُه، وقد مدحهم ﷺ بهذه الصفة الجليلة، والخَلّة العظيمة، من ذلك قول الله ﷺ في شأن نبيِّه موسى عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ (مريم: ٥١).

وقوله: ﴿مُخۡلَصٗا﴾ قُرئ في السَّبع: بفتح اللام وبكسرها[١] فبفتحها: على معنى أنّ الله اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين، وبكسرها: على معنى أنه مخلِص لله تعالى في جميع أعماله، وأقواله ونياته؛ فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله.

والمعنيان متلازمان؛ فإنّ الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجلّ حالة يوصف بها العبد: الإخلاص منه، والاستخلاص من ربِّه له.[٢]

وكذا جاء هذا الوصف لنبيِّ الله يوسُف عليه السلام، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤).

قُرئ بالسَّبع أيضًا: بفتح اللام وكسرها.[٣]

---

(١) انظر: السبعة في القراءات لأبي بكر ابن مجاهد (ص٤١٠)، النشر (٢/ ٢٩٥)، التحبير (ص ٤٥٤) كلاهما لابن الجزري.

(٢) تفسير السعدي (ص٤٩٥).

(٣) انظر: السبعة في القراءات لأبي بكر ابن مجاهد (ص٣٤٨)، النشر (٢/ ٢٩٥)، التحبير (ص٤١٣).

وفي مُحاجّة أهل الإسلام لأهل الكتاب، ذَكَر اللهُ فضلَ أهل الإسلام عليهم بوصف الإخلاص الذي يقتضي قربهم منه، وزلفاهم لديه: ﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٩).

لقد كان الأنبياء عليهم السلام يُطمئنون المدعوّين الذين كانت تشغل قلوبهم تهمة أنّ هؤلاء الأنبياء ما أرادوا بدعوتهم إلّا أنْ يحوزوا لأنفسهم خيرًا، أو يُدركوا بها متاعًا، أو ينالوا بها رياسة.. كان الأنبياء عليهم السلام يُعلنون لهؤلاء: أنّهم لا يريدون من وراء دعوتهم عَرَضاً، ولا يسألون بها أجرًا، وإنّما يريدون الهداية للخلق، واتباع الحق، وأنهم يحتسبون عند الله ﷻ ما ينالهم في دعوتهم من تعب وأذى، جاء هذا المعني في حوار الأنبياء لأقوامهم في سورتي (هود) و(الشُّعراء)؛ فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (هود: ٢٩)، ويقول كما حكاه الله عنه في «سورة الشُّعراء»: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٩).

وهود عليه السلام يخاطِب قومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (هود: ٥١).

وكذلك قال صالحٌ ولوطٌ وشعيبٌ عليهم السلام هذه الكلمة: ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

فالإخلاص سمة الأنبياء والمرسلين، هوّن عليهم مشاقّ الدّعوة إلى

الله، ونفى عنهم -عند العقلاء- تهمة طلب الحيازة لمتاع الدّنيا وشهواتها، وجعلهم قدوات ماثلة لأتباعهم من بعدهم في التجرُّد والإخلاص.

وختام هؤلاء ومِسكهم محمد بن عبد الله - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه -، الذي أمره ربّه بالإخلاص، فقال له: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ٢)، فامتثل أمر ربِّه، فأخلص في كل أحواله طاعة لأمر ربِّه من جهة، وخوفًا من عقوبة الله على عدم الإخلاص من جهة أخرى، فقال الله عنه: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ (الزمر: ١١ - ١٤).

لقد كانت سيرته -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- مثلًا لهذا الإخلاص الذي أمره به ربه؛ فقد أعرض عن كل عَرَضٍ دُنيويّ بذله له قومُه ليتخلّى عن دعوته، بدءًا من المال وانتهاءً بالرياسة والجاه، وتوسّلوا إليه بكل طريق حتى دفعوا بهذه المغريات على لسان عمِّه الذي ينصره ويحميه من أذاهم، ولكنّه ﷺ ظل مُعلِنًا هذا الإخلاص، وأنه إنما يدعو لله، ويبتغي نجاة هؤلاء المدعوّين.

فعجبًا لأمر هؤلاء، يُبصرون مَن يذيب مهجته في طلب الهداية لهم، وهم يحاولون رشوته ليقف عن هذا الحَدَبِ[1] عليهم، والمحبّة لهدايتهم! ولكن

(١) يعني: العطف والشفقة. مقاييس اللغة (٢/ ٣٦).

لا عجب؛ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦).

وعلى درب هذا النبيِّ المبارك ﷺ، سار أصحابه رضوان الله عليهم، والصالحون من أتباعهم؛ فأبو بكر رضي الله عنه يخرج من ماله مرارًا لأجل الله ﷻ وهو الثريُّ الغنيُّ، وعمر رضي الله عنه يتصدَّق بنصف ماله، وغيرهم يخرج من مكة تاركًا ماله كلّه لأجل الله .. أفكان يسهل على مثل هؤلاء هذا البذل المنقطع النظير، لولا تـجذُّر شجرة الإخلاص في قلوبهم؟!

وتُطالعنا السِّيَر بمثل أيُّوب السَّخْتِيَانِيِّ، التّابعيّ الجليل الورع العابد الواعظ المُذَكِّر: الذي كان -رحمة الله عليه- **إذا وَعَظَ فَرَقَّ، وأدركته العَبْرَة، فَرَقَ من الرِّياء، فيلتفتُ مُتكلِّفًا، ويمسح وجهه مُتصنِّعًا، ويقول -مُخفِيًا عَبْرَتَه، وكاتمًا وَجْدَه وحالتَه-: «ما أشدَّ الزُّكام!»**.[1]

ولم يكن ذلك حال أيُّوب وحده، بل هو حال كثير من الصالحين في ذلك الزمن، كما يأثره الإمام الحسن البصري: «**إنْ كانَ الرَّجلُ لَيجلِسُ المجلسَ، فتجيئُه عَبْرَتُه، فيرُدُّها، فإذا خَشِيَ أنْ تَسبِقَهُ قام**».[2]

ويقول الإمام أبو عبد الله الشّافعي -فيما رواه عنه تلميذه الرَّبيع-:

---

(١) انظر: الثقات لابن حبّان (٨/ ١٤٦)، والقصّاص والمذكّرين (ص٢٦٦) والمنتظم (٧/ ٢٨٩) والمدهش (ص٣٩٩) ثلاثتها لابن الجوزي.

(٢) رواه أحمد في الزهد (١٤٧٧).

«ودِدْتُ أنّ الخَلقَ تعلَّموا هذا العلم على أنْ لا يُنسب إليَّ منهُ حرفٌ».

ويقول حرملة بن يحيى، قال: سمعت الشّافعي، يقول: **«ودِدْتُ أنّ كُلَّ عِلمٍ أعلمه تعلَّمه النّاس، أُوجَرُ عليه، ولا يَحمدونِي»**.[١]

هكذا لا يبتغون بنصيحة الناس وموعظتهم وتعليمهم أنْ يكبروا في صدور الخلق، أو أنْ يتصدّروا المجالس، أو أنْ يُنعتوا بأجلّ الأوصاف؛ العالم المحقق، الداعية المجاهد المحتسب القوّام.. ونحو ذلك من أوصاف التبجيل والتقدير؛ بل كانوا يهربون من الشهرة قدر ما يستطيعون، وقد قال إبراهيم بن أدهم: **«ما صَدَقَ الله عبدٌ أَحَبَّ الشُّهرة»**.[٢]

والتّابعي الجليل إبراهيم النَّخَعِيُّ الذي كان إمامًا في الفقه، يقول: **«تكلَّمتُ ولَوْ وَجَدْتُ بُدًّا ما تكلمت؛ وإنّ زمانًا أكونُ فيه فقيهَ الكوفةِ لزمانُ سُوءٍ»**.[٣]

فلله ما أحكم هذا الإخلاص؟! وما أكمل هذا التواضع وهضم النفس؟!

وقد كان بعضهم يكره أنْ يكثر عدد الجالسين إليه في المجلس للأخذ عنه؛ حتى لا يتسلَّل إليه الرياء والعُجب بالنَّفْس، ورؤية منزلتها عند الخلق؛ بل كانوا يتواعظون بمثل هذا الخُلق.

---

(١) مناقب الشافعي (ص٦٨)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٥٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في العزلة (١٣٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣١).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (٣٥١)، والآجريّ في أخلاق العلماء (ص١٠٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٢٢٣).

على أنّه من الفقه أن يوازن العبد بين البُعد عن الناس فرارًا من الرياء، والحرص على طلب إفادتهم وتعليمهم. ومن التوفيق أنْ ينبسط المرء للنّاس ليأخذوا عنه، ويجاهد نفسه في الإخلاص، ويتعهّدها بالتربية.

أسأل الله ﷻ أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والحال، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



٣/٢/٣ الثّمرات المباركة

للإخلاص ثمراتٌ، من أهمِّها:

- «قبول عمل العاملين، وانتفاعهم بإخلاصهم يوم القيامة»:

فإنَّ الله ﷻ لا يقبل مِن العمل إلّا ما كان خالصًا له، وأُرِيْدَ به وجهه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (البينة: ٥) يعني: «مُفْرِدِين لهُ الطّاعةَ، لا يَخْلِطُونَ طاعَتَهُمْ رَبَّهُمْ بِشِرْكٍ».[١]

وقال تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (الروم: ٣٨) والإخلاص من صفات الأبرار الذين قال الله فيهم: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢ ﴾ (الإنسان: ٨ - ١٢)، وقال النبيُّ ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ رِفْعَةً وَدَرَجَةً».[٢]

وأمّا الإشراك بالله ﷻ فإنّه يُحبط العمل، ويُبطِل السَّعي، ويُوصِد أسباب المغفرة، ويُحيلُ الطيّب خبيثًا، والمعروف منكرًا، والإيمان كفرًا،

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (١٢٩٥، ٣٩٣٦، ٦٧٣٣). وانظر: مدارج السالكين (٢/ ٩٣).

والطاعة معصية، والمقبول مردودًا؛ كما جاء ذلك في وصفه سبحانه أعمال الكافرين التي صرفوها لغير الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ (النور: ٣٩) ، وقال ﷻ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣)، «أي: وعَمِدْنا إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم كقِرَى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف، فأحبطناه».[١]

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٥ - ٦٦)، وقال عزّ مِن قائل: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٨)، وقال أيضًا: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾(التوبة: ١٧). «أي: أولئك المشركون الكافرون بالله وبما جاء به رسوله، قد بطلت أعمالهم التي يفخرون بها؛ من عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، وقِرَى الضيف، وصلة الرحم، ونحو ذلك مما كانوا يعملونه في دنياهم؛ فلم يبق له أثر ما في صلاح أنفسهم ما داموا مقيمين على الشِّرك ومفاسده».[٢]

والله ﷻ طيِّبٌ، لا يَقبل ولا يُرفَع إليه من العمل إلّا ما كان طيِّبًا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ... ﴾

---

(١) تفسير البيضاوي (٤/ ١٢٢).

(٢) تفسير المراغي (١٠/ ٧٤).

(الأعراف: ٤٠). ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ يعني: لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء، ولا يَصْعَدُ لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل؛ لأنّ أعمالهم خبيثة، وإنّما يُرفع إلى الله الكلم الطيّب والعمل الصّالح، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).[١]

قال الحسن: «العملُ الصّالِحُ يرفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ إلى الله، فإذا كان كلامٌ طَيِّبٌ، وعَمَلٌ سَيِّئٌ، رُدَّ القولُ على العمل، وكان عملُكَ أحقُّ بك مِن قولِك»[٢]

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ١٨٢).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢٤٣٥).

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنْ فَعَلْتَ، لِيُقَالَ: إِنَّهُ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ».[١]

هكذا يكون جزاء المرائين بأعمالهم والمُسمِّعين بها في الحياة الدنيا، الذين أشركوا مع الله غيره في العمل والعبادة، فعادت أعمالهم عليهم وبالًا، وجُوزوا بنقيض قصدهم فعادت أعمالهم عليهم خَسارًا ونكالًا.

فهنيئًا للمخلص الذي محّض قلبه وعمله لله، وتعسًا ونكسًا للمشرك مع الله غيره، الذي أفسد قلبه، وصرف عمله لغير الله.

- ومن ثمرات الإخلاص كذلك: «العصمة من تسلُّط الشّيطان على الإنسان»:

والشيطان قد قطع على نفسه العهد أنْ يَقعُدَ مُترصِّدًا للعبد، يدخل عليه في كل طريق ليزيله عن طريق الهدى، ويوقعه في طرق الرَّدَى. قال تعالى حاكيًا عن هذا الشّيطان ما قطعه على نفسه مِن التزيين والإغواء: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر: ٣٩). ولكنّه يعرف عجزه عن ممارسة هذا الإغواء مع عباد الله المخلصين، فقال حينئذ:

---

(١) رواه أحمد (٨٢٧٧)، ومسلم (١٩٠٥)، والنسائي في المجتبى (٣١٣٧) والسنن الكبير (٤٣٣٠).

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (الحجر: ٤٠)، فلمّا أعلن هذا اليأس من التسلُّط على المخلصين، زاده الله يأسًا، فقال ﷻ: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الحجر: ٤١ - ٤٢).

فالغاوون: هم الذين تركوا الحقّ بعد معاينته، وأعرضوا عن الهدى بعد أنْ أبصروا حقيقته، ورضوا بولاية الشيطان وطاعته، فضلُّوا عن سبيل الرشاد فلم يسلكوه.

وأمّا المخلصون: فهم أولئك الذين أخلصهم ربُّهم واجتباهم؛ لِعلمه بإخلاصهم وإيمانهم وتوكُّلهم.

وفي مقام آخر؛ ذكر الله ﷻ حقيقة عصمة عباد الله من الشّيطان، مع حِذْق الشيطان بطرق الغواية على ألوانها، وتفنّنه فيها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦١ - ٦٥).

والعصمة المقصودة: هي العصمة من التسلُّط الدّائم للشّيطان، وإلّا

فقد يقع من العبد بعض الذنوب، ولكنّه سَرعان ما يعود إلى الله ويؤوب.

■ **ومن ثمراته: «النّجاة يوم القيامة»:**

وهي تتضمّن نوعين من الكرامة:

الأول: النّجاة من النّار. **والثاني**: الفوز بدار النَّعيم.

قال تعالى في جزاء المعاندين لرسوله ﷺ الرّامين له بالشِّعر والجنون، وتباين هذا الجزاء مع عاقبة عباد الله المخلصين الذين فازوا بالثواب الجزيل والمنزل الكريم: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ[1] ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصافات: ٣٧ - ٤٩).

■ **ومن ثمراته: «صفاء القلب ونقاؤه، وذهابُ الغِلِّ والغِشِّ منه»:**

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[2].

---

(١) تقدَّم أنه قُرئ بالسبع: بفتح اللام وكسرها.

(٢) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وابن حبان (٦٧ و٦٨٠). وفي الباب: عن أنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وجُبَيْر بن مُطْعِم.

وقوله: «لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا»: أي: لا يبقى فيه غِلٌّ، ولا يَحمِلُ الغِلَّ مع هذه الثلاثة، بل تَنفي عَنه غِلَّه، وتُنقِّيه منه، وتُخرجُه عنه؛ فإنّ القلب يَغِلُّ على الشرك أعظمَ الغِلّ، وكذلك يَغِلُّ على الغِشّ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة؛ فهذه الثلاثة تملؤه غِلًّا ودَغَلًا. ودواءُ هذا الغِلّ، واستخراجُ أخلاطِه: بتجريد الإخلاص والنُّصح، ومتابعةِ السُّنّة.[1]

▪ ومن ثمرات الإخلاص أيضًا: «تفريج الكُربات في هذه الدّار»:

وقد اشتهرت قصة النَّفَر الثلاثة الذين انحدرت عليهم الصّخرة مِن الجبل فسَدَّت عليهم الغار، فسألوا الله ﷻ بإخلاصهم في أعمالهم، فكان كل واحد منهم يقول: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ»؛ فأزال الله كربتهم، وانفرجت عنهم تلك الصخرة حتى خرجوا جميعًا.[2]

بل إنّ هذا الإخلاص في الدعاء ينفع حتى المشركين الذين يغمرهم الإخلاص وقت انعدام المعين، ونفاد وسائل الغوث، واشتداد الخَطْب، وتضايق الكَرب؛ فيلهجون بالدُّعاء إلى الله، ويرفعون أكفّ الضراعة إليه، وهم لا يرون غيره كاشفًا عنهم ما هم فيه من البلاء، ولا سواه رافعًا عنهم

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٩٤). وانظر: المحدّث الفاصل للرامهرمزي (ص ١٦٤).

(٢) القصة رواها البخاريُّ في الصحيح (٢٢٧٢ و٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث عبد الله بن عمر.

ما بُلوا به من الضرّاء؛ فيستجيب لهم دعاءهم، ويكشف عنهم الضُّر، ويرفع عنهم البلاء.

لكنه إخلاص مؤقَّت لا يلبث أنْ يتبدَّد مع حلول سحائب النجاة التي تُبدِّد سحائب ذاك الإخلاص العارض الذي انتفعوا ببركته ساعة من النهار في هذه الحياة الدنيا، ثم لا يلبثون حتى يروا العذاب الأليم في الآخرة بشركهم وتخليطهم، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٢٢ - ٢٣).

اللهم ارزقنا الإخلاص وأكرمنا بثمراته.



٣/٣ الثقة بالله

من أعمال القلوب التي دلّت عليها دلائل الكتاب والسُّنّة: «الثِّقة بالله»؛ حيث يعتمد العبد بقلبه على ربِّه، مع بذل ما يستطيع من الأسباب، فالثِّقة بالله روح التوكُّل، ونسبته إلى التوكُّل كنسبة الإحسان إلى الإيمان.(١)

الثِّقة بالله: تملأ القلب طمأنينة وراحة، وتُذهِب عنه المخاوف والأحزان .. وقد عَلَّمَ الله أُمَّ موسى عليه السلام هذا العمل القلبي العظيم، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص: ٧).

ليس قلب أرقّ من قلب الأم، وليس مَخوف أكثر من الموت، والماء العظيم لا يَسلَم من الغرق فيه إلّا السّبّاح الماهر، فما بالها تُلقِي هذا الرَّضيع في هذا الماء الجاري لتُسلمه غنيمة باردة؟!

إنّها ما فعلت ذلك إلا وقد عُمِرَ قلبُها بالثِّقة بالله؛ بأنه سيردّه عليها، ويجعله من صفوة البشر رسولًا ونبيًّا. وحينئذٍ وضعت صبيها في ماء النهر، طائعة مختارة، فحقّق الله لها موعودها، بل حقق لبني إسرائيل النصر على فرعون ومن معه.

وسبحان الله الملك القيوم! لكأنما رَضِعَ هذا النبي الثقة بالله في صغره، فخطَّت تقاسيمها في روحه وقلبه، واختلطت بلحمه ودمه؛ حتّى إذا

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥٠).

أدركه ما أدركه، وأحاط به ما أحاطه، كان الواثق بربِّه، المستيقن بنصره؛ فحاز مِن الثقة في كِبَره، ما حازته أُمُّه مِن الثقة في صِغَره.

هذا فِرعون وجنوده، وهذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن معه، في مَشهَد مهيب، تضطرب فيه الأنفاس، ويَشتدّ فيه خفقان القلوب، وتزلّ فيه الأقدام: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء: ٦٠ - ٦١).

لكن اليقين الذي عَمر قلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أبى أنْ يركن لهذا القنوط.

وكيف يقنط ورجاء اليقين يعمر أنحاءه؟!

﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ (الشعراء: ٦٢ - ٦٦).

لقد أنجى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الماء مرتين: مرة يوم أنْ كان صغيرًا فألقته أمُّه فيه، والمرة الأخرى: يوم أنْ كان كبيرًا، فألقى نفسه فيه بعدما أمره الله به مِن ضربه بعصاه.

فها هو يُحاصَر بالماء في مبدأ حياته ومنتهاها، فيسلم من الغرق في أُولاها وأُخراها.

إنَّ الثقة التي عَمَرَتْ قلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هي اليقين بمعيّة الله له، الموجبة لنصره وتمكينه، وإحباط كيد عدوه ومكره: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

فهي معيّة القادر المطَّلع، لعبده المحتاج المفتقر؛ ولكنها تعلمه في الوقت ذاته أن يبذل ما يستطيع من السبب وإن كان في مستقر العادة لا يؤدي المبتغى منه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦٣).

ويَمضي الزمن سريعًا، فيواجِهُ خير الأنبياء وأفضلهم مُحمَّد ﷺ، موقفَ كَرْبٍ عَظيم حين أجمعت قريش على قتله، والتخلُّص منه، فخرج هو وصاحبه إلى غار ثَوْر، واختبأ فيه حتى يهدأ الطلب من قريشٍ ليواصلا المسير بعد ذلك.

وقد جُنَّ جنونُ قريش: كيف أفلت محمّد من بين أيديهم؟! فأخذوا يذرعون الأرض شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، بحثًا عن الصَّيدِ الذي يَلهَفون عليه لَهَفًا. ويشاء الله ﷻ أنْ تَصِلَ أقدام المشركين إلى فم الغار الذي فيه رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، حتى سمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر، وتملَّكه الخوف والحزن على رسول الله ﷺ، فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ».

وهنا تتجلَّى صفة الثقة في نصر الله في تلك الكلمات النيّرة التي خرجت من فم رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».[1]

وقد سجّل القرآن الكريم هذا الموقف الإيماني العظيم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣)، مسلم (٢٣٨١).

ﭐلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ... ﴾ (التوبة: ٤٠).

والجزاء مِن جنس العمل، فكما سَكَن العبد إلى ربّه، ووثق في تأييده ونصره، فإنّ الله ﷻ يؤيِّده بالسّكينة، ويبثّ في نفسه الطمأنينة، ويجلّله بنصره: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

وفي ختام الآية باسمَي الله: «العزيز»، و«الحكيم» معنًى بديع؛ فالإيمان بعزّة الله وقوّته وغلبته، يُولِّد الثّقةَ في القلب بنصره ومعيّته؛ فإنّ الله لا غالب له، ولا قادر عليه، وهو على كل شيء قدير.

والإيمان بحكمة الله يُولِّد الثّقةَ بأنّ ما ينتهي إليه الحال هو خيرٌ للعبد، وإنْ كان العبد يريد أنْ يتحقّق غيره؛ فلله مِن الحِكَم ما هو خفيٌّ على العبد لا تظهر له الحكمة فيه إلّا بعد حين.

وتأمّل في هذه الصورة المتباينة العجيبة للقلوب المعمورة بالثقة بالله، والمُخْرَبَة بالنِّفاق واستيلاء الكفر عليها في هذه الواقعة:

هاجت قريشٌ وحلفاؤها، فجمعت ما استطاعت من العرب والموالي، وساروا إلى المدينة ليقضوا على النبي ﷺ فيها بعد أنْ عجزوا عن القضاء عليه في مكة، فأحاطوا بالمدينة وهم عدد كثير، وعُدَّةٌ ظاهرة، قد امتلأت قلوبهم غيظًا، واشتعلت أفئدتهم حميّة جاهليّة؛ ليستريحوا من هذا الخصم

- في زعمهم - الذي أقضّ مضاجعهم وسفّه أحلامهم وعاب آلهتهم؛ فكان موقفًا عصيبًا صوّره الله أبلغ تصوير في قوله عزّ من قائل: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ (الأحزاب: ١٠).

إنّها حالة من الكَرْبِ العظيم، والبلاء المدلهمّ، ساقه الله ﷻ ابتلاءً للمؤمنين، ولكنّهم - ولله الحمد والمنّة - كانوا الفائزين في هذا الامتحان، بتلك الثّقة التي أُودعت في أفئدتهم؛ حتّى استحالت المِحنة مِنحة، وانقلبت البَليّة عَطِيّة، والضِّيق فَرَجًا: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢).

وبجانب هذا الموقف الواثق بنصر الله، مواقف المنافقين الذين خلت قلوبهم من هذه الثقة بالله، فكان حالهم كما وصفهم الله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ (الأحزاب: ١٢ - ١٤)، إلى أنْ يقول ﷻ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ...﴾ (الأحزاب: ١٨ - ١٩).

إنها أحوال عجيبة لأولئك المنافقين الذين حُرِمُوا حلاوة الثقة بالله، واليقين بنصره، فهم متشكّكون في وعد الله ورسوله لهم بالنصر، وهم مُخَذِّلون مُثَبِّطون داعون النّاس إلى ترك المسير، وهم كثيرو الاستئذان؛ لأنهم لا يقوون على المكوث مع أهل الإيمان؛ ومن أجل ذلك يرتكبون الأكاذيب، ويختلقون المعاذير، ويعاهدون وينكثون، عيونهم جاحظة، وأفئدتهم طائرة، وقلوبهم واجفة.

فانظر إلى هذه الشخصية القلقة، والنفسيّة المريضة .. كيف تراها إلى جانب تلك التي سكنت واطمأنت، وارتاحت إلى موعود الله، ووثقت بمعيّته ونصره، فكان لها مِن الظَّفر والنّصر والتأييد ما كان، وكان لهذه من الخزي والذُّل ما كان ..

فما أحسن الثقة به سبحانه؟!

راحة في الضمير، وطمأنينة في القلب، ثم ظفر ونصر وعزّ وتمكين.



٣/٤ المحبّة

٣/ ٤/ ١ حقيقة المحبّة.

٣/ ٤/ ٢ اختبارات المحبّة.

٣/ ٤/ ٣ ثمرات المحبّة.

٣/٤/١ حقيقة المحبّة

من أفضل أعمال القلوب وأجلّها، وأكرمها وأشرفها، محبّة الله؛ «فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقُرّة العيون، وهي الحياة التي مَن حُرمها فهو من جملة الأموات، والنُّور الذي مَن فقده فهو في بحار الظُّلمات، والشِّفاء الذي من عدمه حَلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللَّذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام».(١)

وهذه المحبّة لا تُحَدّ بحدّ أوضح منها؛ فالحدود لا تزيدها إلّا خفاء وجفاء؛ فحدّها وُجودها، ولا توصَف المحبة بوصف أظهر من المحبة.(٢)

وقد أجمعت الأمّة على أنّ الحبّ لله ولرسوله ﷺ فرض لا يسع المكلّف تركه.

وحين أثنى الله على أهل الإيمان، أثنى عليهم بمحبّتهم له، كما أكرمهم بمحبته لهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة: ٥٤)، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).

ففي الآية الأولى: إشارةٌ إلى أنّ محبِّي الله قوم ارتضاهم الله لحمل

(١) مدارج السالكين (٣/ ٦ – ٧).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٠).

رسالته، وتبليغ دِينه؛ فلا ينهض بهذه المهمّة الجليلة، ولا يقوم بهذه الأعباء الجسيمة، إلّا قوم امتلأت منهم القلوب بعَوالِج[1] المحبّة، وتغذّت منهم الأرواح بنسائمها العذبة، حتى إذا ما اعترضتهم عوائق الدُّنيا، تجاوزوها بعزائم الحبّ وأشواق القُرب.

وفي الآية الثانية: إشارةٌ إلى أنّ أيّ إنسان سَوِيّ لا بدّ أنْ يجد في نفسه قدْرًا من المحبّة لله؛ حيث وُصِف أهل الشِّرك بنوع من المحبّة. ولكن المحبّة الحقّة التي يرضاها الله ﷻ، ويُكرم المتّصفين بها، تلكم المحبّة الخالصة له، التي لا تدع في القلب مُحبًّا يساويه أو نِدًّا يدانيه.

ولذا وقع التهديد الشديد والوعيد الأكيد، لِمَن احتلّت الأغراض الدنيويّة من قلبه مكانًا يُزاحم محبّة الله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(التوبة: ٢٤) .

وعن أنس ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ**

(١) (عَوالِج): جمع: عالج، وهو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض. النهاية (٣/ ٢٨٧).

إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».[1] وفي رواية: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ: حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا..». الحديث.[2]

وعن أنس ﷺ مرفوعًا: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ: حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».[3] وفي رواية: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».[4]

فقد اشتملت هذه الأحاديث على إثبات لذّة الإيمان وحلاوته حينما تعمر المحبّة القلب، وانتفاء الإيمان عنه حينما يخلو من هذه المحبة، وباللازم نقصها حينما ينقص.

إنَّ هذه اللذة وتلك الحلاوة التي يجدها العبد في قلبه، وسرت في مسارب روحه وشغاف نفسه، ليست وليدة الدَّعة، ولكنها حصاد عمل دؤوب، وتهذيب مستمر، ومعالجة لا تنقطع لرغبات النفس ومشتهياتها؛ قدَّم العبدُ فيها أمرَ الله ومحبوبه، على مراد نفسه وشهواته. وحينذاك: قَذَفَ اللهُ في قلبه حلاوةً تعوّضه عن ذلك الحرمان، ولذّة تغنيه عن لذّة ذلك العصيان.

(١) رواه البخاري (١٦ و ٦٠٤١ و ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

(٢) مسند أحمد (١٣١٥١).

(٣) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٤) صحيح مسلم (٤٤). وفي معناه حديث أبي هريرة ﷺ، رواه البخاري (١٤) بلفظ مقارب.

ويالله! كيف يغفُل العبد عن محبّة ربِّه، وقد أسبغ عليه نِعَمه ظاهرة وباطنة، وسخّر له ما في الكون، وعَمَرَ له الحياة بكل ما يحتاجه لقوام حياته وتقلّبه في حاجاته، بل نشر له في صفحة الكون أسباب البهجة ومناظر السرور: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (إبراهيم: ٣٢ - ٣٤).

وتأمّل طويلًا في تكرار كلمة ﴿ لَكُمُ ﴾ خمس مرّات في آيتين؛ لترى عناية الله بك ماثلة أمام عينيك.

• ويقول الحقّ سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ (الحجر: ١٦)، ويقول أيضًا: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٨).

وجعل الله ﷻ دورة الفلك بحيث يُهيِّئ للعبد أسباب الحركة والتقلُّب في المعاش، والسكون والهدوء بعد الكدِّ والعناء: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص: ٧٣)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (غافر: ٦١)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ

مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص: ٧١ - ٧٢).

وكيف يغفُل العبد عن محبّة ربِّه، ونِعَمه ظاهرة عليه في بدنه؛ في يده وقدمه وعينه وبصره ولسانه وقلبه وكافّة جوارحه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨)، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٦).

بل كيف يغفُل العبد عن محبّة ربِّه، وربُّه الذي له الكمال المطلق مِن كلِّ وَجه؛ له الكمال في عِلمه فلا يعزب عنه شيء مِن أمر خَلقه؛ ولذا وصف سبحانه نفسه بـ: «العِلم» في أكثر من مئة وسبعين (١٧٠) موضعًا في القرآن الكريم. وأشار إلى سعة هذا العلم بوجوه كثيرة من الخطاب، مِن مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١).

وله سبحانه الكمال المطلق في قدرته، فلا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وقد وَصَفَ سبحانه نفسه بالقدرة في أكثر مِن خمسة وأربعين (٤٥) موضعًا، نحو قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف: ٤٥)، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٠). وأبان الله

ﷻ عن آثار قُدرته في خَلقه في آيات كثيرة، من مثل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق: ٣٨).

وله سبحانه الكمال المطلق في حكمته وتصريفه أمر خلقه، وقد وصف نفسه بـ: «الحكمة» في أكثر من تسعين (٩٠) موضعًا في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١).

ومواضع حِكمته لا تُحصَى؛ فهو الحكيم في الإيجاد والإمداد، وهو حكيم فيما يُقدّره من النّصر أو الهزيمة، وهو حكيم في شرعه للأحكام؛ حيث جعلها سببًا لعمارة الحياة وصيانتها؛ فبها يُحفَظ الدِّين، ويُصان الدَّم والعِرض، ويُحفَظ العقل.

وهو الحكيم في تقليب الأمور والأحوال على عباده من صحّة ومرض، وغنًى وفقر، ونصر وهزيمة، وتمكين وضعف. يُقلّبهم في الأحوال كيف يشاء؛ ليُعرِّفهم به، ويزيدهم قُربًا إليه، وليختبر ما هم عليه من إيمان، ويمتحن ما في قلوبهم من يقين.

وهو الحكيم أنزل عليهم مِن حِكمته؛ فبآياتها يُدْعَون، وبمناراتها يُهْدَون، وبحججها يُجادِلون، وبإحكام صنعتها يناظرون.

وخلاصة القول: أنّ موجِبات المحبّة له سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ مِن بعده، ولدِينه وشِرْعَتِه، لا تُحصَى كثرة. فمِن حقِّ القلب أنْ تعمره هذه المحبّة، وتغمره هذه المودّة؛ حتّى يزداد بها قُربًا، ويتألّق بها صفاءً؛ ليكون قلبًا سليمًا يستحقّ الكرامة، والفوز بدار المقامة: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ (الشعراء: ٨٨ - ٨٩).



٣/٤/٢ اختبارات المحبّة

مَحبّة الله ﷻ قدْ يدّعيها كل أحد، ولكن ليس مجرّد الادِّعاء كافٍ في الوجود؛ فكمْ مِن مُدَّعٍ ما ليس له، ومُستكثِرٍ بما لا يملك. وقد يدخل الشيطان على العبد فيوهمه أنّه يُحبّ اللهَ؛ فيتّكل على هذه الدّعوى، ويُفْرِغ حاله من العمل.

المحبّة شجرة طيّبة، أصلها ثابتٌ وفرعها في السّماء، وثمارها تظهر في قلب العبد ولسانه وبقيّة جوارحه.

وحريٌّ بعبدٍ يَدَّعي هذه المحبّة أنْ يعرضَ نفسه على جملة أمور؛ ليعرف نصيب هذه الدعوى من الواقع:

▪ **وأوّلها:** محبّته إلى لقاء الله، وشوقه إلى النُّقْلَة إليه، فقد قال ﷺ: **«مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه»**.[1] وقال حذيفة ﭬ لمّا حضرته الوفاة: **«حبيبٌ جاء على فاقةٍ، لا أفلح مَنْ نَدِم»**.[2] وعن أبي بكرٍ ﭬ أنّه لمّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَرْسَلَ إِلَى عُمَر بنِ الخطّاب ﭬ يَسْتَخْلِفُهُ، فكان منه أنْ أوصاه، ثم قال له: **«أَمَا إِنْ حَفِظْتَ وَصِيَّتِي: لَمْ يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ، وَأَنْتَ لَا بُدَّ لَاقِيهِ. وَإِنْ أَنْتَ ضَيَّعْتَ وَصِيَّتِي: لَمْ يَكُنْ غَائِبٌ أَبْغَضَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ، وَلَنْ تُعْجِزَهُ»**.[3]

---

(١) البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت ﭬ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٨٣٥٨)، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (١٢٩).

(٣) رواه في الزُّهد: ابن المبارك (٩١٤) وهنّاد (٤٩٦) وأبو داود (٢٨)، وابن أبي شيبة في مصنّفه (٣٥٥٧٤)، وسعيد بن منصور في تفسيره (٥/ ١٣٣)، والخلّال في السُّنّة (٢٧٥).

ليس أحدٌ مِن خَلق الله مؤمنًا كان أم كافرًا، إلّا وهو يكره الموت كراهةً جبليَّةً فِطريّةً، إلَّا أنّ المؤمنَ -دون غيره- تتجاذَبه في الحياة الدُّنيا إرادتان، ويتنازعه حالان، حتى إذا أدركه الموتُ أفْضَى ساعةَ المعايَنَةِ والمُكاشَفة إلى أحْسَنِ الأحوال، ومبلغِ الآمال..

فأمّا الحالان:

فحال كراهة الموت، الكراهة الجبليّة الفطريّة..[1]

وحال الشَّوق إلى لقاء الله ﷻ، الذي يعتري العبدَ المؤمن في الحياة الدُّنيا، ولن يَخْلُصَ إليه إلّا عبر النَّفاذ من رَحِمِ الموت..

ومن هذين الحالَين في نفس العبد المؤمن، تتولَّد حالة من الصِّراع؛ فهو يكره الموت كراهة فطريّة، ويحبّ لقاء الله تعالى محبّة شرعيّة .. فيتولَّد من هاتين الحالتين **حالة ثالثة عجيبة**، وهي «**حالةُ الرِّضا بالموت**»، حتى يصير شأن المؤمن في هذه الحال، حال المريض الذي رَضيَ بالدَّواء المرِّ، ولكنّه يوقِن أنّه مع مرارته سيعبر به إلى رياض الشَفاء، ولذّة الصحّة والعافية. ولعلّ هذه الحالة يُصوّرها حديث أمّ المؤمنين عائشة ، قالت: (أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَرْحَبًا بِابْنَتِي**» ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ

---

(١) ثبت في صحيح البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة ، عن النبيِّ ﷺ، عن الله تبارك وتعالى: «مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

شِمَالِه، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا، فَبَكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا، فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ: فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَأَلْتُهَا، فَقَالَتْ: أَسَرَّ إِلَيَّ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي**». فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ**». فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ).(1)

وأمّا إذا حضر الموت وحطَّ رحاله، فله حينئذ حالة أخرى خالية من منازَعة الإرادات، وتجاذب الرغبات؛ وذلك حين يُكشَف للعبد المؤمن محلّه من النعيم، فيُحبّ لقاء الله وإنْ كان دون ذلك الموت، فيحب الله لقاءه؛ فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**». قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**».(2)

---

(1) رواه البخاري (٣٦٢٣ و٤٤٣٣)، ومسلم (٢٤٥٠).

(2) رواه البخاري (٦٥٠٧). وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٥٩ - ٣٦٠).

ومن هنا يندفع المجاهد في ساحات القتال شاهرًا سيفه أو مرسِلًا رمحه، يبتغي مَقاتل الأعداء، وهو في هذا السبيل يحرص على الموت في سبيل الله ﷻ والشهادة في سبيل إعلاء راية هذا الدِّين، أكثر من حرصه على الحياة، وإنَّه لسعيدٌ جدُّ سعيد إنْ أصابه سَهْمٌ مِن عدوِّه، أو ضربة من قِرْنه؛ لأنّ ذلك يُدنيه مِن لقاء ربّه. عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاص، أنّه قال: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ، قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ: «أَلَا تَأْتِي نَدْعُو اللَّهَ، فَخَلَوْا فِي نَاحِيَةٍ، فَدَعَا سَعْدٌ، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِذَا لَقِينَا الْقَوْمَ غَدًا، فَلَقِّنِي رَجُلًا شَدِيدًا بَأْسُهُ، شَدِيدًا حَرْدُهُ[1]، فَأُقَاتِلُهُ فِيكَ وَيُقَاتِلُنِي، ثُمَّ ارْزُقْنِي عَلَيْهِ الظَّفَرَ حَتَّى أَقْتُلَهُ، وَآخُذَ سَلَبَهُ. فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي غَدًا رَجُلًا شَدِيدًا حَرْدُهُ، شَدِيدًا بَأْسُهُ، أُقَاتِلُهُ فِيكَ وَيُقَاتِلُنِي، ثُمَّ يَأْخُذُنِي فَيَجْدَعُ أَنْفِي وَأُذُنِي، فَإِذَا لَقِيتُكَ غَدًا قُلْتَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ فِيمَ جُدِعَ أَنْفُكَ وَأُذُنُكَ؟ فَأَقُولُ: فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ، فَيَقُولُ: صَدَقْتَ. قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: يَا بُنَيَّ كَانَتْ دَعْوَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ خَيْرًا مِنْ دَعْوَتِي، لَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ، وَإِنَّ أُذُنَهُ وَأَنْفَهُ لَمُعَلَّقَانِ فِي خَيْطٍ».[2]

▪ وثاني الأمور التي يعرض المؤمن نفسه عليها ليختبر صدق محبّته: أنْ يرى حاله في إيثار محابِّ الله على محابِّه، وأمر الله ﷻ على هَوَى نفسه؛

---

(١) (حَرْدُهُ) تحريك الرّاء وسكونها، يعني: غضبه. انظر: الصحاح (٢/ ٤٦٤).

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٨٦)، وعنه البيهقي في السنن الكبير (٦/ ٥٠١). قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم).

فإنْ كان مُؤْثِرًا لمحابِّ الله فذلك الحبُّ الحقيقيّ، لا مجرّد الدّعاوى الفارغة. وإنْ كان العكس بالكليّة أو بعضه، فلا محبّة حينئذٍ، أو هي ناقصة بحسب نقص درجة الإيثار.

وخُذْ مثلًا حيًّا على ذلك: الإيثار النّاتج عن عمق الحبّ لله ولرسوله ﷺ ولأهل طاعته في خُلُق الأنصار! حينما أقبل عليهم المهاجرون وقد تركوا ديارهم، وتخلّوا عن أموالهم، فأسكنوهم الديار، وقاسموهم الأموال، وجادوا لهم بالكثير الكثير، بل قدّموهم على أنفسهم في ضروريّات الحياة؛ فاستحقُّوا أنْ يذكرهم الله في كتابه بهذا الخُلُق النبيل، والمسلك الكريم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩).

ولا ينبغي أنْ تُستشكَل شهادة رسول الله ﷺ لمن جلده في شرب الخمر، فلعنه رجلٌ من القوم: اللَّهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ؟، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ؛ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»**.[1]

فإنّ شهادةَ رسول الله ﷺ إنّما هي شهادة له بأصل الحبِّ، والحب

---

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).
وقوله: (فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ): يحتمل: أنّ (ما) زائدة، أي: (فوالله علمت أنه). ويحتمل: أن يكون المفعول محذوفًا، أي: (ما علمت عليه أو فيه سوءًا) ثم استأنف، فقال: (إنّه يحب الله ورسوله). انظر: فتح الباري (١٢/ ٧٨).

درجات، وكلّما كان في العبد معصية أنقصته عن كمال الحب درجة، حتى إذا اكتمل حبّه لله ولرسوله ﷺ ولشريعته، انقاد واستسلم وانكفّ عن المعاصي وأحجم، وعن هذا المعيار يقول الحقّ سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١).

▪ **وثالث هذه المعايير**: أنْ ينظر نفسه في محبّته لِذكر الله، وأُنسه بترديد كلامه، وتنعّمه بالنظر في آياته، وتلذّذه بترجيع حِكَمه وعظاته؛ فإنّ مَن أحبّ شيئًا أكثر من ذِكره، ووجد حلاوته في سويداء قلبه، بل يحرص أنْ يكون ذلك حاضرًا في قلبه لا يغيب؛ لِما يجد من اللذة والطعم والأُنس والسرور..

جاء أعرابيّان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدُهما: **يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»**، وَقَالَ الْآخَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَام قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأْمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»**.[1]

قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ»**.[2]

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٧٦٨٠) والزهد (١٨٩) من حديث عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه. قال ابن مفلح في الآداب الشرعيّة (١/ ٤٢٦): (إسناده جيِّد).

(٢) رواه سعيد بن منصور في التفسير (١/ ١٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٣٢) واللفظ له. قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦٥): (رواه الطبراني، ورجاله ثقات).

ورابعها: أنْ تَجد الأُنس في الخلوات بربّك، وتُسرّ بالانطراح بين يديه، والاستسلام له؛ فأنت بين لذّة الشّوق وعذوبة المناجاة، بين فرح القلب ودمع العين؛ دمع تسكبه حِينًا شوقًا إلى الله، وحِينًا وَجَلًا وخوفًا منه. وقد فطر اللهُ ﷻ البشرَ على تلذّذهم بذكريات المحبوب؛ فينتعشون بتلك الذّكريات، ويحيون باستعادة تلك الساعات، وهم أشدّ سعادة باجتماعهم بمَن يحبّون. فإذا كان ذلك في محبوبات الدنيا التي ليست بشيء أمام حبّ العبد لربّه سبحانه، الذي يُحَبُّ مِن كلّ وجه، أفلا يكون ذلك وقودًا حيًّا للمؤمن حينما يجد في خلوته أُنس الصّلة بالله، وحلاوة القرب منه. وهو في ذلك مستوحش مما ينغّص عليه تلك الخلوة، ويعوقه عن تلك المناجاة.

وقد جعل الله لك من الصّلاة - وخاصّة في الأسحار - موردًا لهذا الأُنس؛ فأنت بين تعظيم وتمجيدٍ، وتحميد وتسبيح، ثم أنت قبل ذلك تتلو كلام الله وتقف بين يديه، فيكون لك من تلاوة كلامه وسيلة إليه، ومن الوقوف والسجود قربًا بين يديه. جاء في أخبار السّابقين: أنّ الله أوحى إلى داود عليه السلام: «**قد كذَبَ مَن ادَّعَى محبَّتي إذا جَنَّهُ الليل نام عنِّي، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه؟! فها أنا ذا موجود لمن طلبني**»[1].

ومصداق ذلك قول رسول الله ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى**

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٣٣). وانظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٥٦٠).

السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ».[1]



(١) رواه البخاري (١١٤٥ و٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

٣/٤/٣ ثمرات المحبّة

محبّة الله شجرة مباركة؛ تُنتج الثمر الشّهيّ، تَغمر القلب والوجدان، وتصلح الجوارح والأركان، وتُسعد بني الإنسان أفرادًا وجماعات.

وهي ثمرات وافرة، ومباهج متكاثرة، نكتفي ببعضها تنبيهًا بذلك البعض على بقيتها. **فمِن أجَلِّ ثمرات محبّة العبد لربِّه:**

▪ **الفوز بمحبّته سبحانه:** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١). ولو لم يكن لمحبَّة العبد لربِّه إلَّا هذه الثّمرة؛ لكانت كافية، وبكلِّ الأغراض وافية؛ **ذلك أنّها ثمرة تنتج ثمرات:**

- **إذا أحبّك الله**، وفقّك للعمل الصّالح؛ فانصرفت جوارحك إلى كل ما يُرضيه ويُقرِّبك منه؛ تتقرّب إليه بلسانك وجميع جوارحك، وقد سخّرتها بتوفيق الله لك زادًا إليه: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»[1]. وهكذا يكون الحُبّ على قدْر القُرْب، ويكون القُرْب على قدْر القُرَب.

- **إذا أحبّك الله**، رزقك القبول عند الخَلق، فلم تزل مُحَبًّا مَرْضِيًّا، يأنس النّاس بك، ويهشّون ويبشُّون لك، ويتودّدون إليك، وينتفعون بمجالستك. وتلك أبواب مُشرعة تدلف منها إلى قلوب الخَلق؛ فتقودها إلى طاعة الله ﷻ، فتنتفع بما هُدُوا إليه مِن القبول لك -الذي دلهم على

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ عن الله تعالى.

التقرب إلى الله- كما تنتفع بعملك بل أكثر، قال ﷺ : «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**».(١)

- إذا أحبّك اللهُ، أعتقَ رقبتك مِن النّار، وأيّ جزاء أحسن مِن هذا، وأنت إنّما تعمل في هذه الحياة لتخليص رقبتك مِن عذاب الله؟! فأنت في دار ابتلاء واختبار، تخاف سوء المصير؛ فإذا أحببت الله بصدق مَنَّ عليك بهذا الجزاء العظيم. مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَصَبِيٌّ بَيْنَ ظَهْرَانَي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّهُ الدَّوَابَّ خَشِيَتْ عَلَى ابْنِهَا أَنْ يُوطَأَ، فَسَعَتْ وَالِهَةً، فَقَالَتِ: ابْنِي ابْنِي فَاحْتَمَلَتِ ابْنَهَا، فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُلْقِيَ ابْنَهَا فِي النَّارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا وَاللهِ، لَا يُلْقِي اللهُ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ**».(٢)

- **إذا أحبّك الله**، حسَّن خُلقك؛ فرزقك الرِّفق، وألان منك الكنف، ووطّأ منك الجانب؛ فكنت محبوبًا، إلفًا مألوفًا، سَعِدَ بك أهلك ومحبّوك، وأَنِسَ بك أقاربك وجيرانك وعارفوك؛ رُوي عن النبي ﷺ من حديث جرير رضي الله عنه: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرِّفْقَ؛ مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرِّفْقَ إِلَّا**

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٩ و٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم (٤/ ١٩٥)، من حديث أنس وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه).

قَدْ حُرِمُوا»[1]، وعنه ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ**»[2]، وعن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**».[3]

- إذا أحبّك الله، ختم لك دار المُهْلة بخير نُقْلة، فأتى إليك الأجل وقد أصلحت العمل، وتطهّرت من أدران الذنوب؛ لتُقْبل طاهرًا نقيًّا على علّام الغيوب: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا عَسَلَهُ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا عَسَلَهُ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِهِ**».[4]

▪ **ومن أعظم ثمرات محبّة العبد لربّه: التذاذه بطاعة ربّه**؛ فيُقبل على الشّرائع بنفس مُنشرحة، وروح مبتهجة، يجد أُنسه في التزامها، ونعيمه في انقضاء الأوقات معها، قال ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ** ﷻ، **وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**».[5]

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٣٠٦) من حديث جرير رضي الله عنه. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨): (رواه الطبراني، ورواته ثقات). وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٠٨٣): (أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جرير بإسناد ضعيف). قلت: كما قال؛ فإنّ في إسناده: (إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر)، قال في التقريب (٤١٧): (ضعيف).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٢).

(٣) رواه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢٥٩٣).

(٤) رواه ابن حبان (٣٤٢ و٣٤٣)، والحاكم (١/ ٤٩٠)، والبيهقي في الزُّهد (٨١٤). من حديث عمرو بن الحَمِق، وقال الحاكم: (إسناده صحيح).
و(العَسْل): طِيب الثناء، مأخوذ من العسَل. النهاية (٣/ ٢٣٧).

(٥) رواه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

وفي لذّة العبادة هذه ما يُذهِب الهموم، ويُزيل الغموم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى صِهْرٍ لَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ: يَا جَارِيَةُ ائْتِينِي بِوَضُوءٍ لَعَلِّي أُصَلِّي، فَأَسْتَرِيحَ، فَرَآنَا أَنْكَرْنَا ذَاكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**قُمْ يَا بِلَالُ، فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**».(١)

لئن كانت أبصار النّاس ترنو إلى كثير مِن مُتَع الدُّنيا وشهواتها لِتلتذّ بها؛ فإنّ كمال اللذّة الحقّة في الإيمان بالله وطاعته؛ ولذا يختصّ الله سبحانه بهذه المكرمة مَن أحبّهم وقرّبهم إليه، ففي الخبر: «**إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يُعْطِي الإِيمَانَ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ**».(٢)

▪ **ومِن أعظم ثمرات محبّتك لله: الرِّضا بقضائه، والبصر بمواقع الحكمة في تصريفه وتدبيره سبحانه**، وامتلاء قلبك يقينًا بحكمته، ووثوقًا بالخير فيما قدّره، لا يستولي عليك الجزع، ولا يملأ أقطار نفسك الهلع، حتّى يُصبح حالك كحال عامر بن عبدِ قيس حين يقول: «**لَقَدْ أَحْبَبْتُ اللَّهَ** ﷻ

(١) رواه أحمد (٢٣١٥٤). وفي رواية لأبي داود (٤٩٨٥) من طريق مِسْعَر بن كِدَام، عن عمرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبي الجعد، قال: قال رجل - قال مِسْعَر: أراه من خزاعة -: ليتني صليت فاسترحت، فكأنهم عابوا عليه ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا».

(٢) رواه الحاكم (١/ ٨٨) عن ابن مسعودٍ ﷺ مرفوعًا، وقال: (صحيح الإسناد).
ورواه ابن أبي شيبة في مصنّفه (٣٥٦٨٧) موقوفًا على ابن مسعود ﷺ.
قال الدارقطني في العلل (٥/ ٢٦٩): (الصحيح: موقوف).

حُبًّا سَهَّلَ عَلَيَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ، وَرَضَّانِي بِكُلِّ قَضِيَّةٍ، فَمَا أُبَالِي مَعَ حُبِّي إِيَّاهُ مَا أَصْبَحْتُ عَلَيْهِ وَمَا أَمْسَيْتُ».(١)

وختامًا؛ فإنَّ حبَّ الله ﷻ هو الذي دفع المجاهدين في ساحات الوغى، قد أقبلوا عليها بنفوسٍ منشرحة، يرجون الفوز بالشّهادة، ويشتهون الحسنى وزيادة. وحبُّ العبد لربّه هو الذي بَسَطَ اليد بالنَّدى؛ ففاضت بالأموال التي بُذِل في تحصيلها الأوقات، مع ما جُبِلَت عليه النّفس البشريّة من الضّنّ بالمال، والحبّ الشّديد له. وحبّ العبد لربّه هو الذي أقعد العالِم في دَرسه، ونَصَبَ الدّاعية في منبره؛ يبذل العلم، وينشر الهداية، غير مُكترَث بلذّات الدنيا وشهواتها، يدلّ النّاس على الهُدى، ويحجزهم عن الرّدى، وإنْ ذهبت في ذلك مُهجته؛ ففي عطيّة الله غناه وكفايته. رزقنا الله وإياكم حبّه، وأكرمنا بحبّه ﷻ إيّانا.



(١) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء (٧١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٨٩).

٣/٥ الرّجاء

٣/ ٥/ ١ مَن هم الرّاجون؟

٣/ ٥/ ٢ مجالات وثمرات الرّجاء.

٣/٥/١ مَن هم الرّاجون؟

أثنى الله ﷻ على الراجين لعفوه، المؤمّلين لرحمته، فقال عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٨).

وأخبر عن خواصِّ عباده - الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقرّبون بهم إلى الله تعالى - أنهم كانوا راجين له، خائفين منه؛ فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (الإسراء: ٥٦ - ٥٧). يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني، هم عبادي، يتقرّبون إليّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلِم تدعونهم مِن دوني؟! فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء.[١]

ويقول تعالى مُنوِّهًا بشأن الرّاجين: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ٩).

فنفى الله ﷻ المساواة بين هؤلاء المؤمنين الذين من صفاتهم الرجاء لما عند الله، ومن لم يكن كذلك لتقصيره في الرّجاء والخوف والعمل الصالح.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٣).

وفي الحديث القُدْسيِّ: «يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي: غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ! لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي: غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا: لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

وروى النبيُّ ﷺ عنْ ربِّه تبارك وتعالى أنّه قال: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(٢).

ودخل النبيُّ الله ﷺ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟»،

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٠) والضياء في المختارة (١٥٧١) من حديث أنس ﷺ. وقال الترمذي: (هذا حسن غريب). وهذا اللفظ مروي من حديث أبي ذر ﷺ عن أحمد (٢١٤٧٢) والترمذي (٢٤٩٥) من طريق شَهر بن حَوشَب عن مَعْدي كَربَ عند أحمد وعن عبد الرحمن بن غَنْم عند الترمذي كلاهما عن أبي ذرّ، به، قال الترمذي: (هذا حديث حسن). وحديث أبي ذر رواه مسلم (٢٥٧٧) من طريق سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخَوْلَانيّ، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى، وفيه: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ..».

وقوله: (بِقُرَاب): أي: ما يقارب ملأها. وقوله: (عَنَان): بالفتح، أي: السَّحاب. النهاية (٣/ ٣١٣ و٤/ ٣٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**».(١)

وقد فَقِهَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ فضيلةَ الرّجاء، فكانوا يستبشرون بمن يرجو رحمة الله، وخاصّة عند مفارقة هذه الدّار، قال أبو النَّضْر: قَالَ لِي وَاثِلَةُ بْنُ الْأَسْقَعِ: قُدْنِي إِلَى يَزِيدَ بْنِ الْأَسْوَدِ؛ فَإِنِّي قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَلَمًا نَزَلَ بِهِ، قَالَ: فَقُدْتُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ثَقِيلٌ وَقَدْ وُجِّهَ - يَعْنِي: نَحْوَ الْقِبْلَةِ - وَقَدْ ذَهَبَ عَقْلُهُ، قَالَ: نَادُوهُ، فَنَادَوْهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ أَخُوكَ، قَالَ: فَأَبْقَى اللهُ مِنْ عَقْلِهِ أَنْ سَمِعَ أَنَّ وَاثِلَةَ قَدْ جَاءَ، فَمَدَّ يَدَهُ فَجَعَلَ يَلْتَمِسُ بِهَا، فَعَلِمْتُ مَا يُرِيدُ، فَأَخَذْتُ كَفَّ وَاثِلَةَ فَجَعَلْتُهَا فِي كَفِّهِ...، فَقَالَ وَاثِلَةُ: أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ شَيْءٍ أَسْأَلُكَ عَنْهُ؟ كَيْفَ ظَنُّكَ بِاللهِ؟ قَالَ: أَغْرَقَتْنِي ذُنُوبٌ، وَأَشْفَيْتُ عَلَى هَلَكَةٍ، وَلَكِنْ أَرْجُو رَحْمَةَ اللهِ، فَكَبَّرَ وَاثِلَةُ وَكَبَّرَ أَهْلُ الْبَيْتِ بِتَكْبِيرِهِ، وَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**».(٢)

الرّجاء الحق: هو الذي يقترن بعمل الصّالحات؛ ولهذا قرن الله بينهما في غير ما آية في كتابه من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ

---

(١) رواه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وقال الترمذي: (حسن غريب).

(٢) رواه أحمد (١٦٠١٦) مختصرًا، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (١٦)، ومن طريقه: البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣١٨). وسنده صحيح.

وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢١٨).

فالمؤمنون والمهاجرون والمجاهدون، هم الرّاجون حقًّا.

ويقول تعالى أيضًا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ (الزمر: ٩)، فوصف الراجي لرحمة الله بأنّه كان يقطع آناء الليل وساعاته بالسُّجود والقيام، ويمتلئ قلبه مخافةً مِن الله ورجاءً لِمَا عنده.

ويقول تعالى في آية ثالثة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر: ٢٩)، فوصف الرّاجين بتلاوة كتابه وإقام الصلاة والنفقة في سبيله؛ ولذا قال بعض السلف: «**الرَّجاءُ بِلا عَملٍ، اجْتِراءٌ على الله ﷻ**».(١)

وقال رجلٌ لمسلم بنِ يسَار: «**علِّمني كلمةً تَجمعُ لي موعظةً نافعةً؟**»، فأطَرقَ طويلًا، ثم رَفَعَ رأسَه، فقال: «**لا تُرِدْ بعَمِلِكَ غيرَ مَنْ يَملكُ ضرَّكَ ونَفعكَ**». قال: «**زِدْني**». قال: «**احْمِلْ رجاءَكَ ولا تَستعمِلْهُ، واسْتَشْعِرِ الخوفَ ولا تُغْفِلْهُ**». قال: «**زِدْني**». قال: «**يومَ العَرْضِ على ربِّكَ لا تَنْسَهُ**».(٢)

ومراده بقوله: «**احْمِلْ رجاءَكَ ولا تَستعمِلْهُ**» أي: كنْ عظيم الرجاء في ربك، لكن لا يسوقك ذاك إلى التفريط وترك الحزم.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٢٥).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٢٨ - ٣٢٩).

و(جلس معاويةُ بنُ قُرَّةَ ورجلٌ مِنَ التّابعينَ يتذاكران؛ فقال أحدُهما: «**إنِّي لأرجو وأخاف**»، وقال الآخرُ: «**إنَّه مَنْ رجا شيئًا طلبه، وإنَّهُ مَنْ خافَ مِنْ شيءٍ هَرَبَ منه، وما حَسْبُ امرئٍ يَرجو شيئًا لا يَطلُبه، وما حَسْبُ امرئٍ يخافُ شيئًا ولا يَهرُبُ مِنه**».

وأنشد أبو عثمان سعيد بن إسماعيل:

مَا بَـالُ دِينِـكَ تَرْضَـى أَنْ تُـدَنِّسَـهُ ... وَأَنَّ ثَوْبَكَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَـسِ

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَـمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَـهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ).[1]

وقال شاهٌ الكِرْمَانِيُّ: «**علامة صحّة الرّجاء: حُسن الطّاعة**».[2]

وقال ابنُ القيِّم - رحمة الله عليه -:

«**الرّجاءُ ثلاثةُ أنواعٍ**: نوعانِ محمودانِ، ونوعٌ غُرورٌ مذمومٌ:

فالأوّلانِ: رجاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بطاعة الله على نور مِن الله، فهو راجٍ لثوابه، ورجُل أذنبَ ذنوبًا ثمّ تاب منها، فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجُوده وحِلمه وكرمه.

والثّالثُ: رجُل مُتمادٍ في التّفريط والخطايا، يرجو رحمةَ الله بلا عملٍ؛ فهذا هو الغرور والتّمنّي، والرّجاء الكاذب».[3]

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٣٢٩).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٢٦٠)، مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

وعلى هذا؛ فعلى العبد أنْ يُعْظِمَ الرَّغبةَ في عفو ربِّه، مع بَذْلِه غاية جهده في عمله وطاعته.



٢/٥/٣ مجالات وثمرات الرّجاء

الرَّجاء في مغفرة الله ورحمته يتناول أمورًا ثلاثة:

أولها: الرَّجاء بالظَّفَر بالوصول إلى جنّة الله ورضوانه.

والثاني: الرَّجاء بالنّجاة من عذاب الله وسخطه.

وثالثها: الرَّجاء لدفع معرّة الذنوب بالمغفرة والتجاوز.

فالرَّجاء لهذا: عبودية تامّة من المخلوق للخالق، يُظهِر حاجة العبد إلى ربّه، وكمال رغبته في إحسانه إليه؛ فهو استصحاب لمِثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

والرَّجاء الحقّ: يُثمرُ عبوديّةَ السُّؤال لله ربّ العالمين، فيلح العبد على ربّه بالسُّؤال؛ لأنه يعلم أنّ الله ﷻ أجود مَن سُئل، وأوسع مَن أَعطى، وفي الحديث: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».[١]

والرَّجاء الحقّ: هو الذي يُبرّد حرارة الخوف من الله؛ فلولا الرّجاء لوقع العبد في القنوط من رحمة ربّه، والإياس من عفوه.

يُروَى أنّ لقمانَ قال لابنه: «**يا بُنيَّ! اُرْجُ اللهَ رجاءً لا تأمنُ فيه مَكرَهُ، وخَفِ اللهَ مخافةً لا تيأسُ فيها مِنْ رحمتِه**. فقال ابنُه: يا أبتاه! وكيف أستطيعُ

---

(١) رواه أحمد (٩٧٠١)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٥٨)، والترمذي (٣٣٧٥)، والحاكم (١/ ٦٦٨) بنحوه، من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الحاكم: (صحيح الإسناد).

ذلكَ؛ وإنّما لي قلبٌ واحدٌ؟ فقال: يا بُنَيَّ! إنَّ المؤمنَ لَذُو قَلْبَيْنِ، قلبٌ يرجو بِه، وقلبٌ يخاف بِه».[1]

وفي روايةٍ: أنَّ لقمانَ قال: «يا بُنيَّ! ارْجُ اللهَ رجاءً لا يُجرِّئُكَ على معصيتِه، وخَفِ الله خوفًا لا يُؤيِّسُكَ مِنْ رحمتِه».[2]

ويقول أبو عثمان المغربي: «مَن حَمَلَ نَفْسَهُ على الرّجاءِ تَعطَّل، ومَن حَمَلَ نفسَهُ على الخوفِ قَنَطَ، ولكنْ ساعةً وساعةً، ومرّةً ومرّةً».[3]

ومراد أبي عثمان بقوله: «تعطَّل»: أي: مَنِ اتّكلَ على الرّجاء، وفهمه غلطًا، ربّما ترك العمل؛ ولكن إنّما تصح حاله إذا اجتمع في قلبه الخوف والرجاء.

وعن أبي يعقوب القارئ الدَّقِيْقِيِّ، قال: رأيتُ في منامي رجُلًا آدَمَ طُوالًا والنّاسُ يتّبعونه، فقلت: مَن هذا؟ قالوا: أُوَيْسٌ القَرَنِيُّ، قال: فاتَّبَعْتُه، فقلتُ: أوصني رحمك الله، قال: «ابْتَغِ رحمةَ اللهِ عند محبَّتِه، واحذرْ نِقْمَتَهُ عند معصيتِه، ولا تَقْطَعْ رجاءَك عنه في خلال ذلك». ثم وَلَّى وتَركنِي.[4]

---

(١) رواه في الزهد: ابن المبارك (٩١٢)، وأحمد (٥٤٩)، وهنّاد (٥٣٨). وفي ابن المبارك: (كذي قلبين).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٨٣).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٣٤٢)، الرسالة القشيرية (١/ ٢٦١).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في المنامات (٦٦)، وفي حسن الظن بالله (١٣٦) ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٤٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ٤٥٥).

خَفْ غِبَّ ذَنْبِكَ وَارْجُ اللهَ مُزْدَجِرًا   لَعَلَّ رَبَّكَ بَعْدَ الْخَوْفِ غَافِرُهُ[1]

قال ذُو النُّون: **«الخوفُ رقيبُ العملِ، والرَّجاءُ شفيعُ المِحَنِ»**.[2]

وإنّما كان الخوف رقيبًا؛ لأنّه يزعج صاحبه عن الاسترسال بالتّقصير، فإذا وقع في كُربةٍ عظيمة، وبلاءٍ كبير، لمْ يستول عليه اليأس؛ فالرجاءُ شفيعٌ له عند الله إذا عاد إلى ربِّه بتوبةٍ وإنابة.

ومن هنا كره السّلف الاقتصار على التّخويف؛ لئلّا يؤدِّي إلى أثر سيِّئ في النفس، فيوقع الموعوظ في اليأس من رحمة الله. مرَّ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه على قاصٍّ، وهو يُذكِّرُ، فقال: **«يا مُذَكِّرُ! لا تُقَنِّطِ النّاسَ، ثم قرأ:** ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٣)».[3]

وكان مِن مناجاة العبد الصّالح يحيى بن مُعاذٍ الرّازيِّ لربِّه رحمه الله، قوله: **«إلهي! إنْ كنتُ غيرَ مُستأهِلٍ لِمَا أرجو مِن رحمتِكَ، فأنتَ أَهلٌ أنْ تجودَ على المذنبينَ بِفضلِ سَعَتِك. إلهي! لَوْلَا ما عَرَفْتُ مِن عَدلِكَ ما خِفْتُ مِن**

---

(١) التوبة لابن أبي الدنيا (ص٧٨).

(٢) حلية الأولياء (٩/ ٣٩٥)، شعب الإيمان (٢/ ٣٤٧).

(٣) رواه معمر بن راشد (مجمع معمر مع عبد الرزاق) (٢٠٥٥٨) - ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٢٧) - عن الأعمش، عن ابن مسعود رضي الله عنه به. ورواه ابن أبي شيبة (٣٥٣٥٤)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٤١) من طريق الأعمش، عن أبي سعد (ويقال: أبو سعيد، الأزدي الكوفي)، عن أبي الكنود (الأزدي)، عن ابن مسعود رضي الله عنه به. وإسناده ثقات.

عذابك، ولَوْلَا ما عَرَفْتُ مِن فَضلِكَ ما رَجَوْتُ ثوابَك. إلهي! إنْ كنتَ لا تَعفُو إلَّا أَهْلَ طاعتِكَ، فإلى مَن يَفزعُ المُذنِبون؟ وإنْ كنتَ لا تَرحمُ إلَّا أَهْلَ تقواكَ، فبِمَن يَستغيثُ المُسيئونَ؟».[1]

الرَّجاءُ الحقُّ: هو الذي يُولِّدُ لدى صاحبه الاجتهاد في العمل، والتلذُّذ بالتعبُّد، والسَّماحة بترك المنهيّات..

قال ابنُ القيِّمُ -رحمه الله-: «أمّا توليدُه للتلذُّذ بالخدمة؛ فإنَّه كُلَّما طالع قلبُه ثمرتَها، وحُسنَ عاقبتِها، الْتَذَّ بها. وهذا كحال مَن يرجو الأرباحَ العظيمةَ في سفره، ويُقاسي مَشاقَّ السَّفر لأجلها، فكُلَّما صَوّرَها لِقَلبِه هانت عليه تلك المشاقُّ والْتَذَّ بها... وأمّا إيقاظُ الطِّباع للسَّماحة بترك المناهي؛ فإنَّ الطِّباعَ لها معلومٌ ورُسومٌ تتقاضاها مِنَ العبد، ولا تَسمحُ لهُ بِتركِها إلَّا بِعِوَضٍ هُو أَحَبُّ إليها مِنْ مَعْلُومِها ورُسومِها، وأَجَلُّ عندها منهُ وأنفعُ لها. فإذا قوي تعلّق الرَّجاء بهذا العِوَضِ الأفضلِ الأشرفِ، سَمَحَتِ الطِّباعُ بترك تلك الرُّسوم، وذلك المعلوم؛ فإنَّ النّفس لا تَتركُ محبوبًا إلَّا لمحبوب هو أَحبُّ إليها منه، أو حذرًا مِن مَخُوفٍ هو أَعظمُ مَفسدةً لها من حُصول مصلحتها بذلك المحبوب».[2]

وقال أيضًا-: «أفضلُ أنواعِ الرَّجاء وأعْلاها، رجاءُ أربابِ القلوب، وهو رجاءُ لقاءِ الخالق الباعث على الاشتياق، المُبَغِّضِ المُنَغِّص للعَيش،

(١) شُعَب الإيمان (٢/ ٣٤٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥٤ - ٥٥).

المُزَهِّدِ في الخَلْق، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف: ١١٠)، وقال تعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٰتٍ﴾ (العنكبوت: ٥)».[1]

هذا الرَّجاءُ: هو محضُ الإيمانِ وزُبْدَتُه، وإليه شَخَصَتْ أبصارُ المشتاقينَ؛ ولذلكَ سَلَّاهُم اللهُ تعالى بإتيانِ أَجَلِ لقائِه، وضَرَبَ لهُم أَجْرًا يُسَكِّنُ نُفوسَهُم ويُطَمْئِنُها..

لَا تَـخفْ وَحْشَةَ الـطَّرِيقِ إِذَا جِئْـ ... ـتَ وَكُنْ فِي خِفَـارَةِ الْـحُبِّ سَائِرْ

وَاصْبِرِ النَّـفْسَ سَاعَةً عَنْ سِوَاهُمْ ... فَـإِذَا لَـمْ تُـجَـبْ لِصَبْـرٍ فَـصَابِرْ

وَافْـطُـمِ النَّـفْسَ عَنْ سِوَاهُ فَكُلُّ الْـ ... ـعَيْشِ بَعْدَ الْفِطَـامِ نَحْـوَكَ صَائِرْ

يَا أَخَا الـلُّبِّ إِنَّـمَا السَّيْـرُ عَـــزْمٌ ... ثُـــمَّ صَبْـرٌ مُـــؤَيَّـــدٌ بِالْبَصَـائِـرْ

يَـــا لَهَا مِـنْ ثَـلَاثَـةٍ مَنْ يَـنَـلْـهَـــا ... يَـرْقَ يَوْمَ الْـمَزِيدِ فَوْقَ الْمَنَابِـرْ[2]

وقد كان المصطفى ﷺ قدوة هذه الأمة، عظيم الرجاء في ربّه لنفسه ولأُمّته .. فها هو ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ».[3]

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥٦).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٥٧).

(٣) رواه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

وقال ﷺ في حق أُمّته: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ».[1]



(١) رواه البخاري (٤٩٨١ و٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة.

٦/ الخوف من الله

٣/ ٦/ ١ موجِباته.

٣/ ٦/ ٢ كيف يولَد؟

٣/ ٦/ ٣ أمن الخائفين.

٣/ ٦/ ٤ أنواعه.

٣/ ٦/ ٥ حافز لا مُقعِد.

٣/ ٦/ ٦ التوزان بين الخوف والرّجاء.

١/٦/٣ موجِبات الخوف من الله

من أعظم أعمال القلوب «الخوف من الله وخشيته» دومًا وأبدًا، وسِرًّاوعلنًا. والخوف: اضطراب القلب، وحركته مِن تذكُّر المَخُوف، سواء كان ذلك المخوف: توقُّع مكروه، أو فوات محبوب.

والخشية: خوف يشوبه تعظيم؛ ولهذا وُصِفَ بها العلماء، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر: ٢٨)، وقوله ﷻ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١).

ووُصِفَ الملائكة بالخشية مع عظمتهم وقوّتهم؛ وإنما خافوا وخشوا؛ لما يعلمونه من عظمة الباري ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٦ - ٢٨).

وقد أمر الله ﷻ بالخوف منه، وحثّ على خشيته، في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٧٥)، وقال أيضًا: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال أيضًا: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (البقرة: ٤٠). وقال أيضًا: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

وأثنى الله على الخائفين منه ﷻ، فقال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (النور: ٣٦ - ٣٧)، وقال أيضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، وقال أيضًا: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور: ٥٢). والفوز: هو الظَّفَرُ بالخيرِ مع حصول السلامة.[1]

وتعريف طرفَي الجملة: ﴿ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ دليل على حصولهم على أكمل الفوز وأتمّه، جزاء لهم على خوفهم من ربّهم.

وإنما يحصل الخوف للعبد بأمورٍ، ذكرها الحَلِيمِيُّ في كتابه «المنهاج»[2]، وأنا ذاكرها مع التعليق عليها:

▪ **الأمر الأول:** «**ما يَحدث من معرفة العبد بذِلّة نفسه، وقصورها وعجزها عن الامتناع عن الله تعالى**». قال: «**وهذا نظير خوف الولد والديه، وخوف الناس سلطانهم، وإنْ كان عادلًا محسنًا**».اهـ.

قلت: وإنما يحصل هذا من معرفتين: **الأولى**: كمال الرب. **والثانية**: ضعف المخلوق؛ ولهذا قرن الله بينهما في مثل قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ

---

(١) المفردات (ص٣٨٧).

(٢) انظر: المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٥٠٩).

﴿لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح: ١٣ - ١٤). عن ابن عباس في تفسير قوله ﴿وَقَارًا﴾ أي: «عظمة».[1]

يعني: مالكم لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر مع ضعفكم وعجزكم؛ فإنّ الله خلقكم أطوارًا، خَلْقًا مِنْ بَعدِ خَلْقٍ في بطون أمّهاتكم، ثم الرَّضاع ثم سنّ الطفولة، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما يصل إليه خلقكم.. وقد خلقكم قبل ذلك من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلّقة وغير مخلّقة، ثم أنشأ العِظام، ثم كساها لحمًا.

هذا المخلوق يمرّ بهذه الأطوار - بفضلِ مِنّة الله ونِعمته - التي تُبِينُ عن ضعفه، وعن عظمة خالقه وقدرته.

ثم أتبع ذلك ﷻ ببيان كمال قدرته على ما هو أعظم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح: ١٥ - ١٦).

ومن هذا الباب أيضًا، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ۝٦٧ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (الإسراء: ٦٧ - ٦٩).

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٩٥).

▪ **وأما الأمر الثاني الذي يحصل به الخوف لدى العبد:** «**فهو ما يحدث من المحبّة، وهو أنْ يكون العبد في عامّة الأوقات وَجِلًا مِن أنْ يكله ربّه إلى نفسه، ويمنعه موادّ التوفيق، ويقطع دونه الأسباب**».اهـ.

قلت: المسلم لا شك أنّه مسرور بما هداه الله للإسلام، ووفّقه للاستقامة، وهو وَجِلٌ خائف من أنْ يُسلبَ ذلك، فلا يزال يلتجئ إلى ربّه أنْ يحفظ عليه دينه، وأنْ يُبارك له في تقواه؛ ومن هنا كان هذا الإشفاق والدُّعاء بالحفظ لِنعمةِ الإسلام مِن صفات الكُمَّل الرّاسخين في العلم، كما ذكر الله ذلك في أول سورة آل عمران؛ حيث قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٧ – ٨). فإذا كان هذا وَجَل الرّاسخين في العلم، فكيف بمن دونهم؟! والله المستعان.

▪ **والأمر الثالث الذي يحصل به الخوف لدى العبد:** كثرة النظر في الوعيد الذي جاء به الدّليل الشّرعيّ، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦).



٢/٦/٣ كيف يولد الخوف من الله؟

لمّا كان الخوف من الله من أعظم أعمال القلوب، وأعلى درجات الإيمان، حَسُنَ من المؤمن أنْ يطيل الوقوف عند الأسباب الموجِبة لهذا الخوف في قلبه، ومن أعظم ذلك: التفكُّر والتأمُّل في وعيد الله لمن عصاه، وتنكَّبَ أمره، وازْوَرَّ عن طاعة رسله، ورَكِبَ رأسه؛ فذهب يقترف من السيِّئات ما يقترف، ويعاقر من الشّناعات ما يعاقر؛ في غفلة دائمة، وسَكْرَة مُطبِقة، وصَمٍّ للآذان عن داعي الحق.

لقد أفاض القرآن الكريم والسُّنّة المطهَّرة في تفصيل وعيد الله ﷻ للعصاة، كما وقع مِن التفصيل في ذِكر أوصاف جهنّم - والعياذ بالله - بما لا مزيد عليه، ويكفي الموفّق أنْ يستعرض تلك النصوص؛ ليُحيي قلبه بمواعظ الله، ومواعظ رسوله ﷺ. فالنّار -عِياذًا بالله منها- : بعيدة القعر، إذا أُلقِي الحجر من أعلاها احتاج إلى آماد طويلة حتى يبلغ منتهاها .. **كان رسولُ الله ﷺ مع أصحابه فسمعوا وَجْبَةً**[1]، فقال رسول الله ﷺ: «**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**».[2]

---

(١) (الوَجْبَة): بفتح الواو وإسكان الجيم وبالموحّدة، صوت الشّيء يسقُط، مِن علو إلى سفل بصوت مزعج. وهي: الوَقْعَة، والسَّقْطة مع الهَدَّة. انظر: الصحاح (١/ ٢٣٢)، المحكم لابن سِيْدَهْ (٧/ ٥٧٠)، تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي(ص٣٦٨)، مشارق الأنوار (٢/ ٢٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٤).

وهذه النّار توقَد بما لا عهد للإنسان به، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ (التحريم: ٦).

وأكثر المفسِّرين على أنّ المراد بالحجارة، حجارة الكبريت التي توقَد بها النار، ويقال: إنّ فيها خمسة أنواع من العذاب ليست في غيرها: سرعة الإيقاد، ونتَن الرائحة، وكثرة الدُّخَان، وشِدّة الالتصاق بالأبدان، وقوّة حرّها إذا حميت.[1]

وقد دلّت السُّنّة على شِدّة حرِّها، كما في حديث أبي هريرة، أنه ﷺ قال: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا».[2] وفي لفظٍ: «وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ».[3] وقد وصف المصطفى ﷺ بعضَ هذه النّار بما يدل على كمال خُبثها، وسوء معدنها، فقال ﷺ: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ - وفي روايةٍ عند أحمد

(١) التخويف من النار (ص١٠٧). وقال الطبريُّ رحمه الله تعالى في تفسيره (١/ ٤٠٣): (فإنْ قال قائل: وكيف خُصَّت الحجارة، فقرنت بالنّاس حتى جُعِلَت لنَار جهنّم حطبًا؟ قيل: إنّها حجارة الكبريت، وهي أشد الحجارة فيما بلغنا حرًّا إذا أُحْمِيَت). ثم ساق بأسانيده عن ابن مسعود وابن عباس وعن ناسٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ، وعن ابن جريج، أنّ الحجارة هي حجارة الكبريت.

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) واللفظ لمسلم.

(٣) رواه أحمد (٧٣٢٧) واللفظ له، وابن حبان (٧٤٦٣) بنحوه، وسنده صحيح.

والحاكم: «لَأَمَرَّتْ» - عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟».[1]

إذا كان هذا أثر القطرة من الزَّقُّوم، فكيف بها كاملة؟! والزَّقُّوم طعامٌ خبيثٌ، وَصَفَ اللهُ شجرتَه بما يُولِّدُ كراهيتها والنُّفور منها، فقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ (الدخان ٤٣- ٤٦)، وقال أيضًا: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الصافات: ٦٢ - ٦٨).

ولأهل النّار طعامٌ آخر، هو لون مِن ألوان التعذيب، وشكل مِن أشكال التنكيل، لا يَسُدُّ فاقةً، ولا يُزيل جوعًا، ولا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور، بل هو مِن شرّ الطعام وأبشعه وأخبثه، قد ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ (الغاشية: ٦ - ٧). و«المقصود من الطعام أحد أمرين: إمّا أنْ يَسدَّ جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإمّا أنْ يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام

---

(١) رواه أحمد (٢٧٣٥ و٣١٣٦)، والترمذي (٢٥٨٥)، وابن ماجَهْ (٤٣٢٥)، والنسائي في السُّنَن الكبير (١١٠٠٤)، وابن حبان (٧٤٧٠)، والحاكم(٢/ ٣٢٢) وصحّحه على شرطهما من حديث ابن عباس.

ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسّة، نسأل الله العافية».[1]

وإذا أكَل أهل النّار هذا الطعام الخبيث مِن الضَّريع والزَّقوم، غصُّوا به لقُبحِه وخُبثه وفساده: ﴿ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ (المزمل: ١٢ - ١٣).

وكما أنّ العبد ينبغي أنْ يطيل النظر في وصف النّار -أجارنا الله وإيّاكم منها-، فينبغي أنْ يكون له نظر آخر في الذُّنوب والمعاصي التي رُتِّب على فعلها دخول النار، وأعظم ذلكَ ما يقتضي التخليدَ فيها، وهو الشِّرك بالله والكُفر به، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ﴾ (فاطر: ٣٦).

ودون ذلك: الجرائم التي تقضي بدخول صاحبها في النار دون تخليده فيها: كالحسد، والكذب، والخيانة، والظُّلم، والفواحش، والغدر، وقطيعة الرحم، والجبن عن الجهاد حيث يجب، والبخل، واختلاف السرّ والعلانيَة، والجزع عند المصائب، والفخر والبطّر عند النِّعم، والتهاون في أداء فرائض الله، واعتداء حدوده، وانتهاك حرماته، والعمل رياءً وسمعة، وطاعة المخلوق في معصية الخالق، والتعصّب للباطل، والكتمان لما يجب إظهاره من العلم والشهادة، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي

(١) تفسير السعدي (ص٩٢٢).

حرّم الله إلّا بالحق، وأكل مال اليتيم، والرِّبا، والفرار من الزحف، وقذف المحصنات الغافلات.. إلى آخر ما هنالك من السيّئات.

والسبب الأعظم للوقوع في هذه الجرائم ونحوها: اتباع الشهوات، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ (آل عمران: ١٤).

فالعاقل مَن فَطَمَ شهواته؛ لينجو من عذاب الله، ويفوز برضاه.



٣/٦/٣ أمن الخائفين

امتلأ الكتاب الكريم، والسُّنّة المطهَّرة، بالنصوص الدالّة على «فضيلة الخوف من الله ﷻ»، مِن مثل قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦)، قال مجاهد رحمه الله: «هو الرَّجل يريد أنْ يُذْنِبَ، فَيَذْكُرُ مَقامَ ربِّه فيدَعُ الذنب».[١]

الخائفون من الله ﷻ، آمنون يوم الفزع الأكبر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠ - ٤١)، وفي الحديث القُدْسيِّ: «وَعِزَّتي! لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ؛ إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[٢]

الخوف -كما يقول بعض أهل العلم-: «سوط الله تعالى، يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القُرْب من الله تعالى».[٣]

والذين يخافون من الله ﷻ، هم ورثة العلم الحقيقيّ الذي يعرف الإنسان به نفسه وربّه، وخطر خاتمته وما هو مُقْبِل عليه، وهم أهل الامتثال

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٢٣٥).

(٢) رواه ابن المبارك في الزُّهد، برقم: (١٥٧) عن عوف، عن الحسن، به مرسلًا. ورواه ابن حبان (٦٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٢٣) موصولًا من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ، به. قال الدارقطنيُّ في العلل (٨/ ٣٨): (...إنما يُعرَف هذا من حديث عوف، عن الحسن، مرسل).

(٣) إحياء علوم الدِّين (٤/ ١٥٧). وعنه: شرح المشكاة للطِّيبي (٨/ ٢٦٤٧)، المرقاة (٦/ ٢٤٧٩).

لأوامر الله ﷻ، والانتهاء عن نواهيه وزواجره. قال الإمام إبراهيم التَّيْمِيُّ رحمه الله: «ينبغي لمنْ لمْ يَحزنْ أنْ يخافَ ألّا يكونَ مِن أهلِ الجنّةِ؛ لأنّهم قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (فاطر: ٣٤)، وينبغي لمنْ لمْ يُشْفِقْ أنْ يخافَ ألّا يكونَ مِن أهلِ الجنّةِ؛ لأنّهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (الطور: ٢٦)».[(١)]

الخائفون من الله في الدنيا، مُكْرَمُون يوم القيامة بالظِّل الوارف، بينما غيرهم يصطلي بحرِّ الشمس، قال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ». ثم ذكر منهم: «وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ».[(٢)]

وإنما يصدر ذلك عن شِدَّةِ مَعْرِفَة بالله تعالى، وخوف منه ﷻ، ومتين تقوى وحياء.[(٣)]

وتزداد فضيلةُ الخوفِ مِن الله ﷻ، حينما يُثمِرُ تفاعلًا وحِراكًا يَبْدُو صلاحُه، ويتجلّى خيرُه ونعماؤه، على الإنسان كل الإنسان باطنه وظاهره؛ فينفعل الظاهر بحركة الباطن، ويتحرّك الباطن بتأثير الظاهر، فتتلاقى - دون مقاومة أو مصارعة أومدافعة أومعارضة، بل في لِيْن وذِلّة ويُسْر وسهولة - البواطنُ والظواهر، على حركة واحدة، وقِبْلَة واحدة، قبلة

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الهمِّ والحزن، برقم: (٢٤).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: المفهم (٣/ ٧٦).

العبوديّة للإله الحقّ، والمألوه المستحِقّ، فهنا تَوجل القلوب - وحُقَّ لها أنْ توجل-، وتذرف العيون - وحُقَّ لها عند ذاك أنْ تذرف- . ومَن وَلَجَ هذا الدَّرب في الدُّنيا، يوشك أنْ يجد ثمرته في الآخرة، كما قال ﷺ: «**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ**».(١)

وفي الحديث: «**عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ**»، فذكر منهما: «**عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**».(٢)

ولئن كان من الخوف ما يَقصر عن أن يحول بين العبد ودخول النّار؛ فإنّه لا يقصر عن إخراجه من النّار بعد دخوله فيها؛ فعن أنس ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: يَقُولُ اللَّهُ: «**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا، أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ**».(٣)

وقد يستولي الخوف على العبد، فيُوقِعه فيما لا ينبغي، ولكنّ الله يعلم صدق ما وقع في القلب من خشية الله وتعظيمه، فيغفر لصاحبه ما وقع منه؛ فقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا**

(١) رواه أحمد (١٠١٨٢) والترمذي (١٦٣٣) والنسائي (٣٠٦١)، وابن ماجه (٢٧٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: (حسن صحيح).

(٢) رواه الترمذي (١٦٣٩) من حديث ابن عباس، وقال: (حسن غريب).

(٣) رواه في الزهد: أحمد (٢١٥٤)، وأبو حاتم (٣٧)، والترمذي في جامعه (٢٥٩٤)، والحاكم في مستدركه (١/ ١٤١). قال الترمذي: (حسن غريب)، وقال الحاكم: (صحيح الإسناد). قلت: فيه مبارك بن فضالة، تفرّد به - كما في أطراف الغرائب والأفراد (٩٢٤) -، ثم إنَّه رواه معنعنًا ولم يصرِّح بالتحديث، وقد سُئِل عنه أبو زرعة - كما في الجرح والتعديل (٨/ ٣٣٩) -، فقال: (يُدلِّس كثيرًا، فإذا قال: حدّثنا، فهو ثقة)، وقال في التقريب (٦٤٦٣): (صدوق، يُدلِّس ويُسوِّي).

حَضَرَهُ المَوْتُ، قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ، فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ».[1]

ولا عجب بعد هذه الفضائل للخوف من الله، أنْ يكون الخوف من أعلى خصال الإيمان؛ فعن عُبادة بن الصّامت ﵁ مرفوعًا: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ إِيمَانِ الْمَرْءِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ».[2]

قال ابنُ مَسعودٍ ﵁: «خَيرُ الزّادِ التقوى، ورأسُ الحِكمةِ مخافةُ اللهِ ﷿».[3]

وقال مَسروقٌ: «كفى بالمرءِ عِلمًا: أنْ يَخشَى اللهَ، وكفى بالمرءِ جهلًا: أنْ يُعجبَ بِعَمله».[4]



(١) رواه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة ﵁، ورواه البخاري (٣٤٧٨) ومسلم (٢٧٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

(٢) رواه الدُّولابي في الكنى (١٥٣٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠٠).

(٣) قطعة من خطبةٍ لعبد الله بن مسعودٍ ﵁، روى أولها رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٤٢)، وهنّاد في الزُّهد: (٤٩٧) وكذا أبو داود (١٧٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٦٩٤)، واقتصر على موضع الشاهد البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠١).

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات (٦/ ٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠٥). ورواه الدارمي في سننه (٣٢٢ و٣٩٥)، وفيه: (بِعِلْمِه).

٣/٦/٤ أنواع الخوف من الله

الخوف من الله ﷻ ليس شعورًا مبهمًا يستولي على النفس فلا تُدرك حدوده، ولا تعرف تفاصيله؛ ولكنه خوف: استُقيت حدوده، وعُرِفت أجزاؤه، وشُرِعت معالِمه، مِن أدلّة الشّرع الحنيف. وأنا ذاكر بإذن الله أنواعًا من الخوف على سبيل التمثيل، لا الحصر والتفصيل؛ **فمن أنواع الخوف:**

▪ **الخوف من عقوبة الله**، وقد ذكرنا فيما سبق أنه يَحسن بالمكلَّف أنْ يُطيل النّظر في أنواع العقوبات التي وردت في الكتاب والسُّنّة. بيد أنّ ذلك النّظر إنّما يؤثّر إذا كان مبنيًّا على علم بما يكرهه الله ويبغضه من الأعمال، ومعرفة أقدار هذه الأعمال؛ فقد يقارف المكلَّف عملًا يظنُّه صغيرًا وهو عند الله كبير، وأعظم ما يكون ذلك في فلتات اللسان التي قد لا يأبه لها العباد؛ ولذا قال ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».[1] وفي الحديث: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**».[2]

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٨) -واللفظ له-، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٩) من حديث بلال بن الحارث المُزَنِيِّ صاحب رسُول الله ﷺ، وقال: (حديث حسن صحيح).

▪ ومن أنواع الخوف المحمود: الخوف من مكر الله، بخروج العبد من الطاعة إلى المعصية؛ ذلك لأنّ من العباد من يغترّ بطاعته، فينسيه ذلك ما يجب عليه من الإخلاص لله، فيغدو العمل صورة بلا روح؛ بل قد يتحوّل إلى عمل رياء، فيتحوّل ذلك العمل من كونه سبب نجاة، إلى أنْ يصبح سبب هلاك - والعياذ بالله -.

وقد أخبر الله عن أهل الجنّة أنّهم يتحاورون تحاور تلذُّذ؛ فيتذاكرون ما أصابهم في الدُّنيا مِن النَّصَب، وما أُكرمُوا به اليوم في دار النّعيم مِن جنّات ونَهَر..

ومِن حوارهم هذا ما قصَّه اللهُ بقوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الطور: ٢٥ - ٢٧)، قال الحَلِيْمِيُّ: «جاء في التفسير: أنهم كانوا مُشفقين أنْ يُسلَبوا الإسلام، فيُورَدوا يوم القيامة موارد الأشقياء».[(١)]

وقد كان ﷺ يُرشِد أُمّته -بالقول والعمل- إلى ضرورة التيقُّظ، واستحضار الخوف مِن مَكر الله ﷻ، والخوف مِن تقلُّب القلوب وتحوُّلها مِن الإقامة على الإيمان إلى الزَّيغ إلى غيره؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: (**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْتُ:**

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (١/ ٥١٠)، وعنه: البيهقي في شُعَب الإيمان (٢/ ١٩٣).

يَا رَسُولَ اللَّه، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِه، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**».[1] وعن شَهْر بن حَوْشَب، أنّه قال لأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِه: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ! إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ». ثم قرأ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨).[2]

- **ومن أنواع الخوف المحمود**: الخوف من سوء الخاتمة عند الموت.

وسوء الخاتمة - والعياذ بالله - يقع على وجهين:

الأول: أنْ يَغلب على القلب عند الموت شك أو جحود.

والثاني: أنْ يَسخط الأقدار، ويتكلّم بالاعتراض، أو يجور في وصيّته، أو يموت مُصرًّا على ذنب من الذنوب.

وقد كان ﷺ يستعيذ بالله من هذه الحال التي يُختَم للعبد بها نتيجة تسلُّط الشّيطان عليه في آخر ساعات عمره؛ فعن أبي اليَسَر: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وقال: (حديث حسن).

(٢) رواه أحمد (٢٦٥٧٦)، وابن راهُوْيَهْ في مسنده (١٨٧٩)، والترمذيُّ (٣٥٢٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٠١)، وابن بطّة في الإبانة (٣/ ٢٨٣). قال الترمذي: (هذا حديث حسن).

كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ... أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ...».

الحديث.[1] قال الخطّابي: استعاذته ﷺ مِنْ تخبُّط الشّيطان عند الموت، هو أنْ يستوليَ عليه الشّيطان عند مفارقة الدُّنيا، فيضلّه، ويحول بينه وبين التّوبة، أو يعوقه عن إصلاح شأنه، والخروج من مظلمة تكون قِبَله، أو يؤيّسه من رحمة الله، أو يتكرّه الموت ويتأسّف على حياة الدُّنيا؛ فلا يرضى بما قضاه الله من الفناء والنُّقلة إلى الدّار الآخرة، فيُختَم له بالسُّوء، ويَلْقَى اللهَ وهو ساخطٌ عليه.[2]

▪ **ومن أنواع الخوف المحمود:** الخوف من الوقوف بين يدي الله ﷻ، ومناقشة الحساب، والتوقيف على الذُّنوب والزَّلّات، فقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلاَ يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».[3] يعني: فليفعل.

والمقصود: أنّ أنواع المخاوف كثيرة، وما ذكرناه إنما هو على سبيل التمثيل، والموفّق مَنْ أجرى ذِكر هذه المخاوف على قلبه، فأصلح بتذكُّرها فساده، وأزعج بها جوارحه إلى عمل صالح يُنجِيه في مَعادِه.

---

(١) رواه أحمد (١٥٥٢٣)، وأبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧١٣)، وقال: (صحيح الإسناد).

(٢) معالم السنن (١/ ٢٩٦).

(٣) رواه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦) من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه.

جعلنا الله وإيّاكم من الخائفين منه ﷻ حقّ خوفه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.



٣/٦/٥ الخوف من الله حافز لا مُقعِد

الخوف مِن الله ﷻ مِن أزكى الأعمال القلبيّة، وأرفعها شأنًا، وأعظمها موقعًا. وهو مِن الخصال الشريفة التي تدفع نحو خصال الخير دفعًا، وتحفّز لاكتسابها حفزًا. بل إنّ له الأثر الأكبر في توليد هذه الخصال ونمائها، والنصيب الأوفر في الصيانة والتوقّي من خصال الشّر ودفع بداياتها. وما هذا إلّا أثرٌ بيِّنٌ في تأثير عمل الخوف في حركة الباطن، واستيلائه على حركة الظاهر.. **هذا هو الخوف المحمود، وهذه صورته..**

وحينما يكون الخوف قاطع طريق عن العمل، وحجر عثْرة في طريق التوبة، يصبح قنوطًا من رحمة الله، ويأسًا من فرَجه .. وهنا ينقلب الخوف مِن خصلة خير وبِرّ إلى خصلة شرّ وضلال، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ (الحجر: ٥٦)، وقال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

وقد اقترن الخوف بالعمل في آيات كثيرة من كتاب الله ﷻ، وذلك دليل على أنّ الخوف الشرعيّ قرينٌ للعمل، وليس نقيضًا له؛ انظر إلى مثل قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (النور: ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (الإنسان: ٧ - ١٠).

فخوف هؤلاء من الله: ألزمهم ذِكْرَه، وجعلهم يديمون عبادته؛ من إقامة للصّلاة، وإيتاء للزكاة، وحملهم على الوفاء بالمنذور، والمسارعة إلى إطعام الجائع المكسور.

وكما أنّ الخوف الشّرعيّ يدفع إلى العمل، فهو يُولِّد في القلب حالة من الوجَل أنْ لا يُقبل منه ذلك العمل، وهذا الوَجَل من أعظم المُعِينات على الإخلاص، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠ - ٦١)، قالت عائشةُ رضي الله عنها لمّا سَمِعَت هذه الآية: يَا رَسُولَ الله، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَهُوَ يَخَافُ اللهَ؟ قَالَ: «لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللهَ عز وجل». ورُوِيَ بلفظ: «وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ».[1]

---

(١) هذا الحديث يرويه عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهَمْداني عن عائشة رضي الله عنها، واختلف عنه:

فرواه مالك بن مِغْوَل، عن عبد الرحمن الهَمْداني، عن عائشة رضي الله عنها، به.

أخرجه الحميدي (٢٧٧) وأحمد (٢٥٢٦٣ و٢٥٧٠٥) وابن راهويه (١٦٤٣) والترمذي (٣١٧٥) وابن ماجَهْ (٤١٩٨) والحاكم (٢/ ٤٢٧). وأعل هذا الوجه بالإرسال؛ فقد نفى أبو حاتم اللقيَّ بين عبد الرحمن الهَمْداني وعائشة. (المراسيل لابن أبي حاتم ٤٥٦ والجرح والتعديل ٥/ ٢٣٩). ومع هذا الانقطاع، فقد قال الحاكم: (صحيح الإسناد)؛ وتعقّبه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص١٥١١) بما سبق.

ورواه عمرو بن قيس المُلائي، عن عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن

والخوف الشّرعيُّ الصّحيحُ: هو الذي يكفُّ الجوارحَ عمّا حَرّم اللهُ ﷻ مع وجود الدّواعي القويّة للمعصية، وقد قصّ اللهُ قصّة ابنَي آدم عليه السلام، وكيف أمسك الخوف يدَ الأخ عن قتال أخيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٧ - ٢٨).

ومطالعة سيرته ﷺ يوضّح هذا الاقتران أتمّ إيضاح، ومن أمثلة ذلك ما حكاه عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ».[1] وفي روايةٍ: «.. كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ».[2]

عائشة، عن النبي ﷺ بنحوه. ذكره الترمذي معلّقا عقب الحديث (٣١٧٥)، ووصله ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٧٠)، والطبراني في الأوسط (٤/ ١٩٨) من طريق الحكم بن بشير بن سلمان، عن عمرو بن قيس المُلائي، به.

ورجّح الدارقطني في العلل (١١/ ١٩٣) الوجه المرسل عن عبد الرحمن بن سعيد، مرسلًا، عن عائشة ‬، يعني: بدون ذكر أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: (هو المحفوظ).

أقول: وهو كما قال؛ فإنّ هذا الوجه تفرد به عن عمرو بن قيس الملائي الحكمُ بن بَشِير، كما ذكره الطبراني في الأوسط عقب تخريجه الحديث. والحكم بن بشير قال فيه أبو حاتم وابن حجر: (صدوق). (الجرح والتعديل ٣/ ١١٤، التقريب ١٤٣٩)، وذكره ابن حبان في الثقات (٨/ ١٩٤)، وروى له الترمذي وابن ماجه حديثًا واحدًا، وقال الترمذي عقبه: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه، وإسناده ليس بذاك القوي).

(١) رواه أحمد (١٦٣١٢)، والترمذي في الشمائل (٣٠٥)، والنسائي (١٢١٤)، وابن حبان (٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٩٦)، وقال: (صحيح على شرط مسلم).

(٢) رواها أبو داود (٩٠٤).

وهذان مثلان من حياة أصحاب محمد ﷺ ممّن جمعوا بين قوّة العمل، وقوّة الخوف من الله ﷻ:

▪ فعَن المِسْوَر بْن مَخْرَمَةَ رضي الله عنهما قَالَ: (لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ جَعَلَ يَأْلَمُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَكَأَنَّهُ يُجَزِّعُهُ[1]: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ، لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ، قَالَ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ، وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الأَرْضِ[2] ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ»).[3]

▪ وعَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: (حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ! أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

---

(١) أي: يقول له ما يُسلّيه ويزيل جزعه، وهو الحزن والخوف. النهاية (١/ ٢٦٩).

(٢) أي: ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل. النهاية (٣/ ١٣٣).

(٣) رواه البخاري (٣٦٩٢).

اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ[1]: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي، أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»، وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا. فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي)[2].

نسأل الله ﷻ أنْ يجمع لنا بين كمال الخوف منه ﷻ، وإتقان العمل، والرّغبة فيما عنده؛ إنّه ولي ذلك والقادر عليه.



(١) أي أحوال، واحدها: طبق. النهاية (٣/ ١١٤).

(٢) رواه مسلم (١٢١).

٦/٦/٣ التوازن بين الخوف والرجاء

لَإِنْ كان «الخوف» من أهمّ أعمال القلوب؛ فإنّ «الرَّجاء» بمنزلته، بل هو من الصّفات القرينة للخوف في قلب العبد المؤمن؛ فإنّ الرّجاء تعلُّق القلب بما وعَد الله به من المغفرة والرحمة، والدّخول في جنّته والفوز بمرضاته، والثّقة بجُوده، والنّظر إلى سعة رحمته. والعبد محتاج إلى أنْ يجتمع في قلبه خوف الله ورجاؤه ..

فالخوف: يحجزه عن المعاصي، ويقمعه عن التمادي، ويدفعه إلى التوبة.

والرّجاء: يُقوِّي قلبه، ويُضاعِف همّته، ويشرح صدره، ويملأ نفسه ثقةً في عفو الله ورحمته، ومغفرته وقبوله؛ فيحدوه إلى الطاعة حَدْوًا، ويحثّه على الأعمال الصّالحة حَثًّا.. وما أجمل قول ابن القيم رحمه الله: «لولا روح الرّجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح، وهُدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ، وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَرُ فيها اسمُ الله كثيرًا؛ بل لولا روح الرّجاء لَمَا تحرّكت الجوارح بالطّاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات..

لَوْلَا التَّعَلُّقُ بِالرَّجَاءِ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسُ الْمُحِبِّ تَحَسُّرًا وَتَمَزُّقَا
وَكَذَاكَ لَوْلَا بَرْدُهُ بِحَرَارَةِ الْـ ... أَكْبَادِ ذَابَتْ بِالْحِجَابِ تَحَرُّقَا
أَيَكُونُ قَطُّ حَلِيفُ حُبٍّ لَا يُرَى ... بِرَجَائِهِ لِحَبِيبِهِ مُتَعَلِّقَا؟!
أَمْ كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّتُهُ لَهُ ... قَوِيَ الرَّجَاءُ فَزَادَ فِيهِ تَشَوُّقَا

لَوْلَا الرَّجَا يَحْدُو الْمَطِيَّ لَـمَا سَرَتْ   بِحُـمُولِـهَا لِدِيَـارِهِمْ تَرْجُو اللِّقَـا».[1]

سُئل أحمد بن عاصم الأنطاكي الزّاهد: ما علامة الرّجاء في العبد؟ فقال: «أنْ يكون إذا أحاط به الإحسانُ أُلهِم الشُّكر، راجيًا لتمام النِّعمة مِن الله تعالى عليه في الدُّنيا، وتمام عفوه في الآخرة».[2]

ولقد غرس المصطفى ﷺ في قلوب أصحابه صفة الرّجاء، حين ذكر لهم سعة رحمة الله، وكريم صفحه.

وكيف لا يرجو العبد ربّه، ويثق بعفوه، وهو يسمع قول نبيّه ﷺ: «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ: تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**».[3]

إنّ بين العباد رحمة لا ينكرها إلّا مكابر، وكم يقع المذنب بين يدي أخيه الإنسان: واثقًا برحمته له، وعطفه عليه، وما هذه الرحمة إلّا جزء يسير أنزله الله في الأرض، وأبقى تسعة وتسعين..

أفتضيق تلك الرحمة الواسعة، عن ذنوبك ومعاصيك؟!

لفت المصطفى ﷺ أنظار أصحابه إلى حادثة وقعت بين أيديهم ليثبّت

---

(١) مدارج السّالكين (٢/ ٤٣ - ٤٤).
(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٢٦٠)، تاريخ دمشق (٧١/ ٢٢٤).
(٣) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في قلوبهم هذه الشُّعبة مِن شُعَب الإيمان، والخصلة مِن خصال الخير. قال عمر بن الخطاب ﵁: (قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟». قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»).[1]

من صفات الحق ﷻ أنّه «رحيم»، وقد جاء هذا الوصف فيما يزيد على مائة آية، غير الآيات الأخرى الدالّة على سعة رحمته ﷻ التي جاءت بغير هذا اللفظ.

ومع أنه ﷻ يغضب لانتهاك حرماته، لكنه كَتَبَ الغلبةَ لصفة الرحمة على صفة الغضب، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي».[2]

إنّ مما يُعظِم رجاء العبد في رحمة ربه، ويغريه بسرعة الإقدام على طاعته، ما قصَّه المصطفى ﷺ من فرح الله ﷻ بتوبة التائبين من عباده، يقول - صلوات الله وسلامه عليه -: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).

وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».[1]

لا إله إلا الله! كيف لا تعظم رغبة العبد فيها عند الله؟! وكيف لا يثق برحمة ربه ومولاه؟! وربه يفرح أشد الفرح بعودته إليه.

إنّ الله ﷻ لا حاجة له في تعذيب عباده؛ بل إنَّه ﷻ يحب لهم الاستقامة، ويُريد لهم التوبة، ويُرغّبهم فيها، ويحثُّهم عليها؛ بالإدناء منه، ورَفْع درجتهم عنده؛ ليؤوبوا إليه بعد شرود، وينطرحوا بين يديه بعد نفور، ويسكبوا دموعهم بعد غفلة ونسيان.

ليس في الدّنيا ذنب لا يغفره الله إذا تاب العبد منه وأناب - ما لم يُغَرْغِر أو تطلع الشمس من مغربها -؛ ولذا كان هذا النّداء الإلهيّ من الله ﷻ لعباده الذي يكسر كل أبواب القنوط، ويَشرع جميع أبواب الرجاء: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

قال عليٌّ ؓ لأصحابه يومًا: **أي آية في القرآن أوسع؟ فجعلوا يذكرون**

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨)، مسلم (٢٧٤٤).
وقوله: (دَوِّيَّةٍ): الدَّو: الصحراء التي لا نبات بها، والدوية منسوبة إليها. النهاية (٢/ ١٤٣).

آيًا من القرآن: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١١٠) ونحوها، فقال عليٌّ ﷺ: ما في القرآن أوسع من: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾.[1]

إنّ الله ﷻ يخاطب هؤلاء المذنبين، بقوله: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾؛ ليبشّرهم، ويغرس في نفوسهم الأمل .. والعبد عظيم الأمل في سيِّده.

وهو ﷻ يخاطب العباد الذين استكثروا من الذُّنوب، واستثقلوا من الأوزار.. يخاطب هؤلاء الذين عظمت جنايتهم .. والمرء كلما عظمت جنايته قلّ أمله في النّجاة..

ولكن الله يبشّرهم: ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ لا تيأسوا من عفو الله ومغفرته؛ فإنّ ذنوبكم ليست شيئًا مذكورًا أمام رحمتي وبِرِّي؛ فبِرِّي واسع لا يغادر ذنبًا إلّا محاه، ولا سيئةً إلّا غفرها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾، وإنّما يغفرها لأنّه متّصف بالمغفرة والرّحمة: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

إنّ رحمة الله واسعة؛ فليسارع العبد إلى الإنابة والتّوبة؛ لتمحى سيّئاته: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الزمر: ٥٤ - ٥٥).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٦٩)، والطبري في تفسيره (٢٠/ ٢٢٨).

فها هي أسباب الإنابة والاستقامة، والرّحمة والهداية، والتّوبة والمغفرة؛ مشرعة بين ناظريك، مطروحة بين يديك؛ ألَا فاغتنمها اليوم باردة، ولا تُغلقَنّ دونها الأبواب بغفلتك، وتماديك وإعراضك..

فاللهم أَعْظِم رغبتنا في رحمتك، ووسّع رجاءَنا في عفوك، وارزقنا الثبات على طاعتك، والدّوام على عبادتك.



٧/٣ الحياء

الحياء شُعبة مِن الإيمان، وعمل من أعمال القلوب الزاكية، وخصلة من خصالها الكريمة التي توارد الأنبياء على الوصية بها، والترغيب فيها، كما في قوله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**».[1]

ومعنى الحديث: التهديد والوعيد لمن يفعل ما يُستحيا منه، وأنّ مَن لم يستحي يصنع ما شاء مِن الأعمال، بغضّ النظر عن صلاحها أو فسادها.

وإنّما يعظم الحياء في قلب العبد، إذا استحضر رؤية الباري له، وقُربه مِنه، وعلمه به، واطّلاعه عليه؛ فإنْ خَفَّ هذا الاستحضار أو تلاشى؛ قارف العبد كل جريرة، وغَشِي كلَّ معصية.

واستمع إلى جملة من السيئات التي جرّ إليها نضوب مادة الحياء من القلب: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ (العلق: ٦ - ١٤)؛ فالطغيان، والنهي عن خصال البر من الصلاة والأمر بالمعروف، والتكذيب بالله، والتولِّي عن دِينه وشَرعه، كلها خطايا وسيئات، جَرَّ إليها قلة استشعار المراقبة من الله لعبده: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ (العلق: ١٤).

---

(١) تقدَّم تخريجه.

ولا جَرَمَ أنْ كان الحياء بهذه المنزلة، وهذا الأثر في استقامة السلوك، أنْ يجعله النبي ﷺ من خصال الإيمان، حين يقول: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**».(١) وإنّما أُفْرِد الحياء بالذِّكر في الحديث لأنه جُعِلَ بمثابة الداعي إلى باقي الشُّعَب؛ إذْ الحَيِيّ يخاف فضيحة الدّنيا والآخرة فيأتمر وينزجر.(٢)

وقد تجلَّى معنى تأثير الحياء في استقامة السلوك، ورشاد الأعمال، في هذا الأثر القائل: «**الِاسْتِحْيَاءُ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ: تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**».(٣)

---

(١) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٥٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٤٦١)، وأحمد (٣٦٧١)، وأبو يعلى (٥٠٤٧)، والترمذي (٢٤٥٨)، والحاكم (٤/ ٣٥٩)، من طريق الصبّاح بن محمد (وتحرَّف في المستدرك إلى: بن محارب)، عن مُرَّة الهَمْداني، عن عبد الله بن مسعود (مرفوعًا). قال الترمذي: (حديث غريب). وقال الحاكم: (صحيح الإسناد).

قلت: رفع هذا الحديث غلط، والصواب فيه الوقف؛ قال العُقَيلي في الضعفاء في ترجمة الصباح بن محمد الأحمسي (٢/ ٢١٣): (في حديثه وَهْمٌ، ويرفع الموقوف). وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٤٨): (قد ضُعِّفَ الصبّاح برفعه هذا الحديث، وصوابه عن ابن مسعود، موقوفًا عليه). وقال المنذري في موضع آخر من الترغيب والترهيب (٣/ ٢٦٩): (الصباح: مختلفٌ فيه، وتُكلِّم فيه لرفعه هذا الحديث، وقالوا: الصواب عن ابن مسعود: موقوف).

وللعبد المؤمن أحوال مع ربِّه ﷻ يشتد فيها حياؤه، ويعظم فيها انكساره، ويذوب حسرة على ما بدر منه؛ فهو يستحي من الله إذا جنى معصية، أو أتى جريرة، أو غشي محرَّمًا.

وقد روي أنّ آدم عليه السلام لّما عصى ربَّه، وأكل من الشجرة، فَرَّ هاربًا من الجنة، فقال الله تعالى له: «**يَا آدَمُ أَمِنِّي تَفِرُّ؟**». قال: «**يَا رَبِّ إِنِّي اسْتَحَيْتُكَ**».(١)

إنها معصية واحدة جناها آدم فهرب حياء من ربه، فكيف بمن يقترف ما لا يُحصَى من السيئات، ويجترح ما لا يأتي عليه العدّ من الآثام والمهلكات؟!

إنّ الواحد منّا يتوارى من صاحبه خَجِلًا إذا كان قد صنع به بعض ما يكره، أو أعرض عن طَلِبَةٍ له، وقد يكون أداء ذلك ليس واجبًا عليه، وإنّما محض تفضُّل ومِنَّة؛ فكيف بمن يبارز ربّه بالمعصية، ويتنكّب أمره بالمخالفة؟! أفلا يكون أَولَى بالحياء من غيره، أفلا يلزمه -أكثر مِمَّن سواه

وذكره الذهبيُّ في الميزان (٢/ ٣٠٦)، فقال: (إنه يَروِي عن مُرَّة الطيِّب - يعني: الهَمْداني -، عن ابن مسعود، فرفع حديثين، هما من قول عبد الله). وقال ابن حجر في ترجمة الأحمسي من التقريب (٢٨٩٨): (ضعيف).

والحديث رواه ابن المبارك في الزهد (٣١٧) عن الحسن عن النبيِّ ﷺ مرسلًا.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٨)، وعنه البيهقي في البعث (١٧٥) - ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٤٠٥) - من طريق عُتَيِّ بن ضَمْرَة، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، مرفوعًا.

قال الحاكم: (صحيح الإسناد). قلت: تحرَّف ذِكر (عُتَيّ) في المستدرك إلى (يحيى) وذلك في ط. مصطفى عبدالقادر عطا (٢/ ٢٨٨) وط. دار المعرفة بإشراف المرعشلي (٢/ ٢٦٢) وط. دار الحرمين (٢/ ٣١٥) ونُبِّه في ط. الحرمين على الصواب في الحاشية.

- التأسُّف والنَّدم على هتك ما أسدله الله عليه من السِّتر؟! وأجزل له من العطاء؟!

وللحياء مرتبة أخرى، هي أكمل من هذه التي ذكرنا، إنّه «حياء الخوف من التقصير في جنب الله»؛ بالتفريط في إتيان الأكمل في شأن العبادة والذِّكر، أو التفريط في نصرة الشريعة، أو حماية الحوزة، أو نشر العلم، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما كان من هذه البابة.

وإنْ تعجب! فعجب من تلك النفوس الخيِّرة التي لم تعرف الشّر، ولم تقارف المعصية، وإنّما حالها أبدًا التسبيح والعبادة في كلّ أوقاتها؛ إنّها ملائكة الرّحمان، ولكنّها مع كلّ هذا تقول يوم القيامة: «**سُبْحَانَكَ! مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ**».[1]

إنّ هذه الكلمات النيّرة من أولئك الملائكة، تُشعر المؤمن بأنّه مهما عمل واجتهد، فهو لم يزل ولن يزال في مراتب دون ما ينبغي أنْ يكون عليه الشّاكر والذّاكر..

وقد كان ﷺ وهو الذي غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، يتعبّد حتّى تتفطّر قدماه، وتقول له زوجه عائشة رضي الله عنها في ذلك، وهي تستغرب منه

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٣٥٧)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٣٢٩) من حديث سلمان بإسناد صحيح موقوفًا، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٢٩) من حديثه مرفوعًا، وقال: (صحيح على شرط مسلم).

هذا النَّصَب، وتلتمس له موجِب الرّاحة والسُّكون، فيقول لها حياءً من التقصير: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**».[1]

وللحياء مرتبة أخرى، إنّه «**حياء المحبّة**»؛ فمن أحبّ ربّه استحيا منه حقّ الحياء؛ فإنّ المحبّ يكره أنْ ينقص عن حال يحب أنْ يراه مُحبّه عليها، والله يحبّ لعبده الإيمان والإحسان، والتقوى والعدل، والمسابقة إلى الخيرات، والمسارعة إلى الجنّات، إلى غير ذلك مما دلّت عليه الآيات والأحاديث.

فمن أحبّ ما أحبّ الله من الكمالات، استحيا أنْ يكون دون تلك المراتب العليّات.

ومن الحياء «**حياء الشّرف والعزّة**»؛ فإنّ الذُّنوب كلّها لو تأمّلت فيها وجدتها نقصًا مِن مراتب الشّرف، وجنايةً على كمالات العزّة..

أليس من نقص شرف العالِم وعزّته أنْ يبخل بعلمه، أو يتلبّس بنقص لا يتناسب مع معرفته؟!

أليس من نقص العالِم أنْ يحتاج النّاس إلى فتواه، ونصحه وإرشاده، ثم لا يكون في مواطن البذل والعطاء؟!

أليس من نقص شرف الغنيّ وعزّته أنْ يضنّ بماله، ويشحّ بعطائه، ويمسك ما بيده، وهو يرى إخوانه المسلمين يقتاتون الفتات، ويستمنحون الأعداء؟!

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) ومسلم (٢٨٢٠).

أليس من نقصه أنْ يحبس ماله، حتى إذا ودّع دنياه، وجد أنّه لم يقدِّم من ماله إلّا أقل القليل، وقد خلّف كثيرًا، سيحاسَب عنه طويلًا؟!

أليس من نقص شرف الوالي وعزّته - وقد مكّن الله له - أنْ يُفرِّط في وِلايته، ولا يستثمرها في مقصودها الأصيل؛ إذْ مقصود الوِلايات كلها: حراسة الدِّين، وعمارة الدنيا؟! لقد أعطاه الله ﷻ من الوِلاية ما يتمكّن به من نشر الفضيلة، وقمع الرذيلة، والتمكين لدِين الله، وإصلاح النفوس والأعمال؛ فإنْ هو فرّط في ذلك، فقد نزل إلى مرتبة أدنى من مرتبته التي كان ينبغي أنْ يتبوّأها. أليس من نقص شرف المسلم عمومًا وعزّته خصوصًا، أنْ يُرَى غير مبال بما يُصيب أُمّته، ولا مُكترث بما يَتعرَّض له مجتمعه؛ فلا هو مُساهم في زيادة الخير، ولا مُشارك في دفع الضُّر والشَّر، لكأنّما هو من كوكب آخر، أو أحياء آخرين؟!

وعلى كلٍّ؛ فلكلِّ مؤمن شرف وعزة لا ينبغي أنْ يتسامح في المقام دونها، بل عليه أن يسعى ليكون في أعلى مراتبها وأرقاها، وصدق المصطفى ﷺ حين قال هذه الكلمة الجامعة: «**الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**».[1] وفي روايةٍ: «**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**».[2]



(١) رواه مسلم (٣٧) من حديث عِمران بن حُصَيْن رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

٨/٢ تعظيم حرمات الله

تعظيم الله في النُّفوس من أعظم أسباب الانقياد له؛ طاعةً له بفعل المأمور، وترك المحذور؛ ذلك أن الإحساس بعظمة الله ﷻ يوجِد حالةً من التحرُّج من المساس بمحارمه، أو القُرب منها، سواء كانت تلك المحارم فرديّة فيما بين العبد وربّه، أو جماعيّة تطال فئامًا من البشر، يستوي في ذلك الاعتداء عليهم في دِينهم أو أموالهم أو أعراضهم أو نفوسهم. فتعظيم أوامر الله من تعظيم الله؛ فمن كان الله في نفسه عظيمًا، كان أبعد ما يكون عن محارمه، ومَن نقص في قلبه تعظيم الله، كان سريعًا في مساخطه، بطيئًا في مراضيه، ضعيفَ الإرادة في التوقِّي عن المحرَّمات، جَلْدَ العزم في مقارفة الجنايات ..

ولقد ربط الله ﷻ بين هذين الأمرين في سياق واحد؛ ففي «سورة الحجّ» ذَكَر الله ﷻ قصّة بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق؛ ليقيم شعائر التوحيد، ويؤسّس قواعد العبادة في ذلكم المكان الذي بوَّأه الله ﷻ وأَمَّنه، وعيَّنه وعَرَّفه بمحلّه؛ ليتوافد النّاس إليه من كل صُقْع؛ ليعلنوا توحيدهم لله، ويؤدّوا فريضة الحجّ - التي يتجلَّى فيها التّوحيد في سائر شعائرها القوليّة والعمليّة -؛ وليشهدوا المنافع المتعدِّدة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا

ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٦ - ٢٩).

ثم عقّب الله ﷻ على ذلك بأنّ الانقياد لهذه الأوامر - وأعلاها التوحيد - إنّما هو ثمرة لتعظيمه ﷻ في النُّفوس، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ (الحج: ٣٠)، «وحرمات الله: كل ما له حرمة، وأمر باحترامه من عبادة أو غيرها؛ كالمناسك كلها، وكالحرم، والإحرام، وكالهدايا[1]، وكالعبادات التي أمر الله ﷻ العباد بالقيام بها، وتعظيمها يكون إجلالها بالقلب، ومحبّتها، وتكميل العبوديّة فيها، غير متهاون ولا متكاسل ولا متثاقل».[2]

وإنّ من نِعَم الله علينا أنْ أعاننا على هذا التّعظيم بما شَرع لنا من الشّرائع التي تُغني النُّفوس بتعظيمه ﷻ عن تعظيم ما سواه؛ فشرع لنا التّوحيد بدلًا مِن الشرك، والتقرُّب إليه وحده بدلًا مِن التقرُّب إلى غيره، والنُّسُك له بدلًا من النسك للأوثان والأصنام، وإلى هذا المعنى وغيره يشير قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣٠ - ٣١).

---

(١) (الهدايا): ما يُهْدَى إلى الحَرَم مِن النَّعَم شاةً كان أو بقرةً أو بعيرًا.

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص٥٣٧).

إنَّ الالتزام بهذه الأوامر، والانتهاء عن تلك النّواهي، لا يصدر حقيقة إلّا من قلب مُستشعر لعظمة الآمر، ومُستحضر لجلالة النّاهي ﷻ، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ (الحج: ٣٢).

وهكذا نرى أثر «تقوى القلوب» في حَمْل هؤلاء الموفَّقين على تعظيم شعائر الله ﷻ وتعظيم أوامره ونواهيه في قلوبهم، وعزمهم على بذل غاية الوسع وبلوغ غاية الجهد في إتيان ما يطيقون مِن الأمر ومجانبة ما يستطيعون مِن النهي. بل إنّ التعظيم لشعائر الله في قلوب هؤلاء لم يَقعُد بهم عن مجرّد بلوغ أدنى درجات الكمال والامتثال، حتى استشرفوا إلى ما وراء ذلك، فسمت نفوسهم واشرأبّت أرواحهم وعلت هممهم إلى طلب أشرف مراتب الكمال ونيل أسنى منازل الامتثال..

ومِن مظاهر تعظيم شعائر الله تعظيم أمره ﷻ في الهدايا إلى البيت الحرام:

بطلب الأسمن والأحسن في صفتها وهيئتها، قال أبو أمامة بن سهل: «كُنَّا نُسَمِّنُ الأُضْحِيَةَ بالمدينةِ، وكانَ المسلمُون يُسَمِّنُونَ».[1] وعن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ قال: «**اسْتِعْظَامُهَا، وَاسْتِحْسَانُهَا، وَاسْتِسْمَانُهَا**».[2] وعن مُجاهدٍ: «**اسْتِعْظَامُ الْبُدْنِ، وَاسْتِسْمَانُهَا،**

(١) علَّقَهُ البخاريُّ في صحيحه (٧/ ١٠٠). وانظر: تغليق التعليق (٥/ ٦).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٤٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٢/ قسم المفقود، وساق إسناده ابن كثير في تفسيره ٥/ ٤٢١). ورواه ابن أبي شيبة ط. عوّامة، برقم: (١٤٣٥٥) بلفظ: (في الاستبدان والاستحسان والاستعظام). وقوله: (الاستبدان):

وَاسْتِحْسَانُهَا»[1] ومِنْ هذا التعظيم: كانَ اختيارُه ﷺ في أُضحيتِه ما كانَ أجملَ وأحسنَ وأنفسَ.. قال أنسٌ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُضَحِّي بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ**».[2]

ومثل هذا اللفظ يستعمل كثيرًا فيما يواظَب عليه، ومعلوم أن النبي ﷺ لا يواظب في خاصّته إلّا على الأفضل.[3] وعن أبي سعيد ﷺ: «**أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ضَحَّى بِكَبْشٍ أَقْرَنَ فَحِيلٍ، يَأْكُلُ فِي سَوَادٍ، وَيَمْشِي فِي سَوَادٍ، وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ**».[4]

ومثل هذا التعظيم للمناسك، التعظيم لشعيرة الصلاة: بفعلها كاملة

يعني: طلب البَدينة، وهو والاستسمان بمعنًى.

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٤٠)، وابن أبي شيبة (١٤٣٥٨) دون قوله: (استعظام البُدن).

(٢) رواه البخاري (٥٥٦٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٦٦).

وقوله: (أملحين): الأملح: الذي بياضه أكثر من سواده. وقيل: هو النقي البياض. النهاية (٤/ ٣٥٤).

وقوله: (أقرنين): الأقرن من الكباش الذي له قرون. مشارق الأنوار (٢/ ١٧٩).

(٣) المنتقى شرح الموطأ (٣/ ٨٨).

(٤) رواه أبوداود (٢٧٩٨)، والترمذيُّ (١٤٩٦) وصحَّحه، والنسائيُّ (٤٣٩٠)، وابنُ ماجَهْ (٣١٢٨).

وقوله: (أقرن) أي: ذي قرنين. و(الفَحِيْل): الكريم المختار للفحلة. معالم السنن (٢/ ٢٢٩).

وقوله: (يأكل في سواد) أي: في بطنه سواد. (ويمشي في سواد) أي: في رجليه سواد. (ويَنظر في سواد) أي: مكحول في عينيه سواد وباقيه سود، وهو أجمل. حاشية السِّنْدِي على سنن ابنِ ماجَهْ (٢/ ٢٧٣).

بشروطها وأركانها، واستحضار العبد لما يقوله ويفعله فيها، واستشعاره المقام بين يدي ربه، ومناجاته له.. وحينئذٍ يتولَّد في القلب من الخشوع والخضوع وصدق الدعاء وإظهار الافتقار ما يكون سببًا لكل خير في دنيا العبد وآخرته.

ومن تعظيم شعائر الله: تعظيم حقوق العباد التي قررتها لهم الشريعة؛ فلا يجوز انتهاك تلك الحقوق، أو التعدي على تلك المِنَح الإلهيّة بالهتك لها بالجملة، أو بالانتقاص منها دون بيِّنة عادلة أو حُجَّة ظاهرة أو دلالة قائمة. ولو عَلَّل ذلك مَن علل بما يقصده من وراء ذلك من إصلاح؛ فالله عليم بالقلوب وخشيتها منه وتعظيمها لجلاله، وطلبها لمرضاته.

وبضد ما تقدَّم؛ فإن القلوب إذا فسدت، وقَلَّتْ فيها صفةُ التّعظيم لله ﷻ؛ جرّها ذلك إلى قلة التعظيم لحرمات الله، يستوي في ذلك تلك الحرمات التي بين العبد وربه، أو تلك المتعدية إلى العباد في مناحي حياتهم المختلفة؛ ولذا يجب أنْ يَحذر العاصي لا من ذنب معصيته فقط، ولكن من نقص التعظيم لله في نفسه؛ **فإنه إذا نقص ذلك التعظيم لله في النفس، أوجد جملة من الشرور منها:** الاستكثار من المعاصي وغشيانها دون وجَل أو خوف من عقوبتها، والغفلة عن التوبة من تلك الذنوب بعد أن يمر بمراحل من التسويف والمماطلة، وربّما جرّه ذلك إلى جدل في صفة الحرمة الشرعية لتلك الأعمال حتى يعود من الخفيف على لسانه قولته: «**ولِمَ حُرِّمَ هذا**»؟! «**وما المصلحة في تحريم هذا وتحليل ذاك**»؟! وإنما يقول ذلك بنوع

من الاعتراض لا بدافع الرغبة في معرفة حكمة الشرع، وربّما جرّه ذلك إلى أنْ لا يبقى لديه الكثير من الثوابت الشرعية؛ إذْ كل شيء عنده قابل للأخذ والعطاء، وربما جرّه ذلك إلى مقارنات أثيمة بين شريعة الله ونتاج العقول البشرية القاصرة، وحينذاك يستوي لديه التشريع الربّانيّ بالتشريع الإنسانيّ، أو على الأقل يتقاربان في نفسه، ويتشابهان في عقله!

من أجل هذا؛ كان حقًّا على المؤمن أنْ يزكي عظمة الله في نفسه دومًا وأبدًا؛ ليقوِّي ذلك الحارس الإيماني الذي يحول بينه وبين مزيد من الفتنة والإعراض عن الله.. على أنّ بعضًا مِنَّا -بنوع مِن المغالطة والخروج من التبعة، والفرار مِن المكاشَفة بإظهار السبب الخفيّ- يُحِيْل تفلُّته مِن الانضباط، وانحرافه عن الاستقامة، على قوّة الرّجاء في عفو الله، والطمع في واسع مغفرته، ولا يستحضر الإحالة على السبب الحقيقي، وأنّ ما عليه من التفلُّت والانحراف إنَّما هو بسبب ضعف عظمة الله ﷻ في قلبه ونفسه، ومن أجل ذلك غَشي ما غَشي وأتى ما أتى؛ وذلك من ضعف البصيرة بأسباب الداء؛ فإنّ مَن عظَّم اللهَ حقَّ عظمته؛ انقاد لأمره، وجانَب نهيه. ولا يطمع في المغفرة -حقَّ الطمع- إلّا مَن قام بأسبابها، ونَهَضَ بموجِباتها. ولا يرجو العفو -على الحقيقة- إلّا مَن عرف عِظَم ما هو فيه؛ فأقبل على ربِّه إقبال الخاضع المنكسر، العائذ المستغفر، المعترف بذنبه، المقرّ بتقصيره.

وقد يُضْعِفُ اللهُ ﷻ هَيبةَ العبد في نفوس الخَلْق، بِقَدْر ما أضعفَ هيبةَ اللهِ ﷻ

في قلبه؛ فيحصل له من الاستخفاف والتلاعب به، والازدراء لمقامه، وترك رعاية توقيره واحترامه، بقدْر ما استخفّ بعظمة الله وتوقيره، والتّلاعب بشرعه وأمره ونهيه .. هذا، وإنْ وقع له شيء من الاحترام والتوقير مِن بعض الخَلق؛ فإنما يقع له ذلك بصورة خالية من الروح لَا لِاحترامٍ يستحقّه عندهم، وإنّما لاستدفاع شره، أو لطمعٍ في متاع دنيويّ لديه .. وتأمّل ما ذكره الله ﷻ في «سورة الحج» حين ذكر الطائعين والعاصين، فعقّب ذلك ببيان ما جلبت الطاعة لأهلها من إكرام، وما جلبت المعصية لأهلها من إهانة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (الحج: ١٨).

ومن إهانةِ الله لذلك المعرض ما جاء في الآية التي بعدها: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾(الحج: ١٩- ٢٢).

نسأل الله ﷻ أنْ يرزقنا خشيته وتعظيمه في الغيب والشهادة، إنّه وَليُّ ذلك والقادر عليه.



٩/٢ الغَيرة

الغَيرة من الخصال المحمودة، والصفات الغريزيّة التي ركزها الله ﷻ في الإنسان، وأودعها قلبه، وبثّها في فطرته، بل هي مركوزة في كثيرٍ مِن الحيوان والعجماوات.[١]

وحرارة الغَيرة في القلب، كالحرارة الغريزيّة في البدن، بها تحصل الحياة ويقع الصلاح، وبفقدانها تذهب الحياة ويحلّ الفساد. والعبد أحوج إلى حرارة الغَيرَة، منه إلى حرارة البدن؛ لأنّ حرارة الغَيرَة يقع بها حِفظ الدِّين والدُّنيا، وصيانة الأعراض والأخلاق، بينما حرارة البدن إذا ذهبت ذهب معها البدن، وذهاب الدِّين لا يعدله ذهاب.

وفَضل الغيرة على القلب كفضل الكير على الذهب والفضّة؛ إذْ بها يُستخرَج ما في القلب مِن الخبَث والصِّفات المذمومة، كما يُخرِج الكيرُ خبَثَ الذّهب والفضّة.

وأشرف النّاس وأعلاهم همّة، أشدّهم على خاصّته وعموم النّاس غَيرة؛ ولهذا كان النبي ﷺ أغيرَ الخَلق على الأُمّة، والله سبحانه أشدّ غيرةً

(١) «يُحكَى عن القرد مِن شدّة الزّواج، والغَيرة على الأزواج، ما لا يُحكَى مثله إلّا عن الإنسان؛ لأنّ الخنزير يغار وكذلك الجملُ والفرَس، إلّا أنّها لا تزاوج، والحمارُ يغار.. واجتمع في القرد: الزّواج والغَيرة، وهما خَصلتان كريمتان، واجتماعهما مِن مفاخر الإنسان على سائر الحيوان». الحيوان للجاحظ (٤/ ٩٨).

منه ﷺ، كما ثبت في الحديث: «**أَتعجبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعدٍ؟! واللهِ لأَنَا أَغْيَرُ منهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**».[(١)]

الغيور على محارم الله هو الذي يسوؤه أنْ يرى معاصي الله تُغْشَى، ومحارمه تنتهك، ودينه يُبدَّل، وشريعته تعطَّل.

تَغشَى الغيرة قلب المؤمن؛ فيرى حقًّا لله عليه أنْ يَدفعَ عن دِينه وشريعته ما يستطيع من الآفات؛ ويَرُدَّ عنه ما يقدر على رده من المنازعات، ويسترخصَ في سبيل ذلك كل نفيس حتّى نفسه التي بين جنبيه.

وهذه الغَيرة المباركة: حياتها الإيمان بالله، ووقودها طاعته، وغذاؤها الصلة به، وشرابها محبّته ومحبّة دينه؛ ولهذا وُصِفَ المتّقون من عباد الله بهذه الصفة العزيزة، فعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يغارُ، وإنَّ المؤمنَ يغارُ، وإنَّ غَيْرَةَ اللهِ أنْ يأتِيَ المؤمنُ ما حَرَّمَ اللهُ عليهِ**».[(٢)]

وغَيرة المؤمن تابعة لغَيرة الله، وغَيرة الله سببها تجرُّؤ العباد على معصيته، وانتهاك حرماته، وغشيان محارمه؛ ولذا كان من الكمال في المؤمن متابعته لربِّه في أمر الغيرة - مع بُعْدِ ما هو ثابت لله وما هو ثابت للعبد -، يقول النبيُّ ﷺ: «**لا أَحَدَ أَغْيرُ مِنَ اللهِ؛ فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَواحِشَ مَا ظَهرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ**».[(٣)]

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٨٤٦)، ومسلمٌ (١٤٩٩) مِنْ حديثِ المغيرةِ بنِ شعبةَ ﷺ.
وانظر: الداء والدواء (١/ ١٦٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٥٢٢٣)، ومسلمٌ (٢٧٦١).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٢٢٠)، ومسلمٌ (٢٧٦٠) مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ ﷺ.

وهذه الغيرة بما تبثّه في القلب من حياة، وما تهيّجه في النفس من حميّة، تقذف بقذائف الحقّ والشّرف والعزّة، على صور الباطل والخَبَث والدِّياثة؛ فتزهقها وترهقها وتدحضها؛ فلا تُبقِي لها ذِكْرًا، ولا تُسْمِع لها هَمْسًا..

إنَّها الغَيرة التي يجري ماؤها في عروق الرِّجال، فتحملهم على كرائم الفِعال، وشرائف المعالي؛ وهي الغَيرة التي إذا ما تخلَّفت عن الإنسان: غَرِقَت سفينتُه، وهَزُلَ أدبُه، ورَقَّ دِينُه، وهَلَكَ حرثُه ونسلُه، وهُتِكَ عِرضُه وسِترُه، وفسدَ بين النّاس ذِكْرُه. وعليه: فمَن لم تُهيِّجه نار الغَيرة لِحفظ العِرض، وصيانة الذِّكر، وإقامة الدِّين وتعظيم شعائره، والذبّ عنه؛ ففي دِينه رِقّه، وفي إيمانه خِفّة، وفي نفسه ضعف وخور..

فالله الله في الغَيرة؛ فإنَّ الله ﷻ يغار، ونبيَّه ﷺ يغار، والمؤمنين يغارون..

هذه الغَيرَة التي استأصلَت[1] جذورُها وضَرَبَت قواعدُها في نفس الصحابيّ الجليل سيّد الخزرج سعد بن عُبادة ؓ هي التي هيّجته إلى قوله: «لوْ رأيتُ رجلًا مَعَ امرأتي لضربتُهُ بالسَّيفِ غيرَ مُصْفِحٍ»[2]، فبلغَ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: «**أَتعجبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعدٍ؟! واللهِ لأَنَا أَغْيَرُ**

(١) يقال: اسْتَأْصَلَتِ الشَّجَرَةُ: نبتَتْ وثَبَتَ أَصْلُها. تاج العروس (٢٧/ ٤٥٢).

(٢) أي: غير ضارب بِصَفْحِ السَّيف، وهو جانبه، بل أضربه بحدِّه. وفي فاء «مصفح» أوجه: مكسورة مخفّفة، ومكسورة مثقّلة، ومفتوحة. انظر: النهاية (٣/ ٣٤)، فتح الباري (٩/ ٣٢١).

منهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، ومِنْ أَجْلِ غَيرةِ اللهِ حَرَّمَ الفواحشَ ما ظَهرَ منها وما بَطنَ».[1]

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: «**اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقولُ سَيِّدُكُمْ! إنَّه لَغَيُورٌ، وإنِّي لأَغْيَرُ منهُ، واللهُ أَغْيَرُ منِّي**».[2] و«الغَيرة صفة كمال، فأخبر ﷺ بأنّ سعدًا غيور، وأنّه أغير منه، وأنّ الله أغير منه ﷺ».[3] ولكن النبي ﷺ لم يقف عند ظاهر هذا الكمال الذي يجرّ نفعه على صاحبه، بالذّبّ عن عِرضه، وعلوِّ ذِكره في الناس بشِدَّة غَيرته ومِدْحَته بذلك، ولكنه أرشده وأرشد الأُمَّة مِن ورائه، إلى معنًى دقيق في فن السياسة والتشريع، وهو أنَّه قد يُتجاوَز عن شيء من المصلحة الخاصّة في سبيل المصلحة العامّة وانتظام أمر الأُمَّة والجماعة؛ فإنّ الانتقام العاجل بمبادَرة الرجل الذي وُجِدَ مع امرأةٍ بالسيف، وإنْ كان يشفي حاجة النفس العاجلة في الانتقام، إلّا أنّ مصلحة الجماعة قد تضطرب بذلك؛ إذْ قد يدّعي مَن بينه وبين أحد مِن الناس منازَعة أو مخاصمَة، أو يدّعي على امرأته التي بينه وبينها مشاحنة ومهاجَرة، فيقتل هذا أو يقتل تلك، ثم يدّعي أنه وَجَدَ هذا مع امرأته أوْ وَجَدَ امرأته مع فلان، وهذا فيه من المفاسد واضطراب الأحوال

(١) رواه البخاريُّ (٦٨٤٦ و٧٤١٦)، ومسلمٌ (١٤٩٩) مِنْ حديثِ المغيرةِ بنِ شعبةَ ﷺ. وانظر: جامع الأصول (٨/ ٤٣٠).

(٢) رواه مسلمٌ (١٤٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) شرح النووي على مسلم (١٠/ ١٣٢).

والتسبُّب إلى إراقة الدماء. ثم إنّه قد يوجَد في المجتمع مِن الصور التي يقع فيها الإكراه وعدم المطاوعة والغلط ما قد ترتفع به العقوبة، فقد يقع الإكراه على الفِعل بسبب تغييب العقل أو الوعي تحت تأثير مخدِّر ونحوه، وقد يوجَد رجل مع امرأة يحسبها زوجته وهي ليست كذلك، وهكذا مِن الحالات التي من الممكن تصوّرها وحدوثها لآحاد النّاس؛ فإذا كان ذلك كذلك، فلا يُترَك الحبل على غاربه لعموم الناس، تتحكّم فيهم الطِّباع وغرائز الأخلاق. والإعذار في مثل هذا يحقن مِن الدِّماء التي يمكن أنْ تراق بغير حقّ وفي غير موضعها؛ ولذا أرشد النبيُّ ﷺ - كما في حديث المغيرة بن شعبةَ رضي الله عنه - إلى الإعذار والتروّي، فقال: «**وَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ وَالمُنْذِرِينَ، وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الجَنَّةَ**»[1].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قول النبي ﷺ في خطبة صلاة الكسوف: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»[2].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ مِنْ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤١٦)، ومسلمٌ (١٤٩٩).

(٢) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ».[1] وفي روايةٍ: «لَيْسَ أَحدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذلكَ حَرَّمَ الفواحِشَ مَا ظَهرَ مِنها وَما بَطنَ، ولَيْسَ أَحدٌ أَحبَّ إليهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أجلِ ذلكَ أَنزلَ الكِتابَ وأَرْسلَ الرُّسُلَ».[2]

يقول ابن القيم رحمه الله: «فجمَع في هذا الحديث بين الغَيرَة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، ومحبة العُذر الذي يوجِب كمال العدل والرحمة والإحسان، وأنه سبحانه - مع شِدَّة غَيرته - يحب أنْ يَعتذر إليه عبده، ويَقبل عذر من اعتذر إليه، وأنّه لا يؤاخِذ عبيده بارتكاب ما يغار مِن ارتكابه حتى يَعذُر إليهم؛ ولأجل ذلك: أرسل رسله، وأنزل كتبه إعذارًا وإنذارًا، وهذا غاية المجد والإحسان، ونهاية الكمال؛ فإنّ كثيرًا ممّن تشتدّ غيرته من المخلوقين تحمله شِدّة الغَيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذار منه، ومن غير قبولٍ لعذر مَن اعتذر إليه».[3]

وقال الإمام النووي: «لا ينبغي لشخص أنْ يكون أغير من الله تعالى ولا يُتصوَّر ذلك منه، فينبغي أنْ يَتأدَّب الإنسان بمعاملته سبحانه وتعالى لعباده؛ فإنّه لا يعاجلهم بالعقوبة، بل حذّرهم وأنذرهم، وكرّر ذلك عليهم وأمهلهم، فكذا ينبغي للعبد أنْ لا يُبادِر بالقتل وغيره في

---

(١) رواه البخاريّ (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) واللفظ له.

(٢) البخاريّ (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) واللفظ له. وانظر: جامع الأصول (٨/ ٤٣٠).

(٣) الداء والدواء (ص١٦٤ - ١٦٥).

غير موضعه؛ فإنّ الله تعالى لم يعاجلهم بالعقوبة، مع أنّه لو عاجلهم كان عدلًا منه سبحانه».[1]

في اتصاف المرء بالغَيرة موافقةٌ لله في صفة من صفاته «ومن وافق الله في صفة من صفاته؛ قادته تلك الصفة إليه بزمامه، وأدخلته على ربه، وأدنته منه، وقرّبته من رحمته، وصيّرته محبوبًا له؛ فإنّه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قويّ يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حييّ يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب أهل الوتر».[2]

أهل الغيرة الحقّة سبب لكلّ خير على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم؛ فالغيرة الشرعية تدفع إلى:

- **الانضباط الشخصي**، كما قال رسول الله ﷺ في خطبة الكسوف: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»[3] والمعنى: أنّ الغَيرة مِن ارتكاب الزِّنى مركوزة في الطِّباع والنّفوس إلّا أنّها تتفاوَت درجتها بحسب درجة الكمال أو النقص في الإنسان، وكلّما اشتدّت الغَيرة اشتدّت معها كراهة هذا الفعل وبغضه والبعد عن تصوّر تقحّمه فضلًا عن إتيانه، فينعم الإنسان بسلوك منضبط مستقيم.

---

(1) شرح النووي على مسلم (١٠/ ١٣٢). وانظر: المفهم (٤/ ٣٠٦).

(2) الداء والدواء (ص١٦٦).

(3) تقدّم تخريجه.

▪ **الدعوة إلى الله ﷻ ببيان شريعته**، وشرح لوازم الإيمان به، وتحبيب الخلق فيه سبحانه وفي دينه وشريعته؛ فإنّ المؤمن الغيور يكره أنْ يرى الجهل يفترس الفئام من الناس، فيعيشوا حالة الضلال عن الله، والجهل بشريعته؛ ولذا ترى الغيورين على الله حقًّا لا يفتئون يروحون ويغدون بين الجموع المحتاجة إلى التعليم يُعرِّفونهم شرائعَ الإسلام، ويوضِّحون لهم أحكام الملّة، وهم مع ذلك يحترقون أسًى وحزنًا حينما يسمعون مِن أخبار الجهل التي تخيم على بعض المسلمين أوالكافرين المخدوعين.

▪ **الزَّجْر عن المحارم**، والأخذ على أيدي العابثين الذين أرادوا إفساد الأديان، وإفْرَاء[1] الأعراض، وتزيين المحرَّمات، والخوض في الحُرمات؛ فيستجلبون بذلك ويستعجلون به تنزُّل العقوبة الإلهيّة التي أُنْذِرَت بها المجتمعات، حينما تنتقل في خطيئاتها مِن السِّر إلى العلانيَة، ومن الفرديّة إلى الجماعيّة؛ فترى هؤلاء الغيورين يدفعون أولئك الخطّائين عن تقحّم هاتيك المهالك رحمةً بهم وبالمجتمع من حولهم؛ فهم حُرَّاسٌ لعقائد المسلمين وأخلاقهم، وحُفّاظٌ لأموالهم وأعراضهم.

إلّا أنّ غَيرة القلب هذه التي تدفع إلى تلك المسالك الحميدة، والمذاهب الرشيدة، لا تُفرغ القلب من مضمون الرحمة، ولا تقفله أمام باب

(١) يقال: فَرَيْتُ الشَّيءَ أفريه فَرْيًا، إذا شققته لصلاح، وأفريتُه إِفْراءً، إذا شققته لفساد. جمهرة اللغة (٣/ ١٢٦٥).

الاعتذار الحق؛ بل القلب مُتَّسِعٌ مُنْشَرِحٌ للجمْع بين الأمرين، كما تقدَّم في شأن غَيرَة سعد بن عبادة ﷺ وما جاء فيها مِن أحاديث وتوجيه ما فيها من معان.

وإذا كانت غَيرَة القلب محمودة لما لها من هذه الآثار الحسنة؛ فإنّ الذنوب والمعاصي تُوهِن هذه الغَيرة في نفوس أصحابها، وتستدرجهم إلى مراتب خطيرة من ضعف الغَيرة التي منها:

- **التماس المعاذير من وجه غير صحيح** لمن انتهك شرع الله، وجاوز حدوده وقوانينه. والتماس العذر للعاصي مِن حيث الأصل: منهج صحيح، وطريق نجيح؛ ولكن الخطأ كل الخطأ في التوسُّع في الاستعمال، سواء باستعمال هذا الأصل في غير وجهه، أو تنزيله على غير محلّه؛ وإنّما يقع ذلك بسبب نقص العلم والمعرفة، أو ضعف الغيرة والحميّة.

- **ومِن مراتب ضعف الغَيرة في القلب:** خِفّة الاستقباح لتلك المعاصي، وظهورها في عينه بمظهر لا يستلزم كمال الاشمئزاز، وغاية النفور، بل ربما قال حينئذ: «ما مِن أحد إلاّ وله زَلَّة»، وهي كلمة حق في ظاهرها، ولكنها تستبطن تهوين تلك الزّلات والعثرات.

- **وربّما جرّه ضعف الغيرة إلى تحسين الظُّلم والفواحش لغَيرِه**، وتزيين ذلك له، ودعوته إليه، وحثه عليه. وانظر إلى عقوبة الله لمن وصل إلى مثل هذه المنزلة في الحديث المروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «**ثلاثةٌ قدْ حَرَّمَ اللهُ عليهِمُ الجَنَّةَ:**

مُدْمِنُ الخَمْرِ، والعاقُّ، والدَّيُّوثُ الذي يُقِرُّ في أَهْلِهِ الخَبَثَ»[1] انظر كيف قرن الديوث -وهو لم يواقع الخبث- بشارب الخمر والعاق! أتراه قرنه بهما بغير ضعف الغَيرَة في قلبه؟!. وهذا مثَل آخر لمن ضعفت الغَيرَة في قلبه، فلم تحرّكه إلى دفع الباطل وردّه، وإنّما هوت به إلى نُصرة الباطل والإعانة عليه، فعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أعانَ باطِلًا لِيَدْحَضَ بباطِله حقًّا، فقدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وذِمَّةُ رسولِه»**.[2] وإذا كان القلب الغيور يَدفَع لما ذُكِر من مسالك الرّشاد؛ فإنّ جوارح العبد إذا تقلّبت في المحارم والآثام، أذهبت -أو كادت- تلك الحرارة من القلب، فعاد بارد الإحساس، وئيد الخطى، وَهِين[3] العزمات، وقد ينقلب -والعياذ بالله- أمّارًا بالمعصية، نهّايًا عن المعروف.

نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.



---

(١) رواه أحمد (٥٣٧٢) من حديث عبد الله بن عُمر، وفيه راو لم يسم، وبقيّة رجاله ثقات. (مجمع الزوائد: ٤/ ٣٢٧). وفي روايةٍ لأحمد (٦١٨٠) إسنادها حسن بذِكْرِ الديُّوث، دون قوله: «الذي يُقِرُّ في أَهْلِهِ الخُبْثَ».
و(الخُبث): بضم الخاء وتسكين الباء وبفتحها، أي: الفسق والفجور. النهاية (٢/ ٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٠)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢١١)، وعنده: «مَن أعان ظالمًا بباطل». وللحديث شواهد يقبل بها التحسين. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٢٠)، وصحيح الجامع (٦٠٤٨).

(٣) (وَهِينٌ): ضعيفٌ، مِن الوَهَنِ. انظر: الإتباع والمزاوجة لابن فارس (ص٦٧).

٣/١٠ اليقين

٣/ ١٠/ ١ اليقين بسُنَّةِ الله في الظالمين.

٣/ ١٠/ ٢ سَمت اليقين.

٣/ ١٠/ ٣ اليقين بنصر الله للمؤمنين.

٣/ ١٠/ ٤ مِن شروط النصر.

٣/١٠/١ اليقين بسُنَّة الله في الظّالمين

من أعمال القلوب التي يحرص المؤمن على التحقُّق بها، والتأمُّل في آثارها: «**عمل اليقين بأحكام الشرع وأخباره وسننه في الأفراد والأُمَم**».

ومن ذلك: **اليقين بِمُنقلَب الظالمين**، وأنّه إلى خسار وبوار في الدنيا والآخرة. وتلك حقيقة واجه بها النبي ﷺ جَمْعَ الظلمة في مكة يوم أنْ كان فاقدًا للمُعين والنّاصر مِن البشر، وقريش تتغطرس في صلفها وكبريائها، معتدّة برجالها ومالها وسلاحها. تلك الحقيقة هي ما تضمّنته آيات «سورة الأنعام» التي يقول فيها الله ﷻ: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣٣ - ١٣٥).

إنه التهديد الأكيد لهؤلاء المشركين الذين صمُّوا آذانهم عن سماع الحق الذي جاء به محمد ﷺ، فأنذرهم وحذّرهم به. فليستمروا ما داموا آثروا الباطل على الحق، والظلم على العدل، فلن تكون لهم عاقبة، لا في هذه الدار الدنيا ولا في الآخرة.

ولقد كانت عاقبة دار الدنيا لمحمَّد ﷺ وأتباعه؛ حيث نصرهم الله على

المشركين، فأزالوا دولتهم، وكسروا شوكتهم، وأقاموا دولة الإسلام وأعلام حكمه.

ولكن ذلك الذي حصل إنما تحقق بِسُنَّة الله في الظالمين: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فتلك الحقيقة التي يجب أنْ يستيقنها قلب المؤمن في أوقات الأزمات والنكبات، فينطقها كما ينطقها نبيه محمد ﷺ، وهو يعيش في أتون الحصار وجحيم الاستكبار الذي كانت قريش تصبه على المؤمنين صبًّا.

واليقين بوقوع الشيء، لا يعني البتّة أنّه يقع وَفق الإرادة والهوى، وإلّا فما معنى الإيمان بحكمة الباري ﷻ وعظمة تدبيره وتقديره وصنعته في خَلقه وكونه؟! وما معنى الإيمان بسنن الابتلاء والتمحيص لو كان ذلك يقع وَفق الغرض والهوى، دون مشقّة يتجشّمها العبد، أو فتنة تعرض له في نفسه وأهله وماله؟!

إنّ ساعة وقوع الحقيقة أمرٌ يختص به الله ﷻ، ينزّله بحكمته في الوقت الذي يمضيه، ويحبسه بحكمته في الوقت الذي يقضيه، وهو العليم الحكيم، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحُكمه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤)، وفي الآية الأخرى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس: ٤٩).
وهكذا: لكلِّ أُمَّة مِن الأُمَم أمد محدود، وأجلٌ مضرب، قدّر الله ﷻ ذلك

عنده في اللوح المحفوظ، وهو واقع لا محالة في زمانه وميقاته دون تقدُّم أو تأخّر، وَفق قوانين الحكمة ونواميس العلم.

وممّا لا ينبغي للمسلم أنْ يكون نصيبه من اليقين بهلاك الظالمين، ضرب المواقيت لذلك على وجه التعيين والتخمين، وإنّما المطلوب منه شرعًا أنْ يمتلئ قلبه إيمانًا ويقينًا بُسنَّة الله الجارية في الأُمَم الظالمة، المتغطرسة بقوّتها وجبروتها، وعتادها وسلاحها، أنّ لها يومًا لا مردّ له من الله، سواء البائدة منها أو الآنية أو الآتية إلى أنْ يشاء الله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٠ - ١٠٢). وفي هذا: «إعلامٌ بسُنَّته تعالى في أَخْذِ الظّالمين التي لا تتبدَّل، وإنذار كل ظالم ظَلَمَ نفسه أو غيره من سوء العاقبة».[1] ولقد قَصَّ الله ﷻ في «سورة العنكبوت» قَصص: إبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح، وهود، وموسى عليهم السلام، ثم ختمها بهذه الآية الجامعة: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ١٣٠).

ولعلّنا بعد هذا الإجمال أنْ ندلف إلى قصّة واحدة من هذا القصص، نقف معها وقفة تأمُّل وعظة، وتفكُّر وعبرة، عسى أنْ ينتفع بها القلب المؤمن، فيشفى ببرد اليقين، ويطمئن إلى سُنّة الله ﷻ في أَخْذِ الظّالمين.

إنها قصّة موسى عليه السلام مع الطاغية الظالم فرعون الذي ادَّعى الألوهية، وبطش ببني إسرائيل أعظم بطش يتصوّره بشر، ونظر إلى موسى وأتباعه نظرة ازدراء واحتقار ممّا يرى من قوّته، وما يعتدّ به من عتاده.

وقد ورد تفصيل هذه القصة في سُوَرٍ عدّة؛ منها ما ورد في «سورة الشعراء»، فبعد أنْ ذكر الله ذلك السِّجال بين سحَرة فرعون وموسى، ونصْر الله لحجَّة موسى وظهور الحق الذي معه على الباطل الذي معهم وعلوّه عليهم، ثمّ ما كان مِن انصياع السَّحَرة لما جاء به موسى؛ من الحَق، حينذاك أجمع فرعون على إهلاك موسى ومن معه، فأوحى الله إليه المسير ليلًا .. ونتابع من هنا سياق القرآن الكريم لهذه القصّة العجيبة:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا

كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٥٢ - ٦٨).

إنك لتلحظ وأنت تتابع سياق هذه القصة، تلك الحشود العظيمة التي جمعها فرعون من المدائن والقرى بعد أنْ نادى فيهم وبعث إليهم رسله ودعاته، يحضُّونهم على المسير، ويدفعونهم إلى المشاركة، ويُقلِّلون مِن قوّة خصمهم: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾ قد فعلوا ما أغاظنا، وأحنقوا صدورنا؛ ولذا وجب أنْ نَحذرَ جميعًا مِن تخريبهم وإفسادهم وعبثهم، وأنْ نقاومهم يدًا واحدة وصفًّا واحدًا.. وما درى هذا الظالم الأحمق وحِزبه أنّه يسير إلى حتفه، ويستعجل إلى هلاكه، ويسارع إلى خِزيه؛ فأخذ يسوق الجموع، ويحشر النّاس، حتى أوقف موسى وقومه موقف الحرج والشِّدَّة؛ فجنوده المجنَّدة من جانب، والبحر الخضم من الجانب الآخر، وهنا يُفْصِحُ أتباع موسى عن تقديرهم للموقف بمقتضى النظر البشري: ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾.. ولكن موسى عليه السلام الخبير بسُنَّة الله ﷻ في إهلاك الظالمين، يدفع هذا التقدير ويُعلِنها كلمةً واثقةً بسُنَّة الله التي لا تتخلَّف: ﴿ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾.. وهنا تتحقَّق السُّنّة الإلهيّة، فيضرب موسى البحر بعصاه بأمر ربِّه ومولاه: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .. وما يُغْنِي ضرب البحر بالعصى في ظاهر الأمر؟! إنّه الترجمة الأمينة لأوامر الوحي على الأرض، والامتثال المستيقن بموعود الربّ ﷻ.. يضرب موسى البحر فينفلق إلى اثني عشر طريقًا، فيسلكه موسى وقومه، حتى يخرجوا من البحر، ويسلكه العمي

المجرمون فرعون وقومه، فينطبق عليهم فيغرقوا عن آخرهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .. إنها آية من آيات الله في إهلاك الظالمين؛ متى شاء، وأين شاء، وكيف شاء. ومِن تمام هذه النِّعمة ما قَصّه الله ﷻ علينا من قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٠) «والفائدة من قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ بيان تمام النعمة؛ فإنّ هلاك العدوّ نعمة، ومشاهدة هلاكه نعمة أخرى، فيها سرور لا يُقدَّر قدْره».[1]

فاللهم نصرك لعبادك المؤمنين، واللهم هلاكك للمستكبرين الظالمين.



(١) تفسير المراغي (١/ ١١٧).

٢/١٠/٣ سَمْت اليقين

حينما يستيقن قلب المؤمن أنّ عاقبة الظلم إلى خذلان، وأن عاقبة الظالمين إلى خسران؛ فإنّ هذا اليقين يستتبع جملة من الآثار تعبّر عن تجذُّر تلك الحقيقة في قلبه، واستقرارها في ضميره، وإلّا فما فائدة عقائد لا تثمر عملًا، ولا تنتج سلوكًا؟!

ومن تلك الآثار:

أولا: الإنكار على الظّالم ظلمه، والأخذ على يديه ، وإلّا فلا أقل من إنكار ذلك باللسان أو القلب إنْ لم يُستطَع سواه، فعن أبي بكر الصديق ﵁ قال: (يا أيُّها النّاس! إنّكم تقْرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ (المائدة: ١٠٥) وإني سمعت رسول ﷺ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**».[١]

والنبي ﷺ في هذا الحديث يحذِّر مِن التخاذل عن القيام بفريضة الإنكار على الظالمين؛ لأنّ ذلك من أسباب تنزُّل العقوبات العامّة التي تصيب الأُمَم حينما تنكص عن قول الحق، أو تستهين في دفْع الباطل، فتفسح له المجال وتتركه وما أراد أنْ يعيث في الأرض فسادًا.

ثانيًا: عدم الركون إلى الظالمين، قال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

---

(١) رواه أحمد (١)، والترمذي (٣٠٥٧) وقال: (حديث حسن صحيح).

﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (هود: ١١٣).

وحقيقة الرُّكون: الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرِّضا به.

ومن أئمّة التابعين مَن فسّر الركون بآثاره؛ فعن قتادة وعكرمة في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ .. ﴾ يعني: «**لا تَودُّوهُم ولا تُطيعوهم**». وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «**الرُّكونُ هنا الإدْهانُ، وذلكَ أنْ لا يُنكِرَ عليهم كفرُهم**». وقال أبو العالية: «**معناهُ: لا تَرضَوا أعمالَهم**». وكله متقارب.[1]

إنّ الركون إلى الظالمين من خلال المعاني المتقدِّمة وما يقاربها هو في حقيقته تشجيع لهم على ظلمهم، ودفْع بهم إلى تلك الممارسات الظالمة، التي تخرب البلاد وتهلك العباد.

إنّ عدم الركون إلى الظالمين أحد علامات الاستقامة الجادّة التي تلتزم أحكام الشرع وتطبق مبادئه؛ ولذا سبقت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (هود: ١١٢).

فالاستقامة الحقّة: امتثال كامل لأوامر الشريعة، وبُعْد عن الطغيان والمجاوزة للحد، وقطيعة مع الظالمين المعتدين. وإنّما يُستطاع ذلك: إذا نشأ العبد في حياة العبادة الحقّة، واستشعر القُرْب من ربِّه ﷻ، والزُّلفى لديه؛ ولذا جاء بعد آية النهي عن الركون إلى الظالمين قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ١٠٨)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٦٠١).

ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ (هود: ١١٤).

ثالثاً: البُعد عن إعانة الظالم على ظُلمه بأيِّ نوع من أنواع الإعانة، وقد قال ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».[1]

فالمطلوب من المؤمن تجاه الظالم: أنْ يأخذ على يديه، ويحجزه ويمنعه من ظلمه، وأدنى من ذلك أنْ لا يُعينه بفعل أو كلام؛ فلا يُحسِّن ظلمه، ولا يُجمِّل صورته في أعين الخلق، ولا يلتمس له المعاذير، بل يجب أنْ يوصَف الظّالم بالوصف اللائق به، الذي يُنفِّر الناس منه، ويَدفع عنهم الانخداع بمسلكه.

رابعًا: وكما أنّه لا يحلّ للفرد المسلم أنْ يَركن إلى الظالم، أو يعينه على ظلمه، فإنّه يجب أيضًا على الجماعة المسلمة والمجتمع المسلم أنْ يبتعدوا عن هذا الركون، وأنْ يَزورُّوا عن هذه المشاركة للظالمين في ظلمهم.

إنّ مشاركة الظالمين في ظلمهم طريق البوار؛ لأنّ الله ﷻ يتخلّى عن نصرة المناصرين للظالمين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (هود: ١١٣).

(١) رواه البخاري (٦٩٥٢).

وكثيرًا ما يعود الظالمون على مناصريهم، فيظلمونهم أيضًا، وقد قطع هؤلاء المناصرون حبل المودة بينهم وبين ربهم، فاستوجبوا الهزيمة والخسارة أمام أسيادهم الظالمين. وهذا من عجيب حكمة الله وتدبيره، فيوم أنْ تتخلَّى الجماعة المسلمة أو الفرد المسلم عن واجب النصرة للمظلوم، وواجب الإنكار على الظالم؛ فإنّ الله ﷻ يعاقبهم بتسليط الظالمين عليهم؛ فإنّ النفوس الشِّريرة التي تهوى الظلم، لا تقف عند حد، ولا تقرّ إلى منتهى، وربما أغراها بما هي بصدده: خنوع الخلق لهم، أو استحسانهم لفعالهم، أو مباركتهم لتصرفاتهم، وحينذاك ينكشف للذين صانَعُوا الظّالمين كم كانوا في خداع عجيب مع حقائق الأشياء والوجود، يوم أنْ وضعوا أيديهم في أيدي الظلمة، وخلَّفوا كتاب الله وراءهم ظِهْرِيًّا.

إنّ الظلم تخريب عظيم، وتهديم جسيم لكل مكاسب الإنسان؛ فهو خراب للبلاد اقتصاديًّا وعمرانيًّا، وخراب للنفوس البريئة التي تُزهَق بغير حق، وخاصة إذا كانت تلك النفوس مؤمنة بالله واليوم الآخر ورسالة الإسلام.. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أَجِدُ في كتابِ الله تعالى أنَّ الظُّلم خراب البيوت»، وقرأ قوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل: ٥٢). يقول القرطبيُّ: (إنَّ الجورَ والظُّلمَ يُخْرِبُ البلادَ، بقتل أهلها، وانْجلائهم عنها، وتُرفَع مِن الأرض البركة).[1]

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٣٣٤).

والله قد خلق العباد ليعمروا الأرض ويستغلوها، لا ليهدموها ويفسدوها، فمُظاهَرة الظالمين لتخريب الدِّيار، وإزهاق الأنفس، سَعْي في مخالفة حكمة الباري ﷻ مِن الخَلْق والإيجاد.

أعاذنا الله مِن الظُّلم وأهله، وسَلَّط عليهم هلاكه ونقمته..



٣/١٠/٣ اليقين بنصر الله للمؤمنين

من أهم أعمال القلوب «**اليقين بأخبار الله ﷻ**» ..

وقد سبق الحديث عن سُنَّة الله ﷻ الجارية في هلاك الظالمين وخسارهم في الحياة الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد ..

وهذا حديث عن الطرف الآخَر، وهو: فوز المؤمنين، ونُصرة الله لعباده المتَّقين، وإعلاء شأنهم، ورفع منزلتهم.

وقد امتلأ القرآن الكريم بالحديث عن هذا الأمر في جملة معالم، لعلّنا نلمّ ببعض أطرافها في هذه المقالة والتي تليها:

وأول هذه المعالم:

أنّ الله ﷻ أكرم أهل الإيمان بأنْ أوجب على نفسه نُصرتهم، فقال عزّ من قائل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ (غافر: ٥١).

ولقد بشّر اللهُ أهلَ الإيمان بالنّصر في أحلك الظروف، وأعسر السّاعات، حين تتزلزل القلوب، وتضطرب الأفئدة، وتزيغ الأبصار، فحقّق لهم النّصر أحوج ما كانوا إليه؛ لأنّ الله لا يخلف الميعاد، وتلك سنته ﷻ مع أوليائه من هذه الأُمّة، ومَن تقدّمهم مِن الأُمَم الأخرى، قال ﷻ: ﴿ أَمْ

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤).

ويقول عزَّ مِن قائل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٩ - ١١٠).

وكما تجلَّى نصر الله لأوليائه مِن الأُمَم السابقة، فقد تجلَّى في نصره لأوليائه من هذه الأُمّة؛ ولذا كان هذا مِن نِعَم الله التي ذكّر بها أوّل هذه الأُمّة في قوله عزَّ مِن قائل: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ (الأنفال: ٢٦).

إنّ المؤمن ليمتلئ قلبه باليقين بهذه الحقيقة - أعني: نصر الله لعباده المؤمنين - لسببين:

- **الأول**: أنّ النصر في حقيقته من عند الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦، الأنفال ١٠).

ذكر الله هذه الحقيقة في سياق الحديث عن غزوة بدر، التي نصر الله فيها نبيَّه وصحابته على قريش، ولم تكن أسباب النصر المادية المعهودة عند

البشر بيد النبي ﷺ ولا أصحابه؛ فقد كانوا أقلّ عَددا، وأضعف عُددا، وقريشٌ قد حشَدت من الأسباب الماديّة ما هو كفيل بمقتضى النظر البشري بإدراك النصر، وإلحاق الهزيمة بالخَصم؛ ولكن الذي بيده النّصر: نصر حزبه المؤمنين، وخذل حزب الكافرين الظالمين، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦).

▪ **وأما الأمر الثاني الذي يستمد منه المؤمن يقينه بنصر الله، فهو ما** أخبر به المصطفى ﷺ مِن أنّ الله ﷻ جعل دِينه خاتم الأديان، ورسالته خاتمة الرسالات، وأنّ الله سيُعلي هذا الدِّين على الدين كله، وسيدخل أرجاء الأرض كلها؛ ولهذا كانت رسالته عليه الصلاة والسلام عامة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨).

يقول المصطفى ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**».[1] **ويقول ﷺ أيضًا: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا**

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان ﷺ.

الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ».[1]

ولا ينبغي استبطاء هذا الأمر؛ فإنّ لله حكمة في كل ما يقع في هذا الوجود، وقد أخبر ﷺ بأنّ المسلمين يفتحون القسطنطينية، ولم يتحقّق ذلك إلا بعد ثمانية قرون. بل إنّ المصطفى ﷺ أخبر بنوع من النصر ليس في مجال قتال الأعداء، ولكن في مجال تقويم النقص الحاصل في الأُمّة بحيث تعود إلى درجة الكمال التي كانت عليه زمن الخلافة الراشدة، فيقول ﷺ: **«تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ». ثُمَّ سَكَتَ.**[2]

---

(١) رواه أحمد (١٦٩٥٦)، والحاكم (٤/ ٤٧٧) وصحّحه من حديث تميم الداريّ رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٤): (رجال أحمد رجال الصحيح). ورواه ابن حبان في صحيحه (٦٦٩٩، ٦٧٠١) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود الطيالسي (٤٣٩)، وأحمد (١٨٤٠٦ و٢٣٤٣١) من حديث حذيفة رضي الله عنه. قال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٨٩): (رواه أحمد، والبزّار أتمّ منه، والطبراني ببعضه في الأوسط، ورجاله ثقات).

إنّ للمسلمين رجعة إلى دينهم، ولو تولَّوْا عنه قليلًا في زمن من الأزمان؛ فإنهم سيفيئون إليه كما يفيء الفرس إلى آخِيَّتِه..[1]

وليس من الحكمة في شيء أنْ يشتغل المسلم بالتباكي على واقع المسلمين، وكثرة التشكِّي والجزع؛ بل عليه أن يعمل لتهيئة الأمة لتصل إلى الحالة التي ينصرها الله عليها، ويعلي مِن شأنها، ويقوِّي مِن شوكتها؛ بالتعليم، والدعوة، وزرع اليقين في القلوب، وتحصيل ما يستطاع من أسباب النصر المادية من السّلاح والعتاد والمعرفة العسكرية بحيث يستغني المسلمون عن أعدائهم في قوتهم؛ فإنه من المحال أنْ يعطيك الأعداء من السلاح ما تكون به قادرًا على مواجهتهم.

هذا اليقين بنُصرة الله ﷻ يبثُّ اليقين في قلوب المؤمنين بنهاية الظالمين البئيسة، ويجتثُّ الوهْن والخوف من قلوبهم تجاه أعداء الله ﷻ، وينشر بشارات النّصر في نفوسهم حتى يُنزله بساحتهم وأرضهم إذا ما اعتصموا بالله، وأخذوا بأسباب النُّصرة التي شرعها الله ﷻ في كتابه، وبيّنها المصطفى ﷺ في سُنَّته..

وسيأتي حديث عن هذه الأسباب في المقالات اللاحقة.



(١) (الآخِيَّة): بالمد كآنية، وتشديد الياء، عُودٌ يُعَرَّضُ في الحائط، ويُدفَن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعُروة تُشَدُّ فيها الدابة. النهاية (١/ ٢٩)، تاج العروس (٣٧/ ٤٣).

٣/١٠/٤ مِن شروط النَّصر

سبق معنا في المقالة الماضية الحديث عن الـمَعْلَم الأول من معالم النصر التي أشارت إليها آيات الكتاب العزيز، وهو تكفُّل الله ﷻ بالنَّصر لأوليائه.

وحديثنا هنا عن المَعْلَم الثّاني من معالم النصر على الأعداء، وهو: أنّ النصر الذي وعد الله به مرتبط بشروط يجب الاستبصار بمعرفتها، وبذل الجهد في تحصيلها، ومن هذه الشروط:

▪ **الشرط الأوّل**: الإيمان بالله ﷻ الذي هو سبب معيّة الله للعبد في تلك المواقف، قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)، وقال أيضًا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ (غافر: ٥١).

ويوم أنْ أصاب الغرور أبا جهل، وظنّ أنه قريب من الله، ودعا على نفسه حين قال في غزوة بدر: «**اللَّهُمَّ أَيُّنَا كَانَ أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ، وَآتَانَا بِمَا لَا يُعْرَفُ، فَأَحِنْه الْغَدَاةَ**»، أي: أهلكه. فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاحُهُ.[١] أنْ سأل الله أنْ يحكُمَ بحَيْنِ وخِزْيِ مَن كان كذلك. ونسي أبو جهل أنّه ليس بمؤمن،

---

(١) رواه أحمد (٢٣٦٦١)، والطبري (١١/ ٩١) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٥) كلاهما في التفسير، والنسائي في السنن الكبير(١١١٣٧) والحاكم (٢/ ٣٥٧) وصحّحه على شرط الشيخين.

فلا يستحقّ من الله نصرًا ولا تأييدًا، هنالك ناله وأصحابَه الحَيْنُ والخِزيُ: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١٩).

فمعيّة الله بالنصر والتمكين، إنّما هي لعباده المؤمنين، فلا يطمع فيها من ليس بمؤمن.

▪ **الشرط الثّاني:** التّقوى التي تحمِل على فعل الأوامر، وترك النّواهي؛ فإنّ المتّقي متقرِّب إلى ربّه، مُتحبِّب إليه بطاعته، مُستجلِب لأسباب نصره وتأييده بصدق عبوديّته وكمال أوبته، يقول تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

وشرط التقوى كان حاضرًا في قلوب الصّالحين من هذه الأُمّة؛ فكانوا يستنكرون وقوع ما ينافيه في سِلْمِهم وحربهم مخافة أنْ يتخلّى الله عنهم، أو يدعهم لحولهم وقوّتهم.

وعباد الله المتّقين يُجاهدون في سبيل الله ﷻ بأنفسهم وأموالهم ابتغاء صلاح الخَلق وتثبيت كلمة التقوى في النفوس، وإحالة جذور الشِّرك مِن القلوب النّافرة عن الحقّ إلى غراس هُدىً ونور. وهم في مواجهة قُوَى الشِّرك بين حالَين: حال دفع وصدّ، وحال بدء وطلب ..

فالأوّل: حال الذَّود عن التقوى والقتال دون العروة الوثقى.

والثاني: حال الرّحمة والشّفقة بالخلق؛ بطلب الهداية لهم، وتبصيرهم بالنُّور الذي غُمِّيَ عليهم، والتقوى التي حِيْلَ بينهم وبينها ..

عن أبي هُريرة ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، قَالَ: «**خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ؛ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلاَسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ**».[1] وفي روايةٍ: «**عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلاَسِلِ**».[2]

وإنّما كان ذلك بالجهاد في سبيل الله ﷻ الذي أثمر التقوى في قلوب مَنْ شرح الله صدره من الأسرى؛ فأبصروا بعد عمى، وهُدوا بعد ضلالة؛ فغنموا خيري الدُّنيا والآخرة، وحصّلوا أسباب السّعادة كلّها، من ذلك ما ثبت عن أبي هريرة ﷺ قال: (بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٥٧).

(٢) رواها البخاري (٣٠١٠).

تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الغَدِ، فَقَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**» فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ..).[1]

▪ والشّرط الثالث: الصّبر، كما سبق في قوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ..﴾.

والصّبر من الدِّين بمنزلة الرأس من الجسد، وهو مِن الضّروريّات للمؤمن في أموره الدينيّة والدُّنيويّة. ومما يُهوِّنه على المؤمن، ويحثُّه عليه؛ تطلُّب أجره وثوابه، مع ما يراه ويُشاهده، ويَرقبه ويُحسّه، مِن نزول الآلام التي حلَّت به؛ إذْ بها قد حلَّت بعدوِّه، ونالت مِنه، ثم ما يراهُ مِنْ جَلَدِ عدوِّه، وصبره على تلك الآلام، بحَرِّها وقَرِّها، ومُرِّها وقسوتها، وليس مع هذا العدوّ مِن الإيمانِ شيء، إلّا أنّ زُخرفَ الأُمنية، وزينةَ العِدَة، تُصوِّران له الظَّفرَ والغنيمةَ ماثلتين ملء عينيه، وطوع يديه، فيصبر ويحتسب، وبئس ما احتسب؛ إنّه الظّفر الأرضيّ، والثّواب الدَّنيّ؛ أمّا المؤمن؛ فإنّه صابرٌ على الآلام، لا يَرقُبُ غنيمةً أرضيّة، أو أموالًا دنيّة،

---

(١) رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

أو ثناءً وسُمْعَةً؛ إنّما يَرقُب ما لا يرقبه غيره، ويرجو ما لا يرجوه غيره، فالمؤمن مُستَعْلٍ في كُلِّ أحواله؛ في مبدئه: فلا يَشْرَعُ في العملَ إلّا لله، وفي منتهاه: فلا يرجو إلّا الله والدّار الآخرة، وأين هذه المعاني العليّة من المطالب الأرضيّة الدّنيّة؟!

إنّه الفارق بين عُلوّ المؤمن، وسُفولة الكافر، قال عزّ من قائل: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤).

أي: ترجون ثواب الله، وحسن العاقبة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

وقد أمر الله بالصّبر في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

والصبر محمود العاقبة، ولكنّه شاق على النّفوس؛ ولهذا كان من دعاء المؤمنين لربهم أنْ يُلهمهم الصبر، وأنْ يوفّقهم إليه، كما حكى الله ﷻ عن سحَرة بني إسرائيل، الذين آمنوا بالله ربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون، فكان من فرعون أنْ توعّدهم؛ بأنْ يُقطِّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم

يصلّبنّهم أجمعين؛ هنالك قالوا: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٦).

وكما أخبر الله ﷻ عن قصّة طالوت -ملِك بني إسرائيل مِن بعد موسى- والذين آمنوا معه؛ إذْ ثبتوا عند الابتلاء؛ فلم يشربوا من النّهر الشُّرب المنهيّ عنه، وصبروا عند ذاك، ثمّ: ﴿ لَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٠)، فكان الجزاء: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

▪ **والشّرط الرّابع من شروط النّصر:** نبذ الفرقة والاختلاف، وترك التّناحر على مكاسب الدنيا وشهواتها، وقد أبان الله ﷻ عن هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (الأنفال: ٦٢ - ٦٣)، وقوله: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٦)، «فأخبر أنّ ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء».[١]

وبهذه الأسباب استطاع المسلمون أنْ يتداحوا في أرجاء هذه المعمورة شرقًا وغربًا، حتّى سُمِع الأذان من شرق الكُرة الأرضيّة وغربها.

وبالتّنازع والتناحر والاختلاف، انتُقِصت ديار الإسلام، وأصبح يعيش ملايين منهم في بُلدان متفرقة يحكمها الكفّار، وربما يسومونهم سوء

---

(١) تفسير السعدي (ص١٢٧).

العذاب، مع أنّ أُمّة الإسلام لا ينقصها عدد، ولا تعوزها الإمكانات لو أصبحت أُمّة واحدة تتناصر وتتعاون بدلًا من أن تتقاتل وتتنازع، «وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال مُلكها: ترك الدِّين والتفرُّق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم».[1]

ويوم أنْ وقع من المسلمين بعض إخلال بهذا الشّرط، فعصى بعضُهم أمر الرّسول ﷺ يوم أُحد في الثّبات في مكان معيّن على رأس الجبل، وقعت العقوبة بنَيل الكافرين من المؤمنين ما لم ينالوه قبل ذلك العصيان، مع أنّه كان عصيانًا تَأوّل فيه أصحابه أنّ المعركة قد انتهت، وأنّ الكفار قد اندحروا، فأحبّوا أنْ يشاركوا إخوانهم في المغنم.

ثمّ ليَتأمّل المؤمن العاقل! فإنّ النّفس لا تُقبَض مرّتين، إنّما هي مرّة واحدة، ثم تودِّع الحياة الدُّنيا إلى دار القرار؛ فإنْ قُبِضت وهي تسعى لتمكين دين الله ﷻ، فنِعمَّا ذلك القبض، وإنْ قُبِضت لتحصيل الدُّنيا بمعزل عن تحصيل أسباب الآخرة، فبئسما تلقى به ربّها.

▪ **والشرط الخامس من شروط النصر:** حمل غاية الدِّين، واستصحاب رسالته؛ فإنّ الجهاد ليس له غاية أعلى من تمكين دين الله ﷻ في واقع الناس؛ ولهذا وصف الله المؤمنين الصادقين أنهم ما إنْ يحصل لهم النصر على عدوّهم، حتى يُمكِّنوا دِيْنَ الله ﷻ في أرضه؛ بنشر شرائعه، وإقامة أركانه،

---

(١) تفسير السعدي (ص١٢٧).

والأخذ على أيدي المتجاوزين لحدوده: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (الحج: ٤١).
حين تكون غاية الجهاد والقتال: الوصول إلى هذه المراضي الربانية، يتنزّل النصر الإلهي. وحين يكون غاية القتال: التكالب على المطامع؛ فلن تُدرك هذه الأُمّ النصر الحقيقي، ولو ظهرت غلبةٌ عارضة؛ فإن الله لا يُصلح عمل المفسدين.

وعلى كلٍّ؛ فإنّ المؤمن الحقّ كما يتعلّق قلبه بالله ﷻ ثقةً في نصره، فإنّ يديه تجمع من أسباب النّصر الماديّة والإيمانية ما تستطيع جمعه وإحرازه؛ وهو في هذا جار على سُنّة الله ﷻ التي جرت بأنّ النصر لا يقع بغير سعي، كما أنّ الرزق لا يقع بغير سعي، وما النصر إلا رزق من عند الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠).



٣/١١ التوكُّل

٣/ ١١/ ١ حقيقة التوكُّل: اعتماد وتسبُّب.

٣/ ١١/ ٢ التوكُّل سلاح المؤمن.

٣/ ١١/ ٣ التوكُّل في حياة الرُّسل.

٣/ ١١/ ٤ سيِّد المتوكِّلين ﷺ.

٣/١١/١ حقيقة التوكُّل: اعتماد وتسبُّب

من أهمّ أعمال القلوب التي أمر بها الشَّرع: «التوكُّل على الله ﷻ»..

والتوكُّل الحقّ في شريعة الإسلام: اعتماد القلب على الله وحده في جلب المنافع (ككسب المعاش وحصول المال والولد والعلم النافع والعمل الصالح)، ودفع المضارّ (كالأمراض وتسلُّط الأعداء وظلم الخَلق)، مع بذل الأسباب المعِينة على تحصيل تلك المطلوبات.

واجتماع هذين الأمرين -اعتماد القلب على الله وبذل الأسباب- في نفس المكلَّف، من كمالات هذه الشريعة التي تربط العبد بربِّه، وتعمر الأرض التي يسكنها بكافّة أنواع العمارة المعنويّة والحسّيّة.

وقد عالج هذا الأمر رسولُ الله ﷺ عند مَن استشكل الأمر بالجمع بينهما، فلما قال ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ»**. قال بعضُ أصحابه: **أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ**؟ فقال: **«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»**، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾(الليل: ٥-٦)[١]

فكشف ﷺ بهذا الجواب أنّ التوكُّل لا ينافي العمل، بل إنّ التوكل الحق هو الذي يقتضي العمل، كما في قصّة ذلك الرجل الذي سأل رسول الله ﷺ عن أمر ناقته، فقال: أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ:

---

(١) تقدَّم تخريجه.

«**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**». وفي روايةٍ: «**بَلْ قَيِّدْهَا وَتَوَكَّلْ**».[1]

ومن المقرّر شرعًا: أنّ المؤمن مطلوب منه أنْ يتوكَّل على الله في تحصيل رزقه، ولكن المقتضى الحقيقي لهذا التوكُّل: أنْ يزاول الأسباب المشروعة الجالبة لذلك، وأنْ يعالج العمل الدؤوب في تحصيله وإحرازه، ولهذا قال الحق ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥).

وقد قرن الله ﷻ بين التعبُّد وطلب الرزق، فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠).

وذكر النبيُّ ﷺ داودَ عليه السلام في مقام الثناء عليه -وهو من أئمة الهدى، وسادات المرسلين المتوكّلين- فقال: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**».[2]

ووردت في القرآن الكريم قصّتان عجيبتان، اقترن فيهما معنى التوكل في صورته الشرعية مع حدوده الحقيقية، في أحداث يحتاج فيها أكثر ما يحتاج إلى تفويض الأمر لله، وصدق التوكل عليه، واطِّراح الأمر بين يديه؛ إذ لا مغيث ولا معين إلا هو سبحانه. وفي هاتين القصتين أمر الله ﷻ

---

(١) اللفظ الأول: رواه ابن حبان (٧٣١). والثاني: رواه الحاكم (٣/ ٧٢٢) من حديث عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِي رضي الله عنه، به. وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: (سنده جيِّد).

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٢).

بمزاولة العمل، مع عدم ظهور جدواه في ظاهر الأمر؛ حتى إذا ما أثمر العمل ثمرته، وبدا للناس هطول غيثه، وتفيّئوا ظلال خيره، تجلَّى حينئذ للعباد معنى التوكل الحقيقي، في صورة حية، وتجليات مرئية، وأن هذا التوكل الحق ليس مجرد كلمة تلوكها الألسن دون مخالطة للجنان، ولكنه عمل حقيقي: عمل بالقلب وتفاعل بالجوارح والأركان..

أمّا القصّة الأولى؛ فهي قصة موسى عليه السلام لما أتبعه فرعون بجنوده حتى اضطره إلى البحر الخضم الذي هو مورد الغرق، والهلاك المحقق، وهنالك فزع أصحاب موسى، فقالوا بتقديرهم البشري: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١).

وقال موسى بتوكُّله وإيمانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٢).

وحينذاك، أمر الله موسى عليه السلام أنْ يضرب البحر بعصاه، فقال عز وجل ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦٣).

قد يقال: ما دام أن الله قد أراد إنجاءه بهذه المعجزة العظيمة وهي فلق البحر، وضرب العصا في المعتاد لا يؤثِّر شيئًا يُذكَر في الماء، فلِمَ أُمِرَ موسى بذلك؟!

إنّ موسى عليه السلام أُمِرَ بذلك لحِكَم عظيمة لعل منها تقرير هذه الحقيقة، وهي أنّ التوكل على الله لا ينافي مزاولة الأسباب، فليأت السبب الذي

يستطيع، والله يوجِد الأمر الذي أراد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧).

والقصة الثانية، قصّة مريم العذراء عليها السلام، وهي تضع وليدها، وليس للمرأة حال أضعف من هذا؛ فقواها واهنة، وأوجاعها شديدة، وحيلتها منقطعة، ومع ذلك أمرها الحق سبحانه بأنْ تهزّ جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب، قال تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ (مريم: ٢٣ - ٢٦)، «أي: حرِّكي جذع النخلة، وقرِّبيه، يَدْنُ إليك ويَلِنْ بعد اليُبس، ويُسقِط عليك رُطَبًا».[١]

«والذي يُفهَم من سياق القرآن: أنّ الله أنبت لها ذلك الرُّطَبَ على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة، ولم يكن الرُّطب والنهر موجودين قبل ذلك .. ووجه دلالة السياق على ذلك: أنّ قوله تعالى: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ يدل على أنّ عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة؛ لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به ..؛ لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمنت بسببها أنْ تكون قد ماتت من قبل وكانت نسيًا منسيًّا، لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٨٨).

ظاهر».[1] وعلى كل حال، ففي هذا دليل على التسبُّب في الرزق، وتكلُّف الكسب، وإنْ كان السبب في الظاهر عديم الجدوى، وإليه أشار القائل:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللَّـهَ قَـالَ لِـمَرْيَـمَ ... وَهُزِّي إِلَيْكَ الْجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبُ

وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَـجْنِيَهُ مِنْ غَيْرِ هَزِّهِ ... جَنَتْهُ وَلَكِـنْ كُـلُّ شَـيْءٍ لَهُ سَبَبُ[2]

وكما جاء القرآن بلفت النظر إلى هذين المشهدين التاريخيين، جاء من كلام المصطفى ﷺ لفت النظر أيضًا إلى ظاهرة في الأحياء يراها النّاس بأعينهم كل حين، فيها الجمع بين قطبي التوكُّل: الاعتماد على الله وبذل الأسباب، ففي الحديث أنّ النبي ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ: تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**».[3]

و«أشار بذلك إلى أنّ التوكُّل ليس التبطُّل والتعطُّل، بل لا بُدَّ فيه من التوصُّل بنوعٍ من السبب؛ لأنّ الطير تُرزق بالسّعي والطلب؛ ولهذا قال أحمد: ليس في الحديث ما يدل على ترك الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرِّزق.[4]

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣١٥).

(٢) انظر: محاسن التأويل (٧/ ٩٤)، أضواء البيان (٤/ ٣١٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٤) وقال: (حديث حسن صحيح).
وقوله: (تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا): أي: تغدو بُكرةً وهي جياع، وتروح عِشاء وهي ممتلئة الأجواف والبطون. انظر: النهاية (١/ ١٣٦ و٢/ ٨٠).

(٤) قيل للإمام أحمد: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئًا حتى يأتي رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجلٌ جَهِلَ العلم، أما سمع قولَ النبي ﷺ: «إنَّ الله جُعِلَ رِزْقِي

وإنّما أراد: لو توكّلوا على الله في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم، وعلموا أنّ الخير بيده، لم ينصرفوا إلّا غانمين سالمين كالطير، لكن اعتمدوا على قوّتهم وكسبهم، وذلك ينافي التوكُّل».[1]

وقال أبو حامد الغزَّاليُّ: «وقد يُظَنّ أنّ معنى التوكُّل: ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوَضَم. وهذا ظنّ الجهّال؛ فإنّ ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكِّلين، فكيف يُنال مقام من مقامات الدِّين بمحظورات الدِّين؟! بل نكشف عن الحق فيه، فنقول: إنّما يظهر تأثير التوكُّل في حركة العبد وسعيه، بعمله إلى مقاصده».[2]

وقال الأستاذ أبو القاسم القُشَيْرِيُّ: «اعلم: أنّ التوكُّل محَلّه القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكّل بالقلب، بعدما تحقق العبد: أنّ التقدير مِن قِبَلِ الله تعالى، فإنْ تعسّر شيء فبتقديره، وإنْ اتفق شيء فبتيسيره».[3]

تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»، وقال حين ذَكرَ الطير: «تَغدُو خِماصًا وتَروحُ بِطانًا»، فذكر أنّها تغدو في طلب الرزق، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتّجرون في البرِّ والبحر، ويعملون في نخيلهم، ولنا القدوة بهم. انظر: تلبيس إبليس (ص٢٥٢)، الآداب الشرعية (٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠).

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٣٠٦). وعنه: تحفة الأحوذي (٧/ ٧ - ٨).

(٢) إحياء علوم الدِّين (٤/ ٢٦٥). وعنه: شرح الطيبي على المشكاة (١٠/ ٣٣٣٦)، تحفة الأحوذي (٧/ ٨).

(٣) انظر: الرسالة القشيرية (١/ ٢٩٩). وعنه: شرح النووي على مسلم (٣/ ٩١)، الطيبي على المشكاة (١٠/ ٣٣٣٦)، فتح الباري (١١/ ٤١٠)، تحفة الأحوذي (٧/ ٨).

إن الخطأ في فَهْمِ التوكُّل مُفسِدٌ للدِّين والدُّنيا جميعًا..

قال عبد الله بن الإمام أحمد: سألت أبي عن قوم يقولون: نتّكل على الله ولا نكتسب؟ فقال: «ينبغي للناس كلهم يتوكّلون على الله ﷻ، ولكنْ يَعُودونَ على أنفسهم بالكسب، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ (الجمعة: ٩) فبهذا قد عُلِمَ أنّهم يكتسبون ويعملون، وقال النَّبيُّ: «**مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً فَلَهُ الْجَنَّةُ**».[١] يعني: من قال بخلاف هذا، هذا قول إنسان أحمق». قال: وسمعت أبي رحمه الله، يقول: «الاستغناء عن الناس بطلب - يعني: العملَ -، أعجب إلينا من الجلوس وانتظار ما في أيدي النّاس».[٢]

وقال صالح بن أحمد: سُئِل أبي وأنا شاهد عن قوم لا يعملون، ويقولون نحن متوكِّلون؟ فقال: «**هؤلاء مبتدعة**».[٣]

وقال الـمَرُّوذِيُّ: قيل لأبي عبد الله: إنَّ ابنَ عُيَيْنَة كان يقول: «هم مبتدعة»، فقال أبو عبد الله: «هؤلاء قوم سوء، يريدون تعطيل الدنيا».[٤]

---

(١) رواه أحمد (١٢٤٩٨)، وابن حبان (٤٤٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ بنحوه. ورواه أحمد(١٤٢٤٧) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٥٧): (إسناده جيِّد).

(٢) الحث على التجارة لأبي بكر الخلال (ص١٥٦)، الآداب الشرعية (٣/ ٢٦٢).

(٣) الحث على التجارة (ص١٥٩)، الآداب الشرعية (٣/ ٢٦٢). وعلّل ذلك في كشاف القناع (٦/ ٢١٤) بقوله: (لتعطيلهم الأسباب).

(٤) الحث على التجارة (ص ١٥٩)، تلبيس إبليس (ص٢٥٣)، الآداب الشرعية (٣/ ٢٦٢)، الفروع (٦/ ١٨١).

وقال أحمد في رواية أبي الحارث: «إذا جلس الرجل ولم يحترف، دعته نفسه إلى أنْ يأخذ ما في أيدي الناس، فإذا شَغَلَ نفسه بالعمل والاكتساب: تَرَكَ الطمع».(١)



(١) الحث على التجارة (ص١٦٠ - ١٦١)، الآداب الشرعية (٣/ ٢٦٢).

٢/١١/٣ التوكُّل سلاح المؤمن

«التوكُّل على الله» من أهمّ أعمال القلوب، وأمضى الأسلحة القلبيّة التي يستعين بها المؤمن في نيل مطالبه، والظّفر بحاجاته، دون قعود يُزري به، أو يجلب المعرّة عليه. والتوكُّل على الله ﷻ يدفع في النّفس قوّة الحركة التي تنطلق بإذن الله ﷻ متوكِّلة عليه ومُستعينة به، آخذة بأسباب القوّة، ومُعِدَّة للحوادث مِن الأسباب ما تليق بها.

هذا، وقد ورد الأمر بالتوكُّل على الله ﷻ في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الفرقان: ٥٨)، وقوله ﷻ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٢)، وقوله عزَّ مِن قائل: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ٨١)، وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (هود: ١٢٣)، وقوله أيضًا: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الشعراء: ٢١٧)، وقوله ﷻ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ (النمل: ٧٩).

والمتأمِّل في هذه الآيات يقف على جملة مِن أسبابِ الأمر بالتوكُّل على الله ﷻ، وإفراده سبحانه بهذه العبادة:

وأول هذه الأسباب: أنه ﷻ له الأمر كله؛ فبيده ملكوت السموات والأرض، وهو الذي يملك النفع والضر، كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يُرْجَعُ

﴿ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣)؛ ومن أجل هذا قرن ﷻ بين الأمر بعبادته والتوكُّل عليه.

وثانيها: قيُّوميَّة الله الكاملة على خَلْقِه؛ فهو مُطَّلع عليهم، مُدبِّر لأمرهم، عالمٌ بأحوالهم: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الفرقان: ٥٨). وهنا يقرن الله أيضًا بين الأمر بالتوكُّل عليه والتسبيح بحمده.

وثالثها: أنّ الله ﷻ على كل شيء قدير؛ فهو صاحب العِزَّة الكاملة التي لا يحدّها حدّ، كما أنّه صاحب الرحمة التامّة. فهل تجد أكمل من اجتماع كمال القدرة مع كمال الرحمة؟! فمَن كان بهاتين الصفتين، فهو الذي يجب أنْ يُتوكَّل عليه دون أحد سواه.

ورابعها: أنّ الله ﷻ خير مَن تُوُكِّلَ عليه، والتوكُّل عليه فيه الخير والرشد الكامل؛ فإنه ﷻ يكفي مَن توكَّل عليه مِن كل ما أهمَّه وأغمَّه، ويُيسِّر له أسباب نفعه، ويقيه أسباب ضرّه.

والتوكُّل عليه ﷻ من أهم صفات المؤمنين، كما في قوله عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢).

وذكر الله ﷻ نجاح مسعى المؤمنين في الدنيا، مع ما ينتظرهم من الخير في الآخرة؛ لاتِّصافهم بالصبر والتوكُّل عليه؛ فإن الصبر والتوكُّل مِلَاك الأمور، فما فات أحدًا شيءٌ مِن الخير إلّا لضعف صبره، أو لضعف توكُّلِه

واعتماده على ربِّه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل: ٤١ - ٤٢).

لقد كافأهم الله ﷻ بحسنةِ الدُّنيا من الرِّزق الواسع والنّصر المبين، ففتح أولئك النَّفَر -الذين نزلت هذه الآية في وصفهم- البُلدان، وانتصروا على الأعداء، وغَنِمُوا الغنائم العظيمة التي سخَّروها بعد ذلك في نشر دِين الله، وزادهم مكافأة بخير الآخرة، كما في قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٍ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التوبة: ٢٠ - ٢٢).

واستمع إلى هذا الحوار بين طائفتين من أصحاب موسى عليه السلام؛ طائفة المتوكِّلين المعتمدين على الله، الذين يخوضون المخاطر معتمدين على ربهم مع بذل ما يستطيعون من الأسباب، وطائفة المتخاذلين ضعاف التوكُّل على الله:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ

أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٠ - ٢٣).

لقد كان السِّلاح الذي لفت هذان الرّجلان نظر قومهما إليه، سلاح التوكُّل على الله والاعتماد عليه، الذي تحصل به الغلبة على الأعداء في مواقف القتال.

وأمّا واهنوا العزائم، ضعيفوا القدرة؛ فإنّما أُتُوا بسبب ضعف توكُّلهم على ربِّهم، فتولَّد في نفوسهم كمال الخوف مِن الخَلق، وضعف الثقة بما في يد الحق ﷻ؛ ولهذا كان جواب هؤلاء الواهنين أقبح الجواب، كما قصّ الله عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤).

إنّ التوكُّل الحق: هو الذي يُعلي الهامات، ويشدّ العزائم، ويُسهّل البذل والعطاء. وضعف التوكُّل: يجعل صاحبه حبيس الخوف، سجين الأوهام، مُعذَّب النّفس والبدن.

ولو لم يكن في ضعف التوكُّل إلّا هذا لكان كافيًا للفرار منه، والهجرة إلى الله ﷻ، وإحسان التوكُّل عليه.

اللهم اجعلنا من المتوكلين عليك، الواثقين بما في يديك، إنك على كل شيء قدير.



٣/١١/٣ التوكُّل في حياة الرُّسل

التوكل على الله ﷻ دأْب الصالحين من عباده، وفي مقدمتهم سادات البشر، أنبياء الله ورسله. وقد حفَل القرآن الكريم بقصص واسع لهؤلاء المرسلين مع أقوامهم، ظهر فيها صدق توكلهم على الله، واعتمادهم عليه..

ها هو نوح عليه السلام يقص الله علينا أمره، فيقول: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (يونس: ٧١).

لقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلّا خمسين عامًا، فلم يهتد أكثرهم، ولم يستجب سوادهم، بل بقوا على ضلالهم وغيِّهم، وازدادوا بسبب طول المدة طغيانًا وسآمة منه عليه السلام ومن دعوته، وهنا ينتقل معهم عليه السلام إلى نوع من الحجّة والبرهان على أحقيّة رسالته..

إنهم قوم خالفوه وعادوه، وقد زعموا أنه أساء إليهم أشد الإساءة بعيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم؛ فندبهم نوحٌ عليه السلام إلى تحدٍّ يدركون به خطأ ما هم عليه أو صوابه، ودعاهم إلى أنْ يجمعوا أمرهم كلهم بحيث لا يتخلّف عنهم أحد، وأنْ لا يدّخروا من مجهودهم شيئًا، وأنْ يجعلوا الأمر ظاهرًا علانيَة لا مُشتبهًا خفيًّا، وليدعوا تلك الآلهة التي يعبدونها من دون الله، وليعلنوا عداوتهم لنوح عليه السلام، وتصميمهم على إهلاكه، وليبذلوا غاية

ما في وسعهم لإيصال صنوف الأذى إليه وإلى من تبعه، وليتعجّلوا في أمرهم قدر ما يستطيعون. ليكن منهم كل هذا؛ فإنه عليه السلام والنفر القليل الذين آمنوا معه أشد منعة وأوثق نصرة لتوكلهم على الحي الذي لا يموت؛ ولذا كانت العاقبة لهم على ذلك العدد الهائل المتَّكِلين على حولهم وطولهم، وكان لهم الهلاك الذي وصفه الله عز وجل في آيات كثيرة من كتابه.

وهذا مثَل آخر من قصة هود عليه السلام **مع قومه:** ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود: ٥٣ - ٥٦).

لقد تذرّع قوم هود عليه السلام أنه ما جاءهم ببينة على صدق رسالته، وصحة دعوته..

وهنا ساق لهم عليه السلام بينة من البينات التي جاءهم بها؛ إنها إعلان البراءة من آلهة هؤلاء المشركين التي يفزعون من مجرد مخالفتها، ظانِّين ظَنَّ السَّوء أنّ هذه المخالفة تُوْدِي بصاحبها إلى الهلاك وتُوْرِثه الخسار والبوار. فها هو هود عليه السلام كفر بها، وصرّح بالبراءة منها، وأشهدهم على ذلك في مشهد جليل من التحدِّي الواثق من النصر وتحقيق الظّفر، فدعاهم وآلهتهم إلى كيده، وإلحاق الضرر به، بكل طريق يتمكّنون به من ذلك. إنّهم لن يقدروا

عليه؛ لأنّ هودًا عليه السلام قد توكَّل على ذي السلطان الكامل، والعزة الغالبة: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ (٥٤ - ٥٦).

هكذا نصره الله بتوكُّله عليه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود: ٥٨ - ٦٠).

وهذا مثَل ثالث من قصّة شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨).

لقد لفت شعيب عليه السلام نظر قومه إلى وضوح البيّنة في رسالته، واستقامة سيرته بينهم إذْ لم يكن ينهاهم عن شيء ثم يخالفهم إليه، وهو متجرِّد في نيّته لا يبتغي من وراء دعوته مكسبًا ماديًّا، وإنّما همُّه أنْ يُصْلِحَ اللهُ أحوالهم، مع بذله غاية جهده في الوصول إلى ذلك الهدف المبارك، واعتماده الكامل على ربه في تحصيل مراده: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ .

ثم قد جمع - صلوات الله وسلامه عليه - بين عبادة التوكُّل على الله، والإنابة إليه: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨، الشورى: ١٠). وقد أظهره الله على قومه بكل هذه الأمور التي منها توكله، فكان له بذلك

النجاة من الهلاك المدمر: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ (هود: ٩٤).

وهذا مثل رابع من قصّة موسى عليه السلام الذي نادى في أولئك النفر الذين آمنوا معه أنْ يتوكّلوا على ربّهم ويثقوا أنّه سينصرهم على عدوّهم ويظهرهم عليه، قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٨٣ - ٨٤).

وقد استجاب أولئك المؤمنون لدعوة موسى عليه السلام، فسارعوا إلى قولهم: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (يونس: ٨٥ - ٨٦). فكانت العاقبة لموسى وأولئك النفر المؤمنين المتوكِّلين، كما جاء بسط ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله.

وذكر الله ﷻ جماعةً من الأنبياء توكّلوا على ربهم، واستعانوا به على تحمُّل أذى قومهم حتى كتب الله لهم النصر: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ
هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

(إبراهيم: ٩ - ١٢).



٤/١١/٣ سيِّد المتوكِّلين ﷺ

إنّ النّاظر في سيرة النبي ﷺ يجد أنه قد جمع بين ركنَي التوكُّل، وهما:

- اعتماد القلب على الله في تحصيل المراد ودفع المكروه.
- وإتيان الأسباب الممكنة.

وإنّما تستفاد معرفة الحقائق الشرعيّة مِن تطبيقات النبيّ ﷺ؛ فهو الـمُبَيِّن عن الله مراده؛ ولذا حفَلت سيرته ﷺ ببيان التوكُّل بيانًا عمليًّا، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

- **حادث هجرته ﷺ إلى المدينة مَلِيء بالعظة والعِبرة في هذا الأمر**؛ فقد التمس - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه - الرَّفيق في رحلة الهجرة، فاتخذ أبا بكر رفيقًا، كما اتخذه من قبل صاحبًا وخليلًا، وأَوْهَمَ -صلواتُ الله وسلامُه عليه- المشركينَ بأنّه لا يزال في مكّة معهم؛ فألبس ابنَ عمِّه عليًّا ؓ بُرْدَةً، وجعله يبقى في بيته وفي منامه ليظنّ المشركون أنّه ﷺ لا يزال موجودًا بعد أنْ عقدوا العزم على قتله.[1]

ثم خرج ﷺ وصاحبه إلى غار جبل ثَوْرٍ، وهو في جهة معاكسة لمن يريد أن يخرج إلى المدينة؛ وبقي - صلواتُ الله وسلامُه عليه - في الغار ثلاث ليال، وقد وكّلَ عبد الله بن أبي بكر بمتابعة أخبار قريش، وماذا يقولون،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٢)، دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٠٠)، الروض الأنف (٤/ ١٢٥).

فيأتيهم بها عند الليل، ورتّب لأمر الطعام عامر بن فُهَيْرَة مولى أبي بكر، فكان يأتيهما باللبن حين تذهب ساعة من العشاء، واستأجر رجلًا من بني الدِّيْلِ هاديًا خِرِّيْتًا[1]، وقد أخذ بهما طريق السّاحل، والذّاهب إلى المدينة عادة لا يسلك هذا الطريق.[2]

لقد فعل - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- كلَّ احتياطات السّلامة التي يَقدر عليها، وهو مع هذا شديد التوكُّل على ربِّه، **وقد ظهر ذلك في موقفين من هذا الحادث:**

أما الموقف الأول: فحينما وقف المشركون على باب الغار، حتى قال أبو بكرٍ ﷺ لرسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا»، فنطق التوكُّل الكامل في قلب النبيِّ ﷺ، فقال: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».[3] فصرف الله أبصار المشركين عنهما.

وأما الموقف الثاني: فحين لحق بهما سراقة بن مالك يبتغي دمهما لينال جائزة قريش، فقرب منهما حتى كان يسمع قراءةَ رسول الله ﷺ والنبيُّ ﷺ لا يلتفت إليه، وأبو بكر يُكثر الالتفات، فساخت يدا فرس سراقة حتى بلغتا الركبتين، فارتدّ حسيرًا، بل طلب من النبيِّ ﷺ أنْ يَكتب له أمانًا، فأمر

---

(١) (الخِرِّيتُ): الماهرُ الذي يَهتدي لأخْرات المفازة، وهي طُرقُها الخفيّة ومضايقُها. وقيل: إنّه يهتدي لمثل خَرْتِ الإبْرة من الطريق. النهاية (٢/ ١٩).

(٢) صحيح البخاري (٢٢٦٣، ٣٩٠٥) من حديث عائشة ﵂.

(٣) صحيح البخاري (٣٦٥٣)، صحيح مسلم (٢٣٨١) من حديث أنس ﵁.

ﷺ عامرَ بنَ فُهَيْرة، فكتب له في رقعة من أديم. ثم مضى رسولُ الله ﷺ.[1]

- **وفي حادثة أخرى من حوادث السِّيرة يظهر هذا التلازم جليًّا، وذلك في غزوة بدر**، فقد فعل ﷺ كل الأسباب الممكنة، وأولها المشاورة لأصحابه في هذا الأمر، وقد كررها عليهم مرتين ليرى رأيهم، ويقوِّي عزائمهم، واتخذ ﷺ عريشًا يقود من خلاله المعركة، ويوجِّه تحرُّكات الجيش، ومع كل هذا كان كامل التعلُّق بربِّه، شديد التوكُّل عليه، فرفع يديه مناجيًا داعيًا: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**».[2]

فما كان من هذا التوكُّل الحق إلَّا أنْ استنزل نصر الله، فأدار الله الدائرة عليهم، وأرسل ملائكته يضربونهم فوق الأعناق، ويضربون منهم كل بنان، حتى تدحرجت رؤوس الكفر تحت أقدام المتوكِّلين.

- **وفي موقف آخر من سيرته ﷺ يظهر هذا التلازم من اعتماد القلب ومزاولة الأسباب.. لقد أحاطت الأحزاب بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم**، واستطاعوا أن يخترقوا الجبهة الداخلية للمدينة حتى تجرّأ اليهود على نقض العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ففعل ﷺ من الأسباب ما وسعته قدرته: فحفر الخندق حول المدينة، وفاوض

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٠٦) من حديث سُراقة بنِ مالكِ بنِ جُعْشُم المدلجيِّ رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم (١٣٨٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بعض طوائف المشركين ليصرفهم عن المدينة، ويفرق هذا الجمع المتكتّل حول المدينة، وجمع أصحابه واشتدّ بهم الخوف حتى لم يعد في مقدورهم العودة إلى بيوتهم إلّا بعد الاستئذان، ولكنّه مع ذلك ممتلئ القلب بالثقة بالله، ونصرته لعباده المؤمنين. كشف الله هذه السّريرة المباركة في قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢)، فنزل نصر الله، وأرسل الله على المشركين رِيحًا اقتلعت خيامهم، وفرّقت جمعهم، فرجعوا خائبين خاسرين، وقد جاءوا متعالين متجبّرين.

ولمّا كان التوكُّل على الله ﷻ من أهم مهمّات الدِّين، كان النبيّ ﷺ يستثمر المواقف المناسبة ليُجَلِّيَ معناه الحقيقيّ لصحابته، ويُرَسِّخه في نفوسهم، ويوطّده في قلوبهم؛ ذلك أنّ التوكُّل ليس حقيقة تستقر في القلب فقط، ولكن شأنه شأن شرائع الإيمان الأخرى، ما إنْ يستقر في القلب حتى تنقاد الجوارح لموجبه فِعلًا وتركًا.

وفيما يأتي أعرض بعض هذه المواقف التي يُعلِّم النّبيّ ﷺ فيها أُمّته التوكُّل:

- المرض واحد من المواقف التي لا يسلم منها أحد، وقد يشتد المرض بالعبد حتى يغدو أحرص ما يكون على التماس الشفاء في أي شيء كان، فقد يلتمسه في الأسباب الممنوعة شرعًا بالرجوع

إلى طلاسم السحرة، أو همهمات الكهّان، أو تخرُّصات المفترين. في هذا الموقف يُعلِّم النبي ﷺ المؤمن أن يكون عظيم التوكُّل على ربّه في تحصيل شفائه، مع بذل أسباب التداوي والتعافي، قال ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ العَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، هَؤُلاَءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».(١)

هؤلاء الذين رُفع عنهم الحساب هم أولئك الذين قاموا بفريضة التوكُّل في نفوسهم، فلم يتلبّسوا بطيرة أهل الجاهلية، ولم يستعملوا رقى وتعوايذ الكهان والسحرة، ولم يعتقدوا في الكيّ نفعه بنفسه دون إرادة الله، أو يفعلون ذلك اتقاء المرض.

- وكان النبي ﷺ يُعلِّم أصحابه إذا تعارّوا من الليل ليتهجّدوا أنْ يُخلصوا لله توكّلهم، فعن ابن عباس قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١)، مسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس .

وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الحَقُّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ خَاصَمْتُ، وَبِكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»).[١]

كيف لا يستقر التوكل في القلب، والمرء يطالع آثار ربوبية الله في سمواته وأرضه، ويرى في خَلق الله آثار قيّوميّته، ويعتقد بالحق في قول الله ووعده ولقائه، ويستيقن بجنّة الله وناره وقيام الساعة؟!

إنّ للتوكُّل من التمكُّن في القلب وهو يطالع هذه الحقائق الشرعيّة ما لا يعلمه إلّا الله. وإنّما ذكر ﷺ هذه الأمور لأنّ استذكارها - على الحق والصدق - يوجب عند من يستذكرها تمام التوكُّل على الله.

- وفي موقف آخر يُعلِّم المصطفى ﷺ أُمَّته التوكُّل، وذلك حينما يخرج الرجل من بيته في طلب رزقه أو طلب التعامل مع الناس من حوله، ويخرج من مكان راحته وهدوئه وسكينته إلى ساحة الحياة المليئة بالمعوِّقات والمثبِّطات والعقبات، فعن أم سلمة رضي الله عنها: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، قَالَ: «**بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَزِلَّ، أَوْ نَضِلَّ، أَوْ نَظْلِمَ أَوْ نُظْلَمَ، أَوْ نَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْنَا**»).[٢]

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٢)، ومسلم (٧٦٩).

(٢) رواه أحمد (٢٦٦١٦)، وأبوداوود، (٥٠٩٤) والترمذي (٣٣٤٩) والنسائي (٥٤٨٦)، وابن ماجهْ (٣٨٨٤). قال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح). قلت: أُعلّ

و«الإنسان إذا خرج من منزله، لا بدّ أنْ يعاشر النّاس، ويزاول الأمور، فيخاف أنْ يعدل عن الصراط المستقيم:

- فإمّا أنْ يكون في أمر الدِّين؛ فلا يخلو من أنْ يَضِلّ أو يُضَلّ.
- وإمّا أنْ يكون في أمر الدُّنيا؛ فإمّا بسبب جريان المعاملة معهم بأنْ يَظلم أو يُظلم، وإمّا بسبب الاختلاط والمصاحبة، فإمّا أنْ يَجهل أو يُجهَل عليه؛ فاستعيذ من هذه الأحوال كلّها بلفظ سلس موجَز، وروعي المطابقة المعنويّة، والمشاكلة اللفظيّة».[1]

ويُلحظ: أنّ هذه الاستقامة في التعامل مع الخالق أو مع الخلق، تحتاج إلى استعانة بالله، وتوكُّل عليه؛ ليَثْبُتَ المتوكِّل على الحق، ويستقيم على الصراط؛ ولذا افتتح هذا الدعاء، بقوله: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ».

- وفي موقف رابع يُعَلِّم المصطفى ﷺ أُمَّته التوكل على الله حينما يضع الرجل جنبه على فراشه، ولا يدري: أيَعُود إلى حياته، أم يُقبَض في نومته؟! فيعلن توحيده في آخر ساعة من وعيه، ويُفوِّض أمره إلى الربِّ الكريم

بالانقطاع بين الشعبي وأمِّ سلمة، قال ابن المديني في العلل: (لم يَلْقَ أمّ سلمة). تهذيب التهذيب (٥/ ٦٨). قال الحافظ في نتائج الأفكار (١/ ١٦١): (فما له علة سوى الانقطاع؛ فلعل من صحّحه سهّلَ الأمر فيه لكونه من الفضائل، ولا يقال: اكتفى بالمعاصرة؛ لأنّ محل ذلك أنْ لا يحصل الجزم بانتفاء التقاء المتعاصرين إذا كان النافي واسع الاطلاع مثل ابن المديني).

(١) شرح مشكاة المصابيح للطِّيبي (٦/ ١٩٠٤)، وعنه: مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٩٤).

ﷻ متوكِّلًا عليه، راغبًا فيما لديه، ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ: فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».[1]



(١) رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

١٢/٣ اللجوء إلى الله

في النّفس البشريّة ضعف ناتج عن طبيعتها، وعن تسلُّط العدو الخارجي عليها، ولكن الله ﷻ القوي القادر جعل لها من ذلك الضعف مخرجًا، ومن ذلك العجز قوة؛ بالاعتصام به، والالتجاء إليه، واللِّياذ بجنابه.

تفكَّرْ في ذلك المرء الذي أتْبَع نفسه هواها، واتَّبَع عِدَة الشيطان وأُمْنيَّته وتزيينه؛ فزَلَّ في دَرَكِ المعاصي، فعبَّ من السيئات، أو تضلَّع من الخطيئات؛ أتُراه أُتِيَ من غير تخلِّ الله عنه، وخذلانه له؟ لا والله! فإنَّ مَن اعتصم بالله عصمه، ومَن لاذ بحِماه حَماه، ومن استعطاه أعطاه، ومَن استنصره نصره وآواه، وبصّره بمواقع الهُدَى ومراتع الرَّدَى..

تأمّل معي الآيتين من آخر «سورة الحج»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٧ - ٧٨).

فإنَّه سبحانه: «لما ندبهم لأداء الشهادة على الأمم جميعًا، طلب منهم دوام عبادته، ومِن أهمّ ذلك: إقامة الصلاة التي هي وصلة بينهم وبين ربهم، وإيتاء الزكاة التي هي طهرة أبدانهم وصلة ما بينهم وبين إخوانهم،

لما ذكر الله ما سبق علله بالاعتصام به في جميع أمورهم، ثم علَّل الاعتصام به، بقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: إنَّ مَنْ تولَّاه كفَاه كل ما أهمَّه، وإذا نصرَ أحدًا أعلاه على كل مَنْ خاصمَه؛ إذْ لا ناصر في الحقيقة سواه، ولا وليّ غيره، فله الحمد وهو ربّ العالمين».[1]

الاعتصام بالله: سبب نور البصيرة الذي يُدرِك به المرء البرهان في آيات الله المنزَّلة، وتشرب نفسه العبرة من آياته المخلوقة.

ليس بالذكاء وحده تحصل البصيرة، ولا بالعلم وحده تدرك الهداية، وإن وضح البرهان، وسطعت الحجة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ١٧٤ - ١٧٥).

أنزل الله الكتاب العزيز، فوصفه بأنه برهان، وزاد في وصف وضوحه فوصفه بأنه نور.. والنور تدركه كل الأبصار التي لم تبتل بالعمى، وزاد في وصفه فوصف النور بأنه بيِّن ظاهر.. هل بعد هذا الوضوح مِن وضوح؟! لكن من ذا الذي يدرك الهداية في هذه الأدلة؟! ومن ذا الذي يبصر الهُدَى في تلك البراهين؟!

إنهم المؤمنون المعتصمون بالله..

---

(١) انظر: تفسير المراغي (١٧/ ١٥٠).

فبسبب عصمة الله لهم؛ يدخلون في رحمته الخاصّة، ويُسبِغ عليهم فضله، ويهديهم هداية تامة إلى الصراط المستقيم، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح.

وقد يُرزَق أقوام من حِدَّة الذكاء، واتِّقاد القريحة، ما يعلمون به كثيرًا من المعارف، ولكنهم يفتقدون الهداية المبصرة التي تنير للعبد طريق العمل، بسبب غفلتهم عن الاعتصام بربهم، واتّكالهم على قواهم.

وقد ضرب الله مَثَلًا يتجلَّى به هذا الأمر في معصية قد يُبتلَى بها بعض أهل الإسلام، وقد ينسلخ بسببها من الإيمان ويخرج من الإسلام، يقول جلَّ شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠٠ - ١٠١).

هاتان الآيتان جاءتا بعد آيات أقام الله بها الحجّة على أهل الكتاب، ووبّخهم على كفرهم، وتولّيهم عن الإيمان برسالة محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران: ٩٨ - ٩٩).

بعد ذِكر هذه الحُجَج، حذّر الله أهل الإيمان من طاعة أهل الكتاب، وأنّ هذه الطاعة قد تُوقعهم في الكفر به سبحانه؛ ولكنْ ثَمَّة أمور ثلاثة إنْ استمسكوا بها لم يقعوا في هذا الإثم العظيم:

أولها: تدبُّر آيات الله العظيمة التي تنير البصائر وتفتّح القلوب.

والثاني: وجود الرسول ﷺ المرشد إلى المصالح، الكاشف لافتراءات أهل الكتاب.

والثالث: الاعتصام بالله، واللياذ بحماه.

وهذا سبب الهداية إلى صراط الله المستقيم؛ بل إن هذا السبب الثالث هو سبب الانتفاع بالسببين الأوّلين.

وحين حذّر اللهُ المؤمنين من عاقبة المنافقين، وبيَّن خسارتهم في الدنيا والآخرة، لم يُوصِد أبواب المغفرة دون المنافقين، ولكنّه ندبهم وحثَّهم على تعاطي أسباب النجاة والثبات على طريق الهداية، فقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٤٥ - ١٤٦).

فالتوبة وإصلاح العمل والاعتصام بالله والإخلاص، أطواق النجاة التي مَدَّ إليها أبصارَ المنافقين، الذين هم أشدّ النّاس خسارًا، وأعظمهم جُرمًا.. وهذا منتهى الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفد ولا تحدّ، والمغفرة التي لا يوصَد لها باب، ولا يقف عليها بوّاب.[1]

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (أجمع العارفون بالله: على أنّ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٢/ ٦٧٨).

«الخذلان»: أنْ يكلك الله إلى نفسك، ويخلِّي بينك وبينها، و«التوفيق»: أنْ لا يكلك الله إلى نفسك).[1]

إذا وكلك الله إلى نفسك؛ لم تزل المعاصي تسلمك إلى معاصٍ مثلها أو أكبر، ولم تزل البصيرة يغشاها من الظلام والعمى ما يفقدها البصيرة كلها أو يكاد..

على أنّ الاعتصام بالله: يوفِّقك لفهم الدليل، ثم يوفِّقك للانتفاع به، ويوجِد في نفسك العزيمة على الرُّشد، والاجتهاد في العمل..

إنّ الاعتصام بمصدر القوة ومعطيها، يستثير في النفس كوامن القوة، بل ويوظِّف هذه الكوامن أحسن توظيف. كم تخيَّل أُناس عدم قدرتهم على فعل بعض الطاعات، أو على ترك بعض السيئات، وفي النفس على التحقيق: قوّة على العمل وقوّة على الترك، ولكنه الخذلان حينما يدع المرء الاعتصام بربه، والاحتماء بجنابه.. هل تظنُّ أهلَ الإيمان مُنِحُوا مِن القوى البدنية والفكرية ما يفوقون به سائر الناس؟

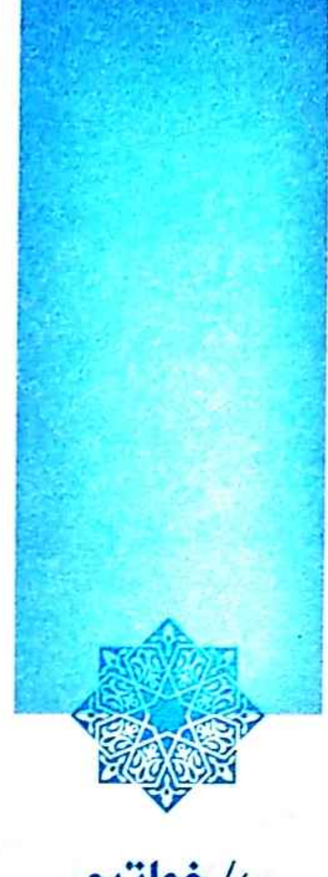
كلا، ولكن الذي نستيقنه أنَّه باعتصام المؤمنين بربّهم، وتوكُّلهم عليهم، وإخلاصهم له، وتزلّفهم إليه، حصل لهم مِن التوفيق والسَّداد ما لم يحصل لغيرهم، فأحسنوا توظيف القوى، واستعمال المهارات، وتوجيه المواهب،

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٥).

واستثمار القدرات، وتضرّعوا إلى ربهم الخالق القادر الذي بيده المقاليد، وإليه المنتهى والمعاد.

فلا تغفلنّ أخي عن الاعتصام بربك، واللجوء إليه؛ ليهديك، ويبصّرك، ويدلّك على الخير؛ إنّه على كل شيء قدير.





٤/ خواتيم

٤/ ١ منازل العبوديّة

٤/ ١/ ١ اليقظة

٤/ ١/ ٢ الفكرة

٤/ ١/ ٣ البصيرة

٤/ ١/ ٤ العزم

٤/ ١/ ٥ التّوبة

٤/١/١ **اليقظة**:

٤/ ١/ ١/ ١ قلق وانزعاج.

٤/ ١/ ١/ ٢ تذكُّر وانتباه.

١/١/١/٤ قلق وانزعاج

ذكر الإمام ابن القيِّم رحمه الله في كتابه النفيس «مدارج السالكين»، أربع منازل للعبودية الحقّة، التي من أكرمه الله بها، فقد ساق إليه خيرَي الدنيا والآخرة، ومن حرَمه إيّاها، فقد هلك في الدنيا والآخرة.. وهذه المنازل الأربع، هي:

١ - اليقظة.

٢- والفكرة.

٣- والبصيرة.

٤- والعزم.

وسنذكر في هذه المقالة وما يليها نُبَذًا من كلامه - مع التعليق عليه بما ييسِّره الله ﷻ..

▪ **المنزلة الأولى**: منزلة اليقظة:

يقول ابن القيم رحمه الله: «أوّل منازل العبوديّة: اليقظة، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه مِن رقدة الغافلين.

ولله ما أنفع هذه الرَّوعة؟!

وما أعظم قدْرَها وخطرَها؟!

وما أشدّ إعانتها على السُّلوك؟!

فمن أحسّ بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلّا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمّر لله بهمّته إلى السفر إلى منازله الأولى، وأوطانه التي سُبِيَ منها».[1]

وقد ذكر - أنوارًا لهذه اليقظة التي يسعد بها القلب المؤمن، وتستنير بها نفسه وجوارحه .. وأوّل هذه الأنوار: نظر القلب إلى النِّعمة..

والنظر إلى النعمة يتناول: التفكُّر في إنعام الله على العبد بها، والكثرة التي هي عليها بحيث تستعصي على العدّ ولا يُحَدّ لها حَدّ، وكذا شُكر المُنْعِم عليها، واستحضارها ودوام التذكُّر لها، والنظر في التقصير في الوفاء بحقها..

أما النَّظر الأول: فهو أنَّ الله ﷻ أنعم بهذه النِّعم على العباد ابتداءً من غير سابق استحقاق لها، فقد أخبر الحق ﷻ عن مخلوقات كثيرة ومتنوِّعة، وأنها خُلِقَت من أَجْلِ هذا الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٢ - ٣٤).

وتأمّل تكرار الضمير ﴿ لَكُمْ ﴾ ؛ حيث تكرّر خمس مرات للتأكيد على

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣٨).

إنعام الله على العباد بخلق هذه المخلوقات العظيمة: السموات، والأرض، والمطر، والثمرات، والفلك، والبحار، والأنهار، والشمس، والقمر، والليل، والنهار..

هذه نِعَم عظيمة لا يستطيع العبد أنْ يُحْصِيَها أو يَعُدّها.

وهي نِعَمٌ يَرْفُلُ فيها العبد صباح مساء، يتنعّم بها، ويستعين بها على قضاء حوائجه، فمنها ما يُلْتَذُّ برؤيته فيُبهجُ النّفْسَ بالنظر إليه، ومنها ما يُلْتَذُّ بأكله أو شُربه، ومنها ما يُتَفَكَّه به.

وهذه النِّعَم منها نِعَمٌ ظاهرة بادية، وباطنة خفيّة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

لله العجب! ماذا يساوي هذا الإنسان في خَلْق الله العريض الكبير؟!

«إنّ الأرض كلها لا تبلغ أنْ تكون ذرّة صغيرة في بناء الكون. والإنسان في هذه الأرض خليقة صغيرة هزيلة ضعيفة بالقياس إلى حجم هذه الأرض، وبالقياس إلى ما فيها من قوَى وخلائق حيّة وغير حيّة، ولكنه فضل الله على الإنسان، ونفخته فيه من روحه، وتكريمه له على كثير من خلقه، ثم أتبع الباري سبحانه هذا الفضل فضلًا آخر؛ فجعل لهذا المخلوق وزنًا في نظام الكون، وهيّأ له القدرة على استخدام الكثير من طاقاته وقواه، وذخائره وخيراته.

وقد سخّر الله لهذا المخلوق الإنساني ما في السموات، فجعل في مقدوره الانتفاع بشعاع الشمس ونور القمر وهَدي النجوم، وبالمطر والهواء والطير السابح فيه، وسخّر له ما في الأرض، وكل هذا ظاهر يسير ملاحظته وتدبّره.. ومع هذا كله فإنّ فريقًا من الناس لا يشكرون، ولا يذكّرون، ولا يتدبّرون ما حولهم، ولا يوقنون بالمُنعِم المتفضِّل الكريم».[1]

هذه النِّعَم تَستوجِب الشُّكر لمن أسداها، ومَنَّ بها؛ ولهذا ذكر الله فريضة الشكر مقرونة بتَعْدادِ النِّعَم ودَفْع النِّقَم في مواطن كثيرة من كتابه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: ٣٣ - ٣٥)، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل: ١١٤).

وقد شَهِدَ الله ﷻ لنبيِّه إبراهيم عليه السلام بصفة شُكر النِّعَم مقرونة بأعظم صفات العبوديّة والاستقامة والإمامة، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ (النحل: ١٢٠ - ١٢١).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٢).

وأظهر الله ﷻ نبيَّه سليمان عليه السلام على مملكة سبأ، وجيء إليه بعرش ملكتها، فلم يصرفه ذلك عن شكر الله والثناء عليه، بل إنه قدر أن هذه النعمة محل اختبار وامتحان له من الله؛ ليرى قيامه بفريضة الشكر أو عدم قيامه بها، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٣٨ - ٤٠).

ومن واجب العبد أنْ يكون دائم الذِّكر لنِعَم الله عليه؛ ليبقى شاكرًا لأنعُمه، شاعرًا بفضل الله عليه، مُعْتَرِفًا بضعفه وعجزه عن نفع نفسه بغير ما هيّأ الله له؛ ولهذا كرَّر الله ﷻ تذكير بني إسرائيل بنِعَمه عليهم في مواطن كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٠)، وقوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: ٤٧). وكذلك ذكّرهم موسى عليه السلام بتلك النِّعَم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ (المائدة: ٢٠).

وذكَّر اللهُ ﷻ نبيَّه عيسى عليه السلام بنِعَمِه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ... ﴾ (المائدة: ١١٠). وذكّر اللهُ ﷻ صحابةَ رسول

الله ﷺ بنِعْمَتِه عليهم بِصَرْفِ قُريشٍ عن مقاتلتهم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المائدة: ١١).



٢/١/١/٤ تذكُّر وانتباه

القلب اليقظ يُكثر مِن مطالعة ما فَرَطَ منه من الذُّنوب والسيئات؛ لأنّه يَعلمُ أنّه على خطر عظيم بسببها، وأنه مُشْرِفٌ على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحقّ بموجب حقِّه..

وقد ذمّ اللهُ تعالى في كتابه من نسي ما قدّمت يداه، فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف: ٥٧).

يخبر تعالى في هذه الآية: «أنّه لا أعظم ظلمًا، ولا أكبر جُرمًا، مِنْ عبد ذُكِّر بآيات الله، وبُيِّن له الحقّ من الباطل، والهدى من الضّلال، وخُوِّف ورُهِّب ورُغِّب، فأعرض عنها، فلم يتذكَّر بما ذُكِّر به، ولم يرجع عمّا كان عليه ﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من الذُّنوب، ولم يراقب علّام الغيوب؛ فهذا أعظم ظلمًا مِن المُعرِض الذي لم تأته آيات الله، ولم يُذكَّر بها، وإنْ كان ظالمًا فإنّه أخفّ ظلمًا من هذا؛ لكون العاصي على بصيرة وعِلْم أعظم ممّن ليس كذلك، ولكنّ الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشرّ مع علمه بها بأنْ سَدَّ عليه أبواب الهداية فجَعلَ على قلبه أكنّة - أي: أغطية مُحكَمة - تمنعه أنْ يفقهَ الآيات، وإنْ سمعها فليس في إمكانه فقهها الفقه الذي يصل إلى القلب، ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي: صَمَمًا يمنعهم من وصول الآيات، ومِن سماعها على وجه الانتفاع،

وإنْ كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ لأنّ الذي يُرجَى أنْ يُجيب الداعي للهُدى مَن ليس عالمًا إذْ عصى، وأمّا هؤلاء الذين أبصروا ثم عَمُوا؛ رأَوْا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، فعاقبهم الله بإقفال القلوب والطَّبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علِمه، أنْ يُحالَ بينهم وبينه، ولا يتمكّن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مُرْهِب، وزاجِر عن ذلك.[1]

إنَّ لِتَذَكُّرِ الذّنب والجناية فائدة كبيرة، وهي أنها تولِّد العزم لاستدراك ما فات، بالعلم الصحيح والعمل الخالص، والخروج من وَهْدَةِ المعصية إلى نور الطاعة بالندم والاستغفار، وكثرة الذِّكر لله ﷻ والتوبة الصادقة..

فبهذه الأحوال من اليقظة، تزول -بإذن الله وتوفيقه- آثار تلك الذنوب والمعاصي، فيطِيب القلب، ويتطهّر من الأوضار.

وكما أنّ طهارة البدن الظاهرة شرط في الدخول في عبادة الصلاة مثلًا، فإنّ طهارة القلب الباطنة شرط في دخول جنّات النّعيم، كما دلّ على هذا الشّرط قول الحقّ ﷻ في خطاب الملائكة لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣)، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢) فأهل الجنّة قوم «طاهرون مطهَّرون من كل نقصٍ

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص٤٨١).

ودَنَس يتطرَّق إليهم، ويُخِلّ في إيمانهم؛ فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته، وألسنتهم بِذِكْرِه والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه».[1]

فالجنّة دار طيِّبة، ولا يليق بها أنْ تستقبل غير الطيّبين..

فإذا تذكّر العبد جنايته، انصرف إلى تحصيل طهارة قلبه من طرق ثلاثة:

- التوبة والاستغفار.
- وعمل الحسنات الماحية.
- والصبر على ما يبتليه الله ﷻ به من المصائب والآلام.

حتى تكون هاته الثلاث طرقًا وأسبابًا في تكفير ذنبه، وتمحيص قلبه، وتطهير دنسه.

ويُوجِب التذكُّر للجناية التي فَرَطَتْ مِن العبد، أنّه لا يدري لعلّ توبته لم تكن صادقة، أو أنّ استغفاره لم يقع على الصفة النافعة، أو أنّ أعماله التي ظاهرها الصلاح لحقها ما ينفي أو يُضعِف أثرها، فلا تَقْوَى على التكفير لسابق سيّئاته..

وعلى كُلٍّ؛ فإنّ حُضور ذنبه السابق في ذاكرته سائق له إلى الاستكثار من العمل الصالح، وذلك محمود، ما لم يصل إلى قُنوط من رحمة الله، أو يأس من عفوه.

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص٤٣٩).

وهناك نورٌ آخر، ومرتبة عُليا من مراتب اليقظة، ذكرها الهرويُّ في «منازل السّائرين»، قائلًا: «إنَّ من أعلى مراتب اليقظة: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان في الأيام، والتنصُّل عن تضييعها، والنظر إلى الضَّنِّ بها؛ لتدارك فائتها، وتعمير باقيها».[1]

وأهميّة هذا النُّور للعبد مِن حيث إنّه يكشف له ما معه من الزِّيادة والنُّقصان، فيتدارك ما فاته في بقيّة عمره، ويبخل بساعاته - بل بأنفاسه - عن ذهابها ضياعًا في غير ما يُقرِّبه إلى الله، فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس، مع تفاوتهم في قدره قلّةً وكثرة؛ فكُلّ نَفَس يخرج في غير ما يُقرِّب إلى الله، فهو حسرة على العبد في معاده، ووقفة له في طريق سيره، أو نَكْسة إذا استمر، أو حجاب إنْ انقطع به.[2]

لكن يبقى تساؤل مُلِحّ، وهو: كيف يعرف العبد زيادته مِن نقصه، حتى يُشَمِّرَ للتّدارك في حال النقص، ويسعى للكمال في حال الزيادة؟

وقد جعل الإمام ابن القيم رحمه الله لذلك طريقين وعلامة؛ فبالطريقين: يصل إلى معرفة الزيادة والنقص، وبالعلامة: يعرف حصول ذلك الكمال أو النقص في نفسه.

أما الطريقان: فأولهما: العلم، قال -: «**إنّ السالك على حسب علمه**

(١) انظر: منازل السائرين للهروي (ص١٢)، مدارج السالكين (١/ ١٦١).
(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ١٦١ - ١٦٢).

بمراتب الأعمال، ونفائس الكسب، تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه».

ومعنى ذلك: أنّ العلم هو الذي تُعرف به الأعمال المشروعة. وفِعل المشروعات هو طريق الزيادة؛ فمَن قلّ علمه بأنواع المشروعات كيف يفعلها؟!

واعتبِر بحال من زادت معرفته بأنواع الأذكار مثلًا، كيف يُصبح ذاكرًا لله في كل أحواله: في قيامه، وقعوده، ونومه، ويقظته، ودخوله، وخروجه، وغير ذلك. ومَن حُرِمَ ذلك يبقى عامَّة يومه لا يحرِّك لسانه بأذكار إلّا على حين فَتْرة.

وبالعلم يُدرِكُ مراتب الأعمال؛ فالعالِم هو الذي يختار نفائس الأعمال، وأعظمها أجرًا وأكثرها عائدة. ومَن نَقَصَ عِلمُه ربّما اشْتغلَ بمفضولٍ مع قدرته على الفاضل، وهكذا.

والطريق الثاني: صُحبة أرباب العزائم، المشمّرين إلى اللِّحاق بالملأ الأعلى؛ فإنّ صُحبتهم تُعرِّف الإنسان نقص نفسه؛ فصحبة الذّاكِر الشّاكر، تكشف لك نقصك في الذِّكر والشُّكر، وصُحبة الصابر العابد توضِّح لك مرتبتك في هذا الأمر، وهكذا بقيّة الأحوال. وعكس ذلك صُحبة البطّالين المقصّرين، تُغرِيك بالبقاء على ما أنت عليه في أحسن الأحوال، والغالب أنها تجرّك إلى نقصهم، وتدفعك إلى مشاكلتهم، فتنزل إلى مراتبهم، وتنحدر إلى تقصيرهم..

أمّا العلامة التي يُعرَف بها نقص إيمانك وزيادته: فهو تعظيمه لحرماتِ الله في الجانب الإيجابيِّ: بالمسارعة إلى أداء الواجبات، وفي الجانب السلبيِّ: بانقماعه عن مقارفة السيئات.

والمقصود مِن كل هذا: أنْ يحرصَ المرء على يقظة قلبه، ويحرصَ على أنْ لا تستولي الغفلة عليه، والنسيان على قلبه، فمَن كان يقظ القلب، كان أسرع إلى كل خيرٍ، وأبعد عن كل شر.



٢/٤ الفكرة

▪ **المنزلة الثانية**: منزلة الفكرة:

قال ابن القيم رحمه الله: «الفكرة فكرتان:

فكرة تتعلّق بالعلم والمعرفة.

وفكرة تتعلّق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلّق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي.

والتي تتعلق بالطلب والإرادة: هي الفكرة التي تميّز بين النّافع والضّارّ.

ثم يترتّب عليها فكرة أخرى في الطّريق إلى حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلى ما يضر فيتركها. **فهذه ستّة أقسام لا سابع لها، هي مجال أفكار العقلاء**»[١].

قلت: كثرت الآيات في الكتاب الكريم التي تحضُّ على التفكُّر، وتلفت النظر إليه؛ سواء كان ذلك بلفظ: طلب النّظر، أو التعقُّل، أو التدبُّر، أو الرؤية، أو غير ذلك من المصطلحات التي تفيد هذا المعنى. فإنّ حياة القلب وغذاءه هذا الجولان الفكريّ الذي يُثمر أحوال الإيمان المتعدّدة. وسنقتصر هنا على الآيات الدائرة على لفظ التفكُّر.

فقد افتُتحت «سورة النحل» بآياتٍ كثيرة، نَدَبَ اللهُ فيها العبادَ إلى النظر

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٦٤).

في ملكوته؛ ليدركوا تفرّده ﷻ بالرُّبوبيّة، ومن ثمّ تفرّده بالألوهيّة الحقّة دون سواه، قال عزّ من قائل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤ - ١٧).

ثم ذكر الله ﷻ الليل والنهار، والشمس والقمر، والبحر والسفن، والجبال والنجوم.. ثم قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤ - ١٧).

ثم بعد قليل ذَكَرَ اللهُ ﷻ آيات أخرى، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٦٦ - ٦٩).

ثم ذكر الله ﷻ المراحلَ العُمريّة التي يمر بها الإنسان، والتفضيلَ بين النّاس في الأرزاق، ونِعمة الأزواج والبنين والحفَدة: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٠ - ٧٢).

وختم ذلك كلّه بقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٧٣ - ٧٤). أي: لا تجعلوا لله أشباهًا تشركونهم به؛ إنّ الله يعلم أنْ لا مِثل له، وأنتم لا تعلمون.

فإذا تفكّر العبد في كل هذا، استنارت حقيقة الربوبية والألوهية في قلبه، فأحبّها، والتذّ بتعبُّده لربّه، وكان على يقين كامل بذلك.

وجاء الحضُّ على التفكُّر في شأن الرّسول ﷺ؛ ليصل العبد بهذا التفكُّر إلى صدق نُبوّته صلوات الله وسلامه عليه، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٤).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

(سبأ: ٤٦)، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: ٥٠).

ومن مجالات التفكُّر:

- **التفكُّر في شأن الكتاب العزيز «القرآن الكريم»؛** في قوّةِ حُجّته، ووضوحِ بيانه، وكثرةِ أدلّته، وإعجازِ نَظْمِه، وعظمةِ تأثيره؛ ولذا لفت الله النظر إلى التفكُّر في شأنه، فقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١). وإنّما وصف القرآن بذلك؛ «لكمال تأثيره في القلوب؛ فإنّ مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه مُحتوية على الحِكَم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلُّف، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد. ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال لأجل أنْ يتفكّروا في آياته ويتدبروها؛ فإنّ التفكُّر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبيّن له طريق الخير والشر، ويحثّه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيَم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القرآن، والتدبُّر لمعانيه»[1].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص٨٥٣ - ٨٥٤).

- ومن التفكُّر المشروع: «التدبُّر في نفع الأشياء وضرّها»؛ فإنّ الله ﷻ أباح منها ما كثر نفْعه، وحرّم منها ما غلب ضرره، ومن أمثلة ذلك قول الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٩).

ولمّا حَرَّمَ الله ﷻ المراءاة في الصّدقة، بيّن سبب ذلك وأنها تُحبط العمل وتُذهب أجره، وضرب لذلك مثلًا يدعو إلى التفكُّر والتعقُّل لهذه الحقيقة؛ ليُشْرَبَ القلب محبّة الإخلاص، ويُبَغَّض إليه مقارفة الرياء، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

- ومن مجالات التفكُّر التي يحيى بها القلب، ويستنير بها الفؤاد: «التفكُّر في شأن الدُّنيا وزوالها، والآخرة وبقائها»، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٢٤).

وإجمالا: التفكُّر: طريق الهداية والمعرفة، وطريق الثبات والدوام على

النَّهج الأقوم، وطريق الترقِّي والكمال في معارج الإيمان.. فمن طال تفكُّره: كثر عمله، وزكت نفسُه، وزاد من الخير رصيده.



٣/٤ البصيرة

▪ **المنزلة الثالثة:** منزلة البصيرة:

هذه البصيرة: إنما يُرزقها من أدام النظر في آيات الله التي أنزلها على رسله، وآياته التي بثّها في الوجود من حوله، وكل هذه الآيات من الوضوح والسطوع والظهور ما يكفي للقناعة بها، والانقياد إليها، والرغبة في اتباعها.

وقد عَجِبَ اللهُ في مواطن كثيرة من كتابه الكريم من إعراض المشركين عن اتِّباع الرسول ﷺ، وإصرارهم على الافتراء والكذب على الله ﷻ مع وضوح حُجَّته وشِدّة ظهورها، يقولُ عزَّ مِن قائل: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٠ - ١٠٤).

فهؤلاء الذين عبدوا مع الله غيره من الجنّ والملائكة، وافتروا عليه، فنسبوا إليه البنين والبنات؛ لم يتفكّروا ولم يتبصّروا، ولم يتأمّلوا في آيات

الله التي أنزلها على رسوله، وهي أدلّة واضحة الدلالة على الحقِّ في جميع المطالب الدينيّة والدنيويّة. هذه الأدلة لا يزيغ عنها مَن يزيغ إلّا بسبب اتّباع الهوى؛ ولهذا عقّب الله وصفها بالوضوح والظهوربقوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾. فآيات الله «تُبيِّن الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار؛ لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ وبيانه ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة؛ لأنها صادرة من الربِّ الذي ربَّى خلقه بصنوف نِعَمِه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلِّها تبيين الآيات، وتوضيح المشكلات، فمن أبصر بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها فلنفسه؛ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد، ومَن عمي بأنْ بُصِّرَ فلم يتبصَّر، وزُجِرَ فلم ينزجر، وبُيِّنَ له الحق فما انقاد له ولا تواضع؛ فإنّما عماه مضرّته عليه»[١].

وكما أنّ آيات الله المقروءة واضحة كالشمس في دلالاتها، فكذلك آيات الله الكونيّة مثلها؛ فالنظر فيها يُولِّد البصيرة، قال تعالى في «سورة القصص»: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص: ٧١ - ٧٢).

---

(١) تفسير السعدي (ص٢٦٨).

وفي «سورة ق»، يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق: ٦ - ٨).

وفي «سورة الذاريات»، يقول ﷻ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠ - ٢١).

وقد يغشى هذه البصيرة نوعٌ من الظُّلمة أحيانًا بسبب المعصية والغفلة، ولكنّ هذه الظلمة ما تلبث أنْ تنقشع، ويعود للقلب نوره وبصيرته حين يرجع إلى ربِّه، ويُداوي قلبه بالنظر في آياته، كما أشار الله إلى ذلك قول الحقّ ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١).

وقد اشتملت الآية على حالَين للعبد:

- **الحال الأولى:** حين يوسوس له الشيطان بفعل معصية، أو ترك واجب من واجبات الشريعة؛ فعليه في هذه الحال: أنْ يسارع إلى الالتجاء إلى الله، والاحتماء بحماه.

وقد أغراه الحق سبحانه بهذا الالتجاء؛ بتذكيره بأنّ الله سميع عليم، يسمع التجاءه، ويعلم حاله، فإنْ التجأ إليه بصدقٍ حَماهُ من هذه الوساوس، وأنقذه مِن هذا النوازغ.

- **والحال الثانية للعبد:** «أنْ يغفل، وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطًا ينتظر غرّته وغفلته، فذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأنّ المتقِي إذا أحسّ بذنبٍ، ومسّه طائف من الشيطان، فأذنب بفعلِ مُحرَّم أو ترك واجب، تذكّر من أيِّ بابٍ أُتِيَ، ومن أيِّ مَدخلٍ دخل الشيطان عليه، وتذكَّر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصرَ واستغفر اللهَ تعالى، واستدركَ ما فَرَطَ منه بالتوبة النصوح، والحسنات الكثيرة، فردّ شيطانه خاسئًا حسيرًا، وقد أفسد عليه كل ما أدركه منه».[1]

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

«**والبصيرة على ثلاث درجات، من استكملها فقد استكمل البصيرة:**

- بصيرةٌ في الأسماء والصفات.
- وبصيرة في الأمر والنهي.
- وبصيرة في الوعد والوعيد».

ثم شرح ذلك بأنّ «**البصيرة في الأسماء والصفات**» يكون بكمال التصديق بها، ودفع الشكوك والشُّبَه المعارِضة لهذا التصديق. وأنّ التفكُّر والنظر في هذه الأسماء والصفات للباري ﷻ من علمه وإرادته، وسمعه وبصره، وحكمته ولطفه، وعدله وجبروته، وربوبيته وإلهيته، وغير ذلك من الأسماء والصفات الثابتة له؛ أحسن غذاء للقلب وأتمّه.

(١) تفسير السعدي (ص٣١٣).

وكلما ازداد العبد معرفةً بأسماء الله وصفاته، زاد حظُّه من البصيرة، وارتاح قلبه من الاعتراضات، وسكنت نفسه إلى رحمة الله وعلمه، وحكمته وسائر أسمائه وصفاته.

والدرجة الثانية: «البصيرة في الأمر والنهي»، وذلك بدفع أنواعٍ ثلاثة من المفسدات:

الأول: ارتكاب التأويل للتحايل على أحكام الشرع؛ إمّا لتسويغ اعتقاد حِلّ ما حُرِّم، أو لتسويغ طريقة يَظُنُّ بها المكلَّف أنه خرج عن موجِب التحريم إلى دائرة الحلِّ بحيلةٍ فاسدة لا أثر لها عند التحقيق.

والثاني: اتباع الهوى، ورغبة النفس في تلك المحرَّمات.

والثالث: التقليد والمحاكاة.

والدرجة الثالثة: «البصيرة في الوعد والوعيد»، وذلك بالتصديق بها، واليقين بحصولها، واعتقاد أنها مقتضى الربوبية والألوهية؛ ولذا كان التكذيب بالوعد والوعيد صِنْو التكذيب بوجود الله ﷻ، أو الشِّرك به في العبادة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (الرعد: ٥).[1]



(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ١٣٩ - ١٤٢).

٤/٤ العزم

من منازل العبودية الأربع التي لا يستقيم أمر التعبُّد إلّا عليها: «منزلة العزم»، وذلك بعد منزلة: «اليقظة»، و«الفكرة»، و«البصيرة»..

فبعد أنْ يستفيق المرء من غفلته، ويُجيلَ نظره، ويتفكّر في أمره والمخلوقات من حوله، ويستنير قلبه بمعرفة الحقائق: يعقد العزم، فيجزم جزمًا لا يؤخّره إلّا نقص الأدوات، أو قلّة الإمكانات، يَعزِمُ على فِعل الصّالحات التي شرعها المولى للعباد؛ ليقربوا منه، ويزدادوا زلفى لديه.

ولقد أرشد القرآن الكريم إلى سلوك العزم بعد استنفاد النّظر والتأمُّل في الأمر، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وسمَّى الله ﷻ طائفةً مِن رسُله بـ: «أُوْلِي العزم»، فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

إنَّ أمور الطاعات لا بُدَّ أنْ يجد المكلَّف فيها شيئًا مِنَ المشقَّة، وإنما يستعين على التغلُّب على هذه المشقّة أو تلك، بالعزيمة الصادقة الماضية؛ ولهذا وصف الله ﷻ مسالك الدفع للمشقات بأنها «عزم الأمور»، فقال ﷻ: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦)، وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(لقمان: ١٧)، وقال أيضا: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الشورى: ٤٣).

فجعل: الصبر، والتقوى، والمغفرة - من عزائم الأمور..

فالعزيمة الصّادقة: هي التي تستصحب هذه الأدوات الدافعة، فهي معها بمنزلة السّلاح مع المقاتل، فمَن ظنّ أنّه بِمُجَرّد عَزْمِه يتحقّق له ما يريد، فهو على وَهْم من أمره؛ ولهذا كان المصطفى ﷺ يدعو ربّه ويُعلِّم أُمّته أنْ يسألوا ربّهم أنْ يرزقهم العزيمة ؛ ولكنها ليست أيّة عزيمة، إنّها العزيمة التي تحثُّ على الخير، وتهدي إلى سبيل الرّشاد، فعن شَدَّاد بن أَوْس أن رسول الله ﷺ كان يقولُ في صلاتِه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ**». الحديث.[1]

وفي الاقتران بين الثبات على الأمر والعزيمة على الرشد، معنًى بديع؛ فإنّ الثبات على الطاعة والتقوى يحتاج إلى عزيمة تدفع إلى فعل أسباب الثبات، والحذر من أسباب الزيغ..

ومعنًى آخر، وهو أنّ المؤمن الحريص على إيمانه، لا تحدِّثه نفسه بالبقاء

---

(١) رواه أحمد (١٧١١٤)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٤)، وابن حبان (٩٣٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٧٩)، والحاكم (١/ ٦٨٨) وصحّحه من حديث شدّاد بن أوس. وهو حديث (حسَن بطرقه)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٣/ ٧٤-٧٧) وذكر طرقه، ثم قال: إنّها يُقوّي بعضُها بعضًا ممّا يمتنع معها إطلاق القول بضعف الحديث، وإنّما صحّحه ابن حبان والحاكم؛ لأنّ طريقتهما عدم التفرقة بين الصحيح والحسن.

على منزلته التي وصل إليها، وإنْ كانت حقًّا، حتى تنازعه نفسه إلى الترقِّي إلى ما فوقها مِن أمور الرَّشاد، فهو مع ثباته دائم التطلُّع إلى خيرٍ مِن منزلته.

لقد كان المصطفى ﷺ يلجأ إلى ربِّه في دَفع جملة من الأدواء النفسيّة التي تُكدِّر على النفس صفوها، وتعوقها عن سيرها، وتشغلها بما لا ينفعها.. ومن جملة تلك الأدواء، داء العجز الذي هو الضِّد لصفة العزم، فقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ وَالجُبْنِ وَالهَرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ**».[1] وفي لفظ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**».[2]

فانظر! كيف جعل العجزَ قرينًا: للهمِّ والحزَن والكسل والجبن والبُخل وثِقَل الدَّين وغلبة الرجال؛ فإنها أدواء إذا مُنِيَ العبد بها - والعياذ بالله - حالت بينه وبين كثير من أسباب الخير.

العزائم الراشدة صفات المتّقين الأبرار.. ومن ذا الذي يريد من ربِّه أنْ يرضى عنه، ويرفع مقامه لديه، وهو حبيس عجزه وكسله؟!

هل كان للإسلام أنْ يَعُمَّ، وللرسالة أنْ تنتشر: لو رَكَنَ الرَّعيلُ الأوّلُ

---

(١) رواه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٣ و٥٤٢٥ و٦٣٦٣ و٦٣٦٩).

وقوله: (ضَلَع الدَّين): الضَّلَع بفتح المعجمة واللام، أي: ثِقَل الدَّين وشدّته. النهاية (٣/ ٩٦)، الفتح (١١/ ١٧٤).

إلى دنياهم؟! أو استروحوا إلى أوطانهم؟! أو ارتموا في أحضان شهواتهم؟! أو استعبدتهم أموالهم؟!

لو كانوا كذلك؛ ما عرفت البشرية رسالة، ولا أبصرت نورًا، ولاسْتبدل الله بهم قومًا آخرين، يرضى عنهم، وينصر بهم دينه؛ ولهذا كان -صلوات الله وسلامه عليه- يَحُثُّ ويُحَرِّضُ صحابته الكرام على تحصيل معاني القوة المباركة والنأي عن معاني العجز، فقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا». وَلَكِنْ قُلْ: «قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».[1]

فقد نَدبَ -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- المؤمنَ إلى الحرص على ما ينفعه، وهذه أوّل درجات العزم، ثم الاستعانة بالله في تحقيق المراد، ثم البعد عن العجز بالانقطاع عن العمل، أو تحديث النفس بالوقوف في أثناء المسير.

وكان من أساليبه ﷺ في غرس العزم في النفوس، تصويره للعجز بصورةٍ تَنفُر منها النفس، ولا يحب المرء أنْ يتلبّس بها، ومن أمثلة ذلك: ما رواه سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟». فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ».(١)

وإذا كان العزم محمودًا عند وجود سببه المقتضي له، وذلك ظاهر؛ فإنّه محمودٌ أيضًا حتى عند عدم سببه إذا كان يُقدِّر الحاجة إليه مستقبلًا، وفي الدلالة على هذا ما رواه عقبة بن عامر ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ: « ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، قَالَ: **«أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - أَلَا إِنَّ اللَّهَ سَيَفْتَحُ لَكُمُ الأَرْضَ، وَسَتُكْفَوْنَ الْمُؤْنَةَ، فَلَا يَعْجِزَنَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ».**(٢)

فانظر كيف جعل -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- ترك اللهو بالأسهم ومزاولة الرَّمي والتلبُّس المستمر بأسباب القوّة، من العجز المنهيّ عنه، لا سيّما عند فتح البُلدان، وتوسُّع السلطان، وكفاية مؤنة القتال، وغير ذلك مِن مظاهر القوّة والغلبة التي قد تدفع بالإنسان إلى الاسترواح إلى السكون والدَّعة!

مِن أجل ذلك أيقظ النبيُّ ﷺ ضميرَ الأُمّة وعقلَها، ونبَّه أفئدتَها إلى ضرورة ترك العجز حتّى عند توافر أسباب النصر، وضرورة أخذ هذه الأُمّة بجميع أسباب القوّة التي تقدر عليها حال المنشط والمكره؛ فإنّها

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٨).

(٢) رواه مسلم (١٩١٧ و١٩١٨)، والترمذي (٣٠٨٣) والسياق له.

أُمّة محسودة على ما أتاها الله من الخير، ويوشك أعداؤها أنْ يُغِيرُوا عليها، وهي قبل ذلك أُمّةُ رسالة تُبلِّغُ للعالمينَ رسالة ربّهم؛ فهي مُحتاجة لدفع مَن يقفون حجَر عثرة دون تبليغ الخلق رسالة الخالق.

بل إنّ النبيَّ ﷺ كره للإنسان أنْ يبرِّرَ عجزه وكسله، بدعاوى ليس لها رصيد من الواقع، كدعوى التوكُّل على الله ونحو ذلك، مع عدم فعل الأسباب، يقول عوفُ بنُ مالك: قَضَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»**.(١)

والكَيْس: هو التيقُّظُ في الأمور، والبدار إلى التدبير والمصلحة بالنظر إلى الأسباب، واستعمال الفكر في العاقبة؛ يعني: كان ينبغي لك أنْ تتيقَّظ في معاملتك، فإنْ غلبك الخَصمُ، قلتَ: «حَسْبِيَ اللَّهُ»، وأمّا ذِكْرُ: «حَسْبِيَ اللَّهُ» بلا تيقُّظٍ كما فعلتَ، فهو من الضّعف، فلا ينبغي.(٢)



---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٨٣)، أبو داود (٣٦٢٧)، والنسائي في السنن الكبير (١٠٣٨٧)، من طريق خالد بن معدان، عن سيف، عن عوف بن مالك، به. وسيفٌ، هذا، ذكره العجلي وابن حبّان وابن خلفون في الثقات، وقال النسائيُّ: (لا أعرفه). وقال الذهبيُّ في الميزان (٢/ ٢٥٩): (شاميٌّ، لا يُعرَف، تفرّد عنه خالد بن معدان). انظر: الثقات للعجلي (١/ ٤٤٦) ولابن حبان (٤/ ٣٣٩) وابن خلفون - بواسطة الإكمال لمغلطاي (٦/ ١٩٨) -.

(٢) انظر: عون المعبود (١٠/ ٤٠).

٤/٥ التّوبة

٤/ ٥/ ١ دمعة وندم.

٤/ ٥/ ٢ حديث وتأمُّل.

٤/ ٥/ ٣ معرفة وشُكر.

٤/٥/١ دمعة وندم

من المقرَّر شرعًا وواقعًا: أنّ العبد يقع منه الذنب، وتَفرُط منه المعصية، ويستزلّه الهوى، وتغويه الشُّبهة، وتغريه الشهوة.

وقد وصف الله ﷻ أبانا آدم عليه السلام بأنّه عصى، فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١).

وكل إنسان يدرك هذا الأمر من نفسه إدراكا بيِّنًا لا يحتاج معه إلى إقامة دليل، بَيد أنّ هذه الحقيقة تصحبها حقيقة أخرى، وهي أنّ القلب الصّادق الذي أَلِفَ محبّةَ الله، وأَنِسَ بقُربه، ما إنْ تزلّ به القدم حتى تعتريه الوحشة من فعله الذي فعل، ويقشعر جلده من صنيعه الذي صنع، ويستولي على قلبه عظيمُ النَّدم. هذا الندم أحد أركان التوبة، بل هو «أصلها وركنها الأعظم»[١]؛ ولذا قال النبيُّ ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ».[٢]

وإنما يحصل هذا الندم حين يعظم في قلب العبد ذنبه، فيشعر بأنه يفقد بذلك الذنب جُزْءًا مِن دِينه، ودِين المؤمن أغلى عليه من كل شيء حتى مِن نفسه، وكلّما غلا الشيء عند الإنسان حَزِنَ لفقْده، ونَدِم على التفريط فيه حين

---

(١) كما قال النووي في شرح مسلم (١٧/ ٥٩).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٤٤)، وأبو داود الطيالسي (٣٨٠)، وأحمد (٣٥٦٨ و٤٠١٢ و٤٠١٤ و٤٠١٦ و٤١٢٣)، وابن ماجه (٤٢٥٢)، وابن حبان (٦١٢ و٦١٤)، والحاكم (٤/ ٢٧١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد). وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٧١): (حديث حسن).

ضاع منه، كما هو الفرق بيِّنًا بينَ مَن فقَد ريالًا واحدًا، ومَن فقَد ألف ريال.

وفي التأمُّل في قصّة النَّفَر الذين تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك[1]، أعظم عبرة لمن أعطى البصر حقّه، لقد نَدِمَ الثلاثة:

كعب بن مالك، ومُرَارَة بن الربيع، وهلال بن أُمَيَّة - على ما حدث منهم؛ فاستكنّ هلال ومُرَارَة في بيتيهما يبكيان على الخطيئة، ويعتزلان الناس، وأمّا كعب فكان جَلْدًا يخالط الناس، ولكنه كان يعيش عَيشة الندم التي صوّرها بقوله: «**ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**».

كان يمكن هؤلاء الثلاثة أنْ يختلقوا عُذرًا -كما فعل المنافقون-، فيُعذَرون ويَبدون أمام الناس أبرارًا صالحين، ولكنهم ما أرادوا لأنفسهم صورةً خادعة، أو حالةً مُدَّعاة. إنهم أذنبوا عن إصرارٍ، فليكن لهم في الصدق مع الله والندم على عصيانه، ما يرحمهم الله به، ويُسبل عليهم ستره.

فلما بلغ الندم من نفوسهم ما بلغ، وأحرق مِن أوضار الخطيئة ما أحرق، جاءت آيات البشرى تُكفْكِفُ دموعَ الحُزن، وتَسْكُبُ العفوَ على القلوب المَشُوْقَةِ إلى رحمة ربها اشتياق الأرض إلى مطر السماء بل أعظم: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

---

(١) القصّة رواها البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة ١١٧ - ١١٨).

ولكن إنّما يعتري الندم القلوب الحيّة التي تدرك قَدْرَ الخسارة الإيمانيّة بسبب الذنوب؛ ومن هنا قال الإمامُ الحسنُ البصريُّ - معلِّقًا على قصَّةِ النَّفَر الثلاثة: «**يا سبحان الله! ما أكل هؤلاء الثلاثة مالًا حرامًا، ولا سفكوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يُواقع الفواحش والكبائر؟!**»[(١)].

والنَّدم الصادق: هو الذي يجر إلى الاعتذار إلى الله، وإظهار الافتقار إليه، والانطراح بالتوبة بين يديه، كنحو قول القائل: «**يا رب! لم يكن منِّي ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلًا به، ولا إنكارًا لاطّلاعك، ولا استهانة بوعيدك؛ وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشّهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتّكالًا على عفوك، وحسن ظنٍّ بك، ورجاءً لكرمك، وطمعًا في سَعة حلمك ورحمتك. وغرّني بك الغرور، والنّفس الأمّارة بالسُّوء، وسترك المرخى عليّ. وأعانني جهلي. ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلّا بك، ولا معونة على طاعتك إلّا بتوفيقك**»..

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٩٠٤). وانظر: فتح الباري (٨/ ١٢٣)، صحيح السيرة النبوية (ص٤٩١).

ونحو هذا من الكلام المتضمّن للاستعطاف، والتذلُّل والافتقار والاعتراف بالعجز، والإقرار بالعبودية؛ فهذا من تمام التوبة، وإنّما يسلكه الأكياس المتملّقون لربِّهم ﷻ، والله يحب من عبده أنْ يتملَّق له.[1]

وبعكس هذه الحال الحسنة للقلب الحي:

حال ذلك القلب الميّت الذي يفرح باقتراف المعصية، ويغتبط بمزاولة الشهوة المحرّمة؛ فإنّ ذلك الفرح وتلك الغبطة دليل جهله بقدْر من عصاه، وجهله بعاقبة ذنبه، وعِظَم خطره عليه.

والمؤمن الفَطِن لا يستهين بمعصيةٍ أبدًا؛ فربما استهان بها فأوبقت عمله، كما في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ. وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».[2] وفي رواية: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»[3]

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «ومتى خلا قلبه من هذا الحزن، واشتدّت غبطته وسروره، فليتّهِم إيمانه، وليبك على موت قلبه؛ فإنّه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكاب الذنب، وغاظه وصعب عليه. فحيث لم يُحِسَّ به، فما لجرح

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٠٣).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٨).

(٣) رواها مسلم (٢٩٨٨).

بميّتٍ إيلامُ. فإذا اشتدّت غفلته إلى هذا الحدّ، نقلته ولا بُدَّ إلى الإصرار، وهو الاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة، وذلك ذنبٌ آخر، لعلّه أعظم من الذنب الأوّل بكثير. وهذا مِن عقوبة الذنب: أنْ يُوجِب ذنبًا أكبر منه، ثم الثاني كذلك، ثم الثالث كذلك حتى يستحكم الهلاك»[1]

قلت: وشاهد ذلك ما ذكره الله عن أقوامٍ ضلّت قلوبهم -والعياذ بالله-، فلم يبرحوا ساحات المعصية، ولم يجاوزوا ميادين الخطيئة، قال جلّ شأنُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ١٣٧).

هذه القلوب التي تضطرب، فتدخل في الإيمان ثم تخرج إلى الكفر، وتزداد كفرًا، وتزداد من أعماله، ما كان ليسكنها النّدم، ولا تعتري أصحابها خشية الله ﷻ.

وإذا لم يوجَد الندم في القلب، جرّ عليه مع الإصرار على المعصية معصية أخرى، وهي أنْ ينتقل مِن الاسْتتار بالمعصية إلى المجاهرة بها بين الناس، وذلك ذنب أعظم من الذنب الأول، وهو حقيق حينئذ بأنْ تُطمَس بصيرتُه، وتَشتدّ ظُلمتُه؛ وقد روَى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ**».[2]

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٠١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٩).

والمجاهرون قوم لا يحتفلون باطِّلاع الربّ ﷻ على معاصيهم، ثم هم لا يبالون بهتك ستر الله ﷻ عليهم؛ لرقَّة دِينهم، وقلّة حيائهم؛ ولذا وجب أنْ يَتفطّنَ الموفَّق لنفسه، وإنْ غلبته شهوته فوقع في شيء من المعاصي، فلا يستحسن ما وقع فيه، ولا يَلْتَذّ بها أدركه؛ وإنَّما يتعاهَد نفسه دائمًا بالتوبة، ويُصلِحها بالنَّدم ويداويها بالتدارك، والعزم على عدم العودة إلى ما قدّم من ذنب وما اقترف من إثم، وأنْ يستحضر في نفسه وقلبه وروحه عظمة الخالق الجليل ﷻ، واطِّلاعه على أعمال عباده، وغَيرته من تلك المعاصي التي يقترفون؛ فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»[1].

اللهم ارزقنا الحياء منك، والخشية لك، والعلم بك، واملأ قلوبنا محبّة لك، وندمًا على ذنوبنا ومعاصينا.



(1) رواه البخاري (٤٦٣٤ و٤٦٣٧)، ومسلم (٢٧٦٠).

٤/٥/٢ حديث وتأمّل

ما من عبد مؤمن وإنْ أَسْرَفَ على نفسه بالمعصية، إلّا ونفسه تتوق إلى التوبة والإنابة، وأنْ يكون آخر سعيه الحسنى وزيادة، وأنْ يُختَم له بخاتمة السّعادَة؛ إذْ المرجع إليه ﷻ وهو الذي سيقضي بين العباد؛ فريق في الجنة وفريق في السعير.

والتوبة الحقّة وإنْ كانت تعني: الانكفاف عن الذَّنب، والإقبال على الطاعة؛ لكن النفس لا تستقر على ذلك ولا تثبت عليه؛ فإنَّ لهذه النفس أحوالًا عجيبة، وتقلُّبات غريبة، ومداخل خفيّة، مِن ذلك أنّها لا تُحِسّ للتوبة لذَّة وأُنْسًا إلّا باستحضار أحوال قلبيّة عِدّة كشف النِّقاب عن جملة منها بعض أهل العلم من خلال التأمُّل في آيات الله ﷻ، وأحاديث رسوله -صلوات الله وسلامه عليه-، فعرفوا من ذلك جُمَلًا ونُكَتًا وفوائد وفرائد ومنها ما جرى به يراع الإمام العابد ابن القيِّم رحمة الله عليه، ومن كلامه نقتبس بعض الجُمَل التالية بإذن الله ﷻ.

أقول: إنّ المعصية مهما لذّت عند مرتكبها فهي حالة من العجز والخور؛ إذْ إنّ أي عاصٍ ولو بعد حين، يعترف لا محالة أنّ ما فعله لم يكن في صالحه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وقد وقع حين فَعلَ الذّنب تحت سلطان شهوته التي قهرته حين جرّته إلى الذنب، وأوقعته في الخطيئة.

لقد كان في أثناء المعصية يعيش حالًا من العبث ينكرها عقله في حال

الصحو والإدراك، وكان يعيش حالًا من الشرود عن ربّه وباريه الذي دعاه إليه، ورغّبه في المسير إليه، وكان يعيش حالًا مِن الاسترواح إلى الضلال، والسكون إلى ما يضرّه ويؤذيه.

ولكنه يستنكف في لحظات إفاقته ووعيه أنْ يأذَن لنفسه أو لأحدٍ ممَّن هو واقع في مثل ما هو واقع فيه بمقارفة ما يأتيه حال سُكره بالمعصيه.

وعلى كُلٍّ، فساعات المعصية، هي ساعات العجز والضعف، فمن تأمّلها حق التأمُّل استنكف أنْ يبقى على تلك الحال، أو أنْ يستمر في ذلك المقام، وأحبّ أنْ ينتقل إلى حال الكمال في طاعة الله، والتقرّب إليه.

فإذا كانت الطاعة تُرشد العقل الضال، وتُنير القلب المتحيّر، وتأخذ بالإرادة إلى حيث المنافع، فما باله لا يعيش مع ربّه طائعًا مُحبًّا مجتهدًا في كسب المراضي، مُستكثرًا من نهر الحسنات؟!

وَتُعْرِضُ عَن فِعْلِ المَرَاضِي وَتَرْتَضِي ... فِعَالاً تُنَافِي فِعْلَةَ الدَّيِّنِ الرَّضِي
أَمَا تَرْعَوِي يَا مَنْ عَلَى لَهْوِهِ رَضِي ... أَمَا العُمْرُ يَفْنَى والشبيبةُ تَنْقَضِي[1]

وإنّ ممّا يعينه على سلوك منهج التوبة: أنْ يطالع برَّ الله وستره عليه حال ارتكاب المعصية، فكم بقي عليها زمنًا لا يراه أحد، ولا يطالعه إنسان، ولو شاء الله أنْ يهتك ستره ويفضحه بين الخلق لفعل، فإذا عَرف الضرر في انكشاف أمره، والخير في ستر الله عليه، أوجب ذلك أنْ يعيش مع ربِّه،

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار (٣/ ١٥٢).

مُطالعًا لبرِّه ﷻ، فيدرك طرفًا من حقائق قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٨).

وهذا المقام أكمل من مقام مطالعة العجز حال وقوعه في المعصية؛ «فيبقى مع الله ﷻ، وذلك أنفعُ له مِن الاشتغال بجنايته، وشهودِ ذُلِّ معصيتِه؛ فإنّ الاشتغالَ بالله، والغفلةَ عمّا سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى. ولا يوجِب هذا نسيانَ الخطيئةِ مطلقًا، بل في هذه الحال. فإذا فَقَدَها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة، وذِكْرِ الجناية. ولكلِّ وقتٍ ومقامٍ عُبودِيّةٌ تليقُ به»[١].

وإذا كان الله ﷻ قد ستر عليك فلم يفضحك، فقد مَنَّ عليك بمِنَّة أخرى؛ حيث حلم عليك ﷻ، ولم يعاجلك بالعقوبة مع كونك كنت مستحقًّا لها، وقد أمهل اللهُ ﷻ أقوامًا كفروا به حِينًا من الدَّهر حتى كانت نهاية بعضهم إلى دِين الله ﷻ.. ها هو عمر بن الخطاب ﷺ كان حربًا على الله ورسوله ﷺ، يتمنَّى أنْ لو استطاع أنْ يُذْهِبَ محمَّدًا ﷺ من الوجود، ولكنّ الله لم يؤاخذه بذلك في حينه؛ لعِلْمه الأزليّ بما سيؤول إليه مِن الهُدَى والرَّشاد، فكان خيرًا للإسلام والمسلمين، وقبل ذلك خيرًا لنفسه حين استنقذها من النار بالإيمان.

وخالد بن الوليد ﷺ كان قبل إسلامه يقود جيوش الشرك ليحطّم راية الإسلام، ويذلّ المسلمين، فلم يؤاخذه الله ﷻ بذلك؛ لعِلمه الأزليّ بما يؤول إليه من النُّصرة لِدين الله ﷻ، حتى أصبح جُنديًّا في صفوف

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٢٧ - ٢٢٨).

المسلمين، وسيفًا مسلولًا على الشّرك والمشركين، بلْ ورأسًا في الذَّودِ عن الإسلام، وهِمَّة عليّة في نشره في أرجاء الأرض.

وكثير كثير من الخَلق تمر عليهم أوقات يرتكبون معاصي وجرائر عِظَامًا، لكن الله بحلمه وصفحه وبِرّه وإحسانه، يُمهلهم، فيعودون إليه أحسن ما يكون العَود. فأَجِل النّظرَ يا عبد الله في فضل الله عليك، حين لم يعاجلك ، واحمده على حلمه وإمهاله، واشكره على دفع العقوبة عنك..

ثم طالع كرم الله وَجُودَه حين يَقبل معذرتك وتوبتك، مع أنه هو الذي وفَّقك إليها وأعانك عليها.

أرأيت! كيف يُحسِن إليك الباري ﷻ فيوفّقك إلى التوبة، ثم يفرح بتلك التوبة التي وفّقك لها، ويجازيك عليها أحسن الجزاء؟! فسبحان الله المنعِم المتفضِّل!

يقول ﷺ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**».[1]



(١) رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس ﷺ، واللفظ لمسلم.

٤/٥/٣ معرفةٌ وشُكر

من أعظم المعِينات على التوبة، والمثبّتات عليها: معرفة العبد المنزلة الحقّة التي أرادها الله للإنسان؛ فإذا عرف هذه المنزلة أَنِفَ أنْ ينزل عنها؛ «إنّ الله ﷻ اختصّ نوع الإنسان من بين خلقه بأنْ كرّمه وفضّله وشرّفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصّه مِن معرفته ومحبّته، وقُربه وإكرامه، بما لم يعطه غيره، وسخّر له كل ما في سمواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه -، استخدمهم له، وجعلهم حفظةً له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلّمه ...، واتخذ منه الخليل والكليم، والأولياء والخواصّ والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحلّ حكمته، وموضع حبّه، وخلق لهم الجنّة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني؛ فإنه خلاصة الخَلْق، وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب، فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خَلَق أباه بيده، ونفخ فيه مِن رُوحه، وأسجد له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة فمَن دونهم من جميع المخلوقات، وطَرَد إبليس عن قُربه، وأبعده عن بابه؛ إذْ لم يسجد له مع السّاجدين، واتخذه عدُوًّا له.

فالمؤمن مِن نوعِ الإنسان خير البريّة على الإطلاق، وخِيرة الله من العالمين؛ فإنّه خَلَقَه ليتمّ نعمته عليه؛ وليتواتر إحسانه إليه، وليخصّه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيّته، ولم يخطر على باله ولم يشعر به؛ ليسأله مِن

المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة، العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلّا بمحبّته، ولا تنال محبّته إلّا بطاعته، وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوبًا له، وأعدّ له أفضل ما يعدّه محبّ غنيّ قادر جواد لمحبوبه إذا قَدِم عليه، وعهد إليه عهدًا تقدّم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقرّبه إليه، ويزيده محبّة له، وكرامة عليه، وما يبعده منه، ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه».[1]

فإذا تأمّلت أيّها الإنسان كل هذه العناية الإلهيّة بك، وأدركت السر في تشريفك وتكريمك، ورأيت اللطف في معاملتك وتقويمك، أدركت كم من الخير تحوز: إذا سابقت في طاعة ربِّك، وكم من الخير يفوت: إذا تولّيت وأعرضت عنه.

فعمارة القلب بهذه الحقائق، وخفقان الروح بهذا العِلم، وامتلاء المشاعر بهذه المناظر؛ مِن أعظم ما يُعينُ على الإنابة، ويُثبّت على الاستقامة.

وثمّة نظر آخر حريّ بالعبد أنْ لا يغفل عنه: وهو أنّ الله جوَاد كريم، يحب أنْ يُسبِغَ على عباده جوده وكرمه، لا يبرم بالمسألة، ولا يَكره الإلحاح، ولا تُنقص ملكه العطايا، كما قال ﷺ: «... **يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاء اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .. أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**».[2]

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٣٢ - ٢٣٣).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي حديث أبي ذرٍّ ﵁ القُدسي: «... **يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**».[1]

هذا الجود السّابغ، والكرم العميم، جعل الله طاعته سبيلًا إليه، وإنْ كان الله يرزق الخلق كلهم، مؤمنهم وكافرهم، بمقتضى ربوبيّته ﷻ، ولكن العطايا لأهل الإيمان تختلف كيفًا وكَمًّا، فإذا عصى العبدُ ربَّه فقد تسبّب في سدّ بابٍ مِن الكرم إليه، وفتح على نفسه باب العقوبة مَسُوْقًا إليه ، كما يقول ابن القيم رحمه الله : (فقد استدعى من الجواد الكريم خلافَ ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر، وتعرّض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه. وأنْ يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه ... وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: «أنه رأى في بعض السِّكَك بابًا قد فُتِح، وخرج منه صبيٌّ يستغيث ويبكي، وأمُّه خلفه تطرده، حتى خرج فأغلقت الباب في وجهه، ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مُفكِّرًا، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أُخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا، فوجد الباب مُرْتجًا فتوسّده، ووضع خدّه على عتبة الباب ونام، فخرجت أمُّه، فلمّا رأته على تلك الحال لم تملك أنْ رَمَتْ بنفسها عليه، والتزمته تقبّله وتبكي، وتقول: يا ولدي أين تذهب عنّي؟ ومَنْ يؤويك

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تَحْمِلْنِي بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟! ثم أخذته ودخلت».

فتأمّل قول الأم: «لا تَحْمِلْنِي بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة والشفقة»، وتأمّل قول النبي ﷺ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الوالِدَةِ بِوَلَدِهَا**».[(١)]

وأين تقع رحمة الوالد من رحمة الله التي وَسِعَت كل شيء، فإذا أغضبه العبد بمعصيته، فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه، فقد استدعى منه ما هو أهله وأولَى به).[(٢)]

النُّفوس البشريّة مجبولة بأصل خلقتها على محبة الطيِّب، وكراهة الخبيث، وعلى استحسان الحسَن واستقباح القبيح. وإذا كان هذا متقرِّرًا في الفِطَر، فهو أيضًا ما تُهدَى إليه العقول السليمة المبصرة التي لم تعمها أهواء الشهوة، ولم يغش بصرها دخان الملذات.

والمستبصر في الأدلّة الشرعيّة يجد أنها جَعلت هذا المركوز في الفِطَر، المغروس في العقول، مُنطلَقًا في الاحتجاج، وسبيلًا إلى الإقناع بأوامر الشرع ونواهيه؛ فالمحرَّمات والمنهيّات - مثلًا - سيِّئة قبل الشَّرع لا أنّها صارَت

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطّاب ﷺ.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

بالشَّرع كذلك؛ فالظُّلم ظُلم في نفسه قبل النهي وبعده، والفاحشة كذلك، وكذلك الشرك، ثمّ إنَّ هذه المحرَّمات والمنهيّات ازدادت قُبحًا عند أرباب البصيرة بنهي الربِّ تعالى عنها، وذمّه لها، وإخباره ببغضها، وبغض فاعلها، كما أنّ الأوامر الحسنة، حسنة قبل الأمر بها، وازدادت حُسنًا بأمر الربِّ بها، وثنائه على فاعلها، وإخباره بمحبّته ذلك، ومحبة فاعلها؛ بل من أعلام نبوّة محمّد ﷺ: أنّه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيّبات ويُحرّم عليهم الخبائث.. فمن أوضح الأعلام الدالّة على نبوّته: أنّ ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حُسنه وكونه معروفًا، وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا، وما يُحلّه تشهد كونه طيّبًا، وما يُحرّمه تشهد كونه خبيثًا. وهذه دعوة جميع الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهي بخلاف دعوة المتغلّبين المبطلين، والكذّابين والسَّحَرة؛ فإنّهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر، وبغي وإثم وظلم؛ ولهذا قيل لبعض الأعراب وقد أسلم -بعد معرفته دعوته ﷺ -: عن أيِّ شيء أسلمت؟ وما رأيت منه ممّا دَلَّكَ على أنّه رسول الله؟ قال: «ما أَمَرَ بشيء، **فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به، ولا أحلَّ شيئًا، فقال العقل: ليته حرّمه، ولا حرّم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه**»[1].

ومن هنا امتلأ القرآن الكريم بالأمثال المنبّهة لحُسن ما أمر الله به، وقُبح ما نهى عنه، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٥٨).

المثال الأول: الشرك من أعظم ما نهى الله عنه، وقد نبّه الله - فيما نبّه - على بطلان الشرك باستقباح العقول السَّويّة له في مثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢٨).

فالمشركون مقرُّون بأنهم مملوكون لربِّهم، خاضعون لسلطانه، وقد استقرَّ في عقولهم استقباح أحدهم أن يكون مملوكه شريكًا له في رزقه على حدٍّ سواء، كما يشاركه الأحرار في القسمة والاختصاص، فكيف يرضون أنْ يجعلوا الله شريكًا مِن خَلْقِه يعبدونه ويلتجئون إليه، أفينكرون هذا في تعاملهم مع عبيدهم، ولا ينكرونه في تعاملهم مع ربهم وهم عبيده؟!

إنّ هذا لمِمّا تدفعه العقول السليمة، وتأباه الفِطَر المستقيمة، ولكنهم لم يقعوا فيها وقعوا لظنهم حسنه وجماله، ولكنه العمى عن الهدى؛ ولذا عقبت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (الروم: ٢٩).

وانظر إلى عتاب الكفّار لأنفسهم حين أُلقوا في الجحيم، كيف أنهم كانوا ملغين لعقولهم حين استدبروا الهدى، فتركوا الإيمان بالنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ

نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك: ٦ - ١١).

المثال الثاني: أنّ المشركين كانوا يبتدعون في التحليل والتحريم مِن عند أنفسهم، فيأمرون بما هو قبيح، وينهون عمّا هو حسن، ويضيفون هذه التشريعات الضالّة إلى الله رب العالمين، فكان مِن نقض الله لشرعهم أنّ هذا الذي شرعوه مخالف للمستقر في شريعة الرب من الأمر بالحسن والنهي عن القبح. ومن أمثلة ذلك: أنّهم حرّموا على الناس الطّوافَ بالبيت الحرام بثيابهم، حتى يشتروا ثيابًا جديدة، فإنْ أعوزتهم النفقة فليطوفوا بالبيت عراة. وذلك فُحش من العمل لا يمكن أنْ يأتيَ به دِين الله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾، فردّ الله عليهم ببيان حقيقة دين الله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٨).

وبجانب أنه لا يأمر بالفحشاء - وهي القبيح الظاهر -، فإنّه يأمر بالأمر الجميل الحسَن: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٩).

وسبب ضلال هؤلاء والتباس عقولهم: اتّخاذهم الشياطين أولياء من دون الله. وللشياطين أثر لا يُنكر في إفساد نور العقل، وطمس معالم الرُّشد: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ

أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٠).

انظر كيف أصبحوا يَحسبون الضّلال هدى، والغواية رشادًا؟!

ثم عادت الآية لتقرِّر حقيقة الحسَن في أوامر الله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣١ - ٣٣).



الختام

«اللهم إنِّي أبرأ مِن الثقة إلّا بك، ومِن الأمل إلّا فيك، ومِن التسليم إلّا لك، ومِن التفويض إلّا إليك، ومِن التوكُّل إلّا عليك، ومِن الطلب إلّا منك، ومِن الرِّضا إلّا عنك، ومِن الذُّل إلّا في طاعتك، ومِن الصبر إلّا على بابك.

وأسالك أنْ تجعل الإخلاص قرين عقيدتي، والشُّكر على نعمتك شعاري ودثاري، والنظر في ملكوتك دأْبي وديدني، والانقياد لك شأني وشغلي، والخوف منك أمني وإيماني، واللِّياذ بذِكْرِك بهجتي وسروري.

اللهم تتابع برُّك، واتصل خيرك، وعظم رفدك، وتناهى إحسانك، وصدَق وعدك، وبَرَّ قَسَمُك، وعَمَّت فواضلك، وتمت نوافلك، ولم تبق حاجة إلّا قد قضيتها وتكفَّلت بقضائها، فاختم ذلك كله بالرِّضا والمغفرة؛ إنّك أهل ذلك والقادر عليه».(١)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



---

(١) البصائر والذخائر (٦/ ٥).

حديث القلوب

«حديث القلوب» جملة مِن المقالات المختصرة عن بعض «أعمال القلوب» التي تناثر دُرُّها، وفاح عبيرُها في كتاب ربِّنا ﷻ وسُنَّةِ نبيِّنا محمّد ﷺ. نظمْتها وأنا أتقلّب في أفياء الوحيَين، مُتضلِّعًا من مائهما الطَّهور، مُستروحًا إلى نسائمهما العذبة التي تَبُلّ الصَّدا، وتُنعش الفؤاد، وتُحيي القلب، وتَستثير الهِمّة المُباركة، وتَحدو السّائرَ إلى غايته العليا في القرب من ربِّه ﷻ، والأُنس بجنابه، والحياة في ظلِّ شريعته. ألتمس من الحقِّ ﷻ أنْ أوفّق فيها لتنبيهٍ يُحيي الفؤاد، وموعظة تَستدرُّ الدمع، وتذكيرٍ يُزيل حُجُب الغفلة ويبعث اليقظة في النفس، واستبصار يُولِّد فرقانًا بين المتشابهات؛ حتّى تدرك النّفسُ حقائقَ الأشياء كما هي؛ لتعرف الضارَّ من النّافع، والطيّب من الخبيث. وإنّني لأنشد أنْ تنبلج هذه المقالات عن حديثٍ فيه تفصيل عن بعض تلك الأعمال؛ يُبيِّنُ ماهيّتَها، ويُوضِّحُ ثمراتِها، ويكشفُ عن مُعَوِّقَاتِها. وقد توخّيت من خلالها أنْ نحيا جميعًا مع نماذج حيّة من سِيَر عباد الله الصالحين؛ بدءًا مِن رُسُل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى أئمة الهُدَى وأنوار الدُّجى مِن العلماء والعُبّاد والزُّهّاد. هذه وغيرُها غاياتٌ ومقاصد أرجو التوفيق لتحقيق بعضها في هذه المقالات، التي أسأل الله العليّ القدير أنْ تكون من الكلم الطيّب والعمل الصّالح والعلم النافع، وأنْ تكون سببًا للاستقامة على الجادّة، وسُلّمًا إلى مرضاة الله تعالى، وأنْ يعمّ بها النّفع، إنّه جوَادٌ كريم. والحمد لله ربّ العالمين.



الهاتف: 0114534244 الفاكس: 0114534244
الرياض- حي الازدهار - شارع الكوادر


9786038155066